فن التشبيه

بلاغة . أدب . نقد

الجزء الأول

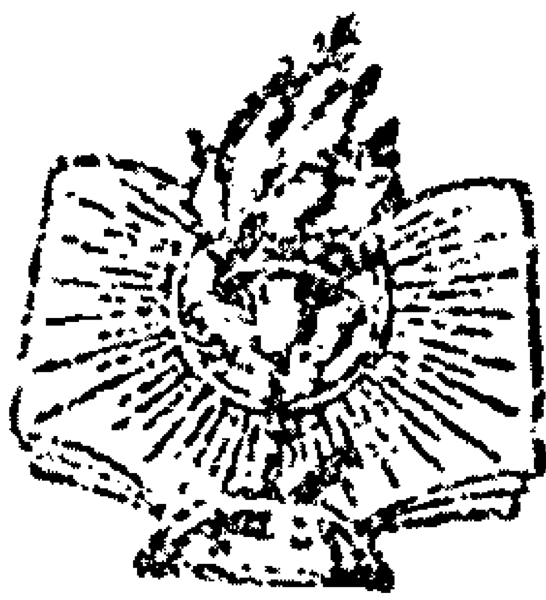
تأليف

علي الجندي

كلية دار العلوم . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٩٥٢



ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر

١٠ شارع كامل صدقي باشا « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله على سوابغ نعمه والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فهذه فصول فى « التشبيه » تناولته من جميع نواحيه تناولا دقيقا شاملا ، لم أفرغ إلى تحريرها إلا بعد التهيؤ لها بالقراءة الطويلة المستوعبة ، وجمع النصوص من مختلف مظانها العلمية والأدبية ، وتخير الشواهد والأمثلة الحية من نثر البلغاء وشعر الفحول ، فتألف من مجموعها موسوعة ضخمة ترضى عقل العالم ، وعاطفة الأديب وذوق الفنان ، وهى — فوق ذلك — تغنى عن الرجوع إلى المصادر البلاغية المتعددة ؛ بما ضمت من قديم يفرض وجوده على كل عصر ، وما حوت من جديد قضى به تقدم الحضارة ، ورقى الفكر ، وتغير البيئة ، وتطور اللغة ، وتشعب أساليب البيان .

وكان من همى ألا أقبل رأياً بدون نظر وبحث ، وأن أدرس المذاهب المختلفة وأنخلها ، وأميز عليلها من صحيحها ، وغثها من سمينها ، دون تأثر بهوى أو عصبية ، وأن أجعل من بينها للدراسات الحديثة مكاناً ملحوظا: من تحليل أدبى ، ونقد قويم ، وموازنة عادلة ، مستعينا على ذلك بما لا يصح للدارس جهله من مباحث علم النفس ، وفلسفة الفن والجمال .

ولست أدعى العصمة من الخطأ والبراءة من الزلل ، فالكمال لله وحده ، وهو ولى الإنعام والتوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

على الجندى

الفصل الأول

حد البيان

معناه فى اللغة :

البيان فى اللغة : اسم بمعنى الفصاحة واللَّسَن مع الذكاء ، وهو أيضاً : ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها .

وفعله « بان » الثلاثى يستعمل لازما فقط ، وغيره من الأفعال وهى : أبان ، وبيّن ، وتبيّن ، واستبان تستعمل لازمة ومتعدية .

ومادته كلها تفيد الوضوح والانكشاف.[1]

البيان فى رأى قدامة :

والبيان عند قدامة على أربعة وجوه :

١ — بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبن بلغاتها ، وهو مايسمى : لسان الحال ، أو دلالة الحال ، كقول بعضهم : سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتبارا .

وكقول نُصيب يمدح سليمان بن عبد الملك :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

٢ — البيان الذى يحصل فى القلب عند إعمال الفكرة واللب ، فيصير صاحبه عالماً بمعانى الأشياء مستيقناً لها ، ويخص باسم « الاعتقاد » .

٣ — البيان الذى هو نطق باللسان للإخبار عما فى النفس من الحكمة المستفادة والمعرفة المكتسبة ، وهو أوضح مما تقدم وأعم نفعاً .

(١) المعجمات اللغوية مادة « بان »

٤ — البيان بالكتاب ليبلُغ من بَعُد أو غاب ، وهو والذى قبله يتغيران بتغير اللغات ، ويتباينان بتباين الاصطلاحات.[1]

وهذه الوجوه كما ترى مرتبة ترتيباً تصاعديا ، ويأخذ بعضها بحُجَز بعض ، فالأول يفضى إلى الثانى ، والثانى يسلم إلى الثالث ، والثالث يؤدى إلى الرابع .

البيان فى رأى الجاحظ .[2]

وقد سبق الجاحظ قدامة بالتكلم فى فضل البيان وتقسيمه ، وهو عنده مرادف للدلالة .

يقول : جميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ : خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد .

١ — اللفظ .

٢ — الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب - إذا تباعد الشخصان - وبالثوب وبالسيف .

والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هى له ، ونعم الترجمان هى عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغنى عن الخط .

وقد قال الشاعر فى دلالات الإشارة :[3]

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وقال الآخر :

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه
وفى الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفى العين غنى للمرء أن تنطق أفواه

(١) نقد النثر من ص ٩ إلى ١١ « طبع وزارة المعارف »
(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٧ إلى ٨٣ « طبع السندوبى »
(٣) أكثر هذه الأمثال من اختيار المؤلف.

وقال أبو الشيص :

دموع العاشقين إذا تلاقوا ... بظهر الغيب ألسنةُ القلوب

وقال إبراهيم بن المهدى :

إذا كلّمتنى بالعيون الفواتر ... رددت عليها بالدموع البوادر

فلم يعلم الواشون ما دار بيننا ... وقد قُضيت حاجاتنا بالضمائر

وقال ابن المعتز أو غيره :

تفقّدْ مساقط لحظ المريب ... فإن العيون وجــوه القلوب

وطالع بوادره فى الكلام ... فإنك تجنى ثمار الغيوب

وقال بعض الأعراب :

وليــل لم يقصّره رقاد ... وقصّر طوله وصل الحبيب

نعيم الحب أورق فيه حتى ... تناولنا جناه من قريب

بمجلس لذة لم نقو فيه ... على شكوى ولا عد الذنوب

بَخلنا أن نقطّعه بلفظ ... فترجمت العيون عن القلوب

وقال آخر :

تَكلّم منا فى الوجوه عيوننا ... فنحن سكوت والهوى يتكلم

ونغضب أحياناً ونرضى بطرفنا ... وذلك فيما بيننا ليس يُعلَم

وقال آخر :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نُطق ... كلاما تكلمنا بأعيننا شزرا

نصد إذا ما كاشح مال طرفُه ... إلينا ونبدى ظاهراً بيننا هجرا

فإن غفَلوا عنا رأيت خدودنا ... تُصافح أو ثغراً قرعنا به ثغرا

وقال آخر :

جعلنا علاماتِ المودة بيننا ... دقائقَ لحظ هن أمضى من السحر

فأعرف منها الوصل فى لين لحظها وأعرف منها الهجر فى النظر الشزر

وهو مأخوذ من قول بعض البلغاء : اللحظ يعرب عن اللفظ[١] .

وقال الفرزدق[٢] فى لغة الحواجب :

هل تذكرين إذ الركاب مُناخة برجالها لرواح أهل الموسم
إذ نحن نسترق الحديث وفوقنا مثل العَجاج من الغبار الأقتم
وكذاك نخبر بالحواجب بيننا ما فى النفوس ونحن لم نتكلم

وقال إسحاق الموصلى فى لغة العيون والحواجب :

ولما رأينا البين قد جد جِدُّه ولم يبق إلا أن تَبين الركائب
دنونا فسلمنا سلاَما مخالَسا فردت علينا أعين وحواجب

وقال الناشىء فى أكثر من ذلك :

فلما تلاقينا كتبن بأعين لنا كتباً أعْجمنها بالحواجب
فلما قرأناهن سراً طوينها حِذار الأعادى بازورار المناكب

٣ — العَقْد : وهو الحساب ويكفى فى فضيلته قوله تعالى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »

٤ — الخط : وقد قالوا القلم أحد اللسانين .

٥ — النِّصبة ؛ وهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، وقد سماها قدامة فيما سبق : « بيان الأشياء بذواتها »

وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض ، وفى كل صامت وناطق ، وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص ؛ فالدلالة التى فى الموات الجامد كالدلالة التى فى الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان .

(١) نفح الطيب — ٢ — ٢٥٣ (٢) أمالى القالى — ٣ — ٨٤

وما أحسن قول بعض الخطباء : أشهد أن السموات والأرض آيات دالّات وشواهد قائمات ، كل يؤدى عنك الحجة ، ويعرب عنك بالربوبية ، موسومة بآثار قدرتك ، ومعالم تدبيرك التى تجليت بها لخلقك ، فأوصلتْ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون ، فهى على اعترافها لك وذلها إليك ، شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات ، ولا تحدك الأوهام ، وأن حظ الفكر فيك الاعتراف لك .

وبذلك يتفق قدامة مع الجاحظ فى بيان اللفظ ، وبيان الخط ، وبيان الحال .

وينفرد قدامة ببيان القلب وهو الاعتقاد .

وينفرد الجاحظ ببيان الإشارة ، وبيان العقد وهو الحساب .

وصفوة القول أن البيان عند الجاحظ : اسم جامع لكل شىء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجُم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأى شىء بلغتَ الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع .

ويقول الحصرى فى قول أبى الطيب يمدح أبا العشائر الحمدانى :

تنشد أثوابنا مدائحَه   بألسن ما لهن أفواه
إذا مررنا على الأصم بها   أغنته عن مسمعيه عيناه

«وهذا المعنى من القضية الدالة بذاتها التى ذكرتها عن الجاحظ فى أقسام البيان».

معناه فى الاصطلاح

وقد عرف علماء البلاغة البيان : بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه .

والمراد بالطرق : التراكيب

ومعنى الاختلاف فى الوضوح : أن يكون بعض هذه التراكيب أوضح دلالةً من بعض مع وجود الوضوح فى الجميع .

فالوضوح هنا أمر نسبي بحسب إضافة بعضها إلى بعض ، والتراكيب كلها جلية بينة، والتفاوت بينها إنما هو فى شدة الوضوح وضعفه تبعاً لمقتضيات الأحوال وتباين المقامات ؛ وأما الخفاء الحقيق الذى ينصرف إليه اللفظ عند الإطلاق ، لعلة تلحق صورة الكلام أو معناه ، فهو التعقيد والاستغلاق والإبهام الذى يناقض البيان فى سره وجوهره ، وغايته وغرضه .

أمثلة لإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة .

مثال ذلك الوصف بالكرم ، فقد أورد فيه المتنبي ما يتعب حصره من العبارات ؛ مثل قوله :

لم أعرف الخير إلا مذ عرفت فتى   لم يُولد الجود إلا عند مولده
يعطيك مبتدراً فإن أعجلته   أعطاك معتذراً كمن قد أجرما
يا من لجود يديه فى أمواله   نِقَمٌ تعود على اليتامى أنعما

* * *

أرجو نداك ولا أخشى المطال به   يا من إذا وهب الدنيا فقد بخِلا
تمثلوا حاتماً ولو عقلوا   لكنت فى الجود غاية المثل[١]

* * *

ياذا الذى يهب الكثير وعنده   أنِّى عليه بأخذه أتصدق
أمطر علىَّ سحابَ جودك ثَرَّة   وانظرْ إلى برحمة لا أغرَق[٢]

* * *

غمام علينا ممطر ليس يُقشع   ولا البرق فيه خُلَّباً حين يلمع
إذا عرضتْ حاجٌ إليه فنفسُه   إلى نفسه فيها شفيع مشفَّع

* * *

(١) تمثلوا حاتما : أى ضربوه مثلا فى الجود .   (٢) ثرة : غزيرة .

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
ومن توهمت أن البحر راحته جوداً وأن عطاياها جواهره

* * *

فما بفقير شام برقك فاقة ولا فى بلاد أنت صيّبها مَحْل

* * *

تَباعد ما بين السحاب وبينه فنائلها قطر ونائله غَمْر
ولو تنزل الدنيا على حكم كفه لأصبحت الدنيا وأكثرها نزْر

* * *

ماذا البهاء ولاذا النور من بشر ولا السماح الذى فيه سماح يد
أىّ الأكف تُبارى الغيث ما اتفقا حتى إذا افترقا عادت ولم يعد

* * *

حَنِق على بِدَر اللُّجيْن وما أتت بإساءة وعن المسىء صَفوح(١)
لو فُرِّق الكَرمُ المفرَّق ما لَه فى الناس لم يك فى الزمان شحيح
لو كنت بحراً لم يكن لك ساحل أو كنت غيثا ضاق عنك اللُّوح(٢)
وخشيت منك على البلاد وأهلها ما كان أنذر قومَ نوح نوح

* * *

كأنك فى الإعطاء للمال مبغض وفى كل حرب للمنية عاشق
فما ترزُق الأقدار من أنت حارم ولا تحرِم الأقدار من أنت رازق

* * *

وثقنا بأن تعطى فلو لم تجد لنا لخلناك قد أعطيت من قوة الوهم
وأطمعتنى فى نيل ما لا أناله بما نلت حتى صرت أطمع فى النجم

* * *

(١) البدر : جمع بدرة وهى عشرة آلاف درهم . (٢) اللوح : الجو .

٢٢٣٤٥١٠

أتيناه نطالبه برفد   فطالب نفسه منه بدين

* * *

كأن سخاءَك الإسلامُ تخشى   إذا ما حُلت عاقبةَ ارتداد

* * *

إذا عُدَّ الكرام فتلك عِجْل   كما الأنواءُ حين تعد عام(١)
ولو يَمَّمتهم فى الحشر تجدو   لأعطوك الذى صلوا وصاموا(٢)

* * *

سنىّ العطايا لو رأى نوم عينه   من اللؤم آلى أنه لا يهوِّم(٣)
ولو قال هاتوا درهما لم أجد به   على سائل أعيا على الناس درهم

* * *

وجُدتَ حتى كدتَ تبخل حائلا   للمنتهى ومن السرور بكاء(٤)
لم تحكِ نائلك السحاب وإنما   حُمَّت به فصبيبها الرُّحَضاء(٥)

* * *

إنك من معشر إذا وهبوا   ما دون أعمارهم فقد بخلوا

* * *

ما به قتل أعاديه ولكن   يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

* * *

سفك الدماء بجوده لا بأسه   كرما لأن الطير بعض عياله

* * *

أخلت مواهبك الأسواقَ من صنَعٍ   أغنى نداك عن الأعمال والمهن

(١) عجل : قبيلة الممدوح . (٢) تجدو : تسأل العطاء .
(٣) آلى : أقسم ، وهوم : هز رأسه من النعاس .
(٤) يقول قد جدت إلى نهاية الجود ولم تترك مزيداً فكدت تحول إلى البخل ، لأنه ليس بعد التمام غير النقصان عملا بسنة الطبيعة ؛ وهو من معانيه الدقيقة. (٥) الرحضاء : عرق الحمى.

ذا جود من ليس من دهر على ثقة   وزهد من ليس من دنياه فى وطن

* * *

يعطى المبشِّر بالقصاد قبلهم   كمن يبشره بالماء عطشاناً

* * *

وإن سحاباً جوده مثل جوده   سحاب على كل السحاب له فخر

* * *

إن كان فيما نراه من كرم   فيك مزيد فزادك الله

* * *

وكأنما جدواه من إكثاره   حسد لسائله على إقلاله (١)

* * *

تشبيه كفك بالأمطار غاديةً   جود لكفك ثان ناله المطر

* * *

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته   إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

* * *

فتى لا يرجِّى أن تتم طهارةٌ   لمن لم يطهر راحتيه من البخل

* * *

ما سمعنا بمن أَحبَّ العطايا   فاشتهى أن يكون فيها فؤاده

* * *

لو فطِنت خيلُه لنائله   لم يُرضها أن تراه يرضاها (٢)

لا تجد الخمر فى مكارمه   إذا انتشى خَلَّة تلافاها (٣)

(١) يقول كأنه يحسد سائله على فقره فيعطيه كثيراً ليفتقر مثله !.

(٢) أى لوعلمت خيله حقيقة جوده لم يسرها أن تعجبه لأنها إن أعجبته وهبها للناس.

(٣) الخلة لفتح : الخصلة ، والمعنى أن نشوة الشراب لا تزيده مروءة على مروءته ؟ لأن مكارمه تامة قبل أن يشرب .

هذه أبيات تعمدنا أخذها مما قاله شاعر واحد فى معنى واحد وهو الكرم. فياليت شعري كم عسى يبلغ ما قاله الشعراء جميعا فيه، ولاسيما إذا عرفنا أن هذا الخلق من الأخلاق السامية التى مدح بها الناس كثيراً منذ أن عرف المديح.

وإنك لواجد إذا نظرت فى هذه الأبيات فنونا من القول وضروبا من الكلام؛ فمن تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى لون آخر لا ينتظم فيها، وكل منها يتشقق إلى شعب كثيرة تختلف فى الزى وتنتسب إلى أصل واحد. ثم هى — إلى ذلك — تتنافس فى الحسن وتتبارى فى الجمال، وتتبرج فى معارض متباينة من الوضوح، فهذا يسفر حتى يفهمه العامة، وذلك يلطف حتى لا يدركه غير الخاصة، ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول: إن آفة لفظية أو معنوية عثّرت مسلكه، وطمست معالمه.

وهذه أبيات وردت فى وصف الخال لعدة شعراء مع ملاحظة أن الخيلان لم تشغل أذهان الشعراء كما شغلها غيرها من سمات الملاحة والجمال، ومع ذلك استطاعوا أن ينوعوا التعبير، ويتفننوا فى الأداء، بالرغم من وحدة المعنى:

قال ابن منير الطرابلسى:

ما خاله من فتيت عنبرِ صُدغيه م ولا قَطر صِبغة الكَحَل[(١)]
لكن سويداءُ قلبِ عاشقه طفت على نار وَرده الخجِل

وقال أيضاً:

أنكرتْ مقلتُه سفك دمى وعلى وجنته فاعترفتْ
لا تخالوا خاله فى خـــده قطرة من صِبغ جفن نطفَت[(٢)]

(١) الكحل بفتح الكاف والحاء: سواد العين خلقة، وفى ذلك يقول الشاعر:
ليس التكحل فى العينين كالكحل
(٢) نطف: سال.

تلك من نار فؤادى جـذوة   فيه ساخت وانطفت ثم طفت

وقال آخر :

لا تخالوا الخال يعلو خده   نَقْطَ مسك ذاب من طُرَّته[1]
ذاك قلبي سُلبت حَبَّتــــه   فاستوت خالا على وجنته

وقال آخر :

كم قلت للنفس إليه اذهبي   لحبه المشهور من مذهبي
مهفهف القد له شامة   من عنبر فى خده المُذْهَب

وقال حسام الدين الحاجرى :

ومهفهف من شعره وجبينه   يغدو الورى فى ظلمة وضيـاء
لا تنـكروا الخال الذى فى خده   كل الشقيق بنقطة سوداء

وقال آخر :

بدا علَى خده خال يزينه   فزادنى شغفاً منه إلى شغفى
كـأن حبة قلبي عند رؤيته   طارت فقلت لها فى الخد منه قفى

وقال آخر :

لهيب الخد حين رأته عينى   هوى قلبي عليه كالفرَاش
فأحرقه فصـار عليه خالا   وها أثر الدخان على الحواشى

وقال آخر :

خيلانـــ خدك ردت   صحيـــح قلبي مريضا
فى العين سود ولكن   ما زلن فى القلب بيضاً

وقال آخر :

حجّت إلى وجهك أبصـارنا   طائفةً يا كعبة الحسن

---

(١) الطرة : شعر الناصية .

تمسَّح خالا منك فى وجنة　　كالحجر الأسود فى الركن

وقال العباس بن الأحنف :

ومحجوبة فى الخدر عن كل ناظر　　ولو برزت ما ضل بالليل من يسرى
بخال بذاك الخد أحسن منظراً　　من النقطة السوداء فى وَضَح البدر

وقال كشاجم :

فديت زائرة فى العيد واصلة　　لمستهام بها للوصل منتظر
فلم يزل خدها ركناً ألوذ به　　والخال فى صحنه يغنى عن الحجر

وقال آخر :

وبين الخد والشفتين خال　　كزنجى أتى روضا صباحا
تحيَّر فى الرياض فليس يدرى　　أيجنى الورد أم يجنى الأَقاحا

وقال الشاب الظريف :

أدنته لى سنة الكرى فلثمته　　حتى تبدل بالشقيق السوسنُ
ما راعنى إلا بِلال الخال من　　خديه فى صبح الجبين يؤذن

وقال ابن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له　　بالعاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثه حَبَّة القلب القتيل به　　وكان عهدى بأن الخال لا يرث

فانظر كيف دار هذا الشعر كله حول معنى واحد ، وهو وصف الخال بالسواد وصف تزيين ، مع التعليل الشائق لهذا السواد .

وهكذا قلَّ أن نجد معنى لم يتناوله الشعراء بأساليب منوعة وبخاصة فى العصور السالفة ، لأن الشعراء حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ، وحجَّروا ما وسعه الله عليهم ، فقلَّت لديهم المعانى وكثرت الألفاظ ، فالمدائح مثلا لا تكاد تخرج عن الشجاعة والكرم ، والغزل كله أنفق فى وصف مفاتن المرأة البدنية .

فلهذا كثر الاغتصاب الأدبي والأخذ والسرقة حتى وجدنا من يستحل ذلك جهرة ولا يتحرج منه كالفرزدق [١] .

واختلاف التراكيب من الأدباء والشعراء مع الاتفاق فى المعانى ، مما تحتمه الطبيعة الإنسانية ، فكما يختلف الناس فى ألوانهم وسحنهم وسماتهم وأخلاقهم وأمزجتهم وعواطفهم ، ونظرهم إلى الأشياء وكيفية تناولهم لها ، لا بد أن يختلفوا فى صياغة كلامهم ونسجه وتحبيره وتنميقه شعراً ونثراً وخطباً ، حتى لا تجد تعبيرين يتحدان إلا أن يكون أحدهما سرقة أو تقليداً للآخر ؛ أو يكون من باب اتفاق الخواطر وهو نادر لا يعتد به ، ومن ثَم صح قولهم : إن الأسلوب هو الكاتب ، أو هو الرجل [٢] .

الفصاحة والبلاغة والبيان :

والفصاحة والبلاغة والبيان تشترك فى كثير من المعانى ، ويختص كل واحد منها بما ليس عند الآخر .

فالفصاحة أصلها الخلوص من الشوائب ، وتكون بالنسبة إلى اللفظ من وجهين : أحدهما أن يُخرج المتكلم الحروف من مخارجها ، ويخلّص بعضها من بعض .

والثانى أن يكون اللفظ مما تداوله فصحاء العرب وكثر فى كلامهم .

وتكون بالنسبة للمعنى : خلوصه من غيره .

ومعنى البلاغة : انتهاء الشيء إلى غايته المطلوبة .

وتتعلق بالمعنى فقط ، وهو أن يبلغ من نفس السامع مبلغه .

والبيان فى عرف الكلام أتم من الفصاحة والبلاغة ؛ لأن كل واحد منهما من مادته وداخل فى حقيقته ، لذلك قلنا : علم البيان ، وتكلمنا فيه عن

---

(١) الموشح — ١٠٦ (٢) الأسلوب للشايب بك — ٩٧ .

الفصاحة والبلاغة وغيرها ، ولم يوضع علم للفصاحة ولا علم للبلاغة [١] .

وبما تقدم نفهم أن البيان يطلق على معنيين :

١ — معنى أدبي واسع يشمل الإفصاح عن كل ما يختلج فى النفس من المعانى والأفكار والأحاسيس والمشاعر بأساليب، لها حظها الممتاز من الدقة والإصابة والوضوح والجمال، وهو بهذا التعميم يجمع فنون البلاغة الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق لفظ البيان ، وإياه يعنى جعفر البرمكى — حين سئل عن البيان — فقال : أن يكون الاسم يحيط بمعناه ، ويكشف عن مغزاه ، ويخرجه عن الشركة ، ولا يستعان عليه بالفكرة ، ويكون سليماً من التكلف بعيداً عن الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل [٢] .

وقال فيه الرمانى : هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك .

وإنما قيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة ، لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء .

وقال : الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عُقلة .

وقد قيل ذلك ؛ لأنه قد يتأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ولا يستحق اسم بيان [٣] .

٢ — معنى علمى ضيق ، وهو التعبير عن المعنى الواحد بطريق الحقيقة أو المجاز ، أو الكناية كما سلف .

وهو أحد فروع البلاغة عند أهل الاصطلاح .

---

(١) الأقصى القريب لزين الدين التنوخى — ٢٣٣

(٢) زهر الآداب ١ — ١٥٠   (٣) العمدة — ١ — ١٦٩ — ١٧٠

الفصل الثاني

الدلالات

قد اقتضاهم جعل الدلالة جزءاً من تعريف البيان ، أن يعرضوا لتقسيمها وبيان الدلالة المقصودة هنا ؛ فقالوا : إن الدلالة اللفظية ثلاثة أقسام :

١ — دلالة المطابقة .

وهى دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، كدلالة الإنسان على مجموع الحيوان والناطق ، ودلالة البيت على مجموع الجدار والسقف .

سميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى : أى توافقهما ، أو لتطابق الفهم والوضع : بمعنى أن ما فهم هو ما وضع له اللفظ .

٢ — دلالة التضمن .

وهى دلالة اللفظ على جزء ماوضع له ، أو جزء مسماه مع دخوله فيه كدلالة الإنسان على الحيوان فقط ، ودلالة البيت على الجدار أو السقف .

سميت بذلك لأن الجزء المفهوم من اللفظ هو فى ضمن المعنى الكلى ، فيفهم عند فهمه .

٣ — دلالة الالتزام .

وهى دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له [1] ؛ كدلالة الإنسان على معنى الضاحك ، ودلالة السقف على الجدار ، فإنه خارج عنه ، لازم له لا جزء منه .

سميت بذلك لأن المدلول فيها لازم للمعنى الموضوع له اللفظ .

(١) يكتفى باللزوم هنا باللزوم الذهنى ، وهو ما يثبته ذهن المخاطب بسبب عرف عام أو خاص أو قرينة حال .

وتسمى دلالة المطابقة عند البيانيين وضعية أيضا ، لأن السبب فى حصولها عند سماع اللفظ أو تذكره ، هو معرفة الوضع فقط دون حاجة إلى شيء آخر .

وتسمى دلالة التضمن والالتزام عقليتين ، لأن حصولها بانتقال العقل من الكل إلى الجزء فى الأولى ، ومن الملزوم إلى اللازم فى الثانية ، بمعنى أن الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى ، غير أن العقل اقتضى أن الشيء لا يوجد بدون جزئه أو لازمه .

وأكثر المناطقة يجعلون الثلاث وضعيات ، لأن للوضع مدخلا فيها سواء أكان سببا تاماً كما فى الأولى ، أو لابد من انتقال عقلى كما فى الثانية والثالثة .

ويرى ابن الحاجب والآمدى : أن الأولى والثانية وضعيتان ، وأن الثالثة هى العقلية فقط [١] .

ويسمى الشهرَوردى دلالة المطابقة : دلالة القصد . ودلالة التضمن : دلالة الحيطة ، ودلالة الالتزام : دلالة التطفل [٢] .

وقد عبر عبد القاهر عن الدلالة الوضعية والعقلية بعبارة مختصرة ، وهى أن نقول : المعنى ، ومعنى المعنى .

فنعنى بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ ، وهو الذى يفهم منه بغير واسطة وبمعنى المعنى : أن يفهم من اللفظ معنى ، ثم يفيد ذلك المعنى معنى آخر [٣] .

المقصود بالدلالة : الدلالة العقلية :

وهم يذكرون : أن محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة والنقصان فى وضوح الدلالة عليه ، لا يتأتى بالدلالات الوضعية [٤] .

---

(١) راجع شروح التلخيص — ٣ — ٢٦٣ إلى ٢٧٣

(٢) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام للأستاذ سامى النشار .

(٣) نهاية الايجاز فى دراية الإعجاز للرازى — ٩

(٤) مفتاح العلوم للسكاكى — ١٧٦

لأن الكمال والنقص والوضوح والخفاء لا يتطرق إليها ، فإذا قلت مثلا : وجه كالبدر فى الحسن ، فقد أعربت عن المعنى بألفاظ تدل عليه دلالة وضعية لغوية ، ومن المحال أن يعتور هذا المدلول نقص أو زيادة ، لأنك إن زدت فى ألفاظها زدت فى المعنى قطعاً ، وإن نقصت منها نقصت من المعنى حتماً ، وإن استبدلت بهاما يرادفها لم تتغير الإفادة فى ذهن السامع إذا كان عارفا أنها موضوعة لإفادة المعانى التى فهمها من سابقتها ، وإن كان يجهل ذلك لم يفهم منها المعنى أصلا .

وعلى هذا فلا يمكن وجود الوضوح والخفاء فى الدلالة الوضعية ، لأن كل الأساليب التى تؤدى معنى بهذه الدلالة يمتنع أن يكون بعضها أتم وضوحا أو أنقص عند العالم بوضع الألفاظ . وأما غير العالم فليس له من سبيل إلى فهمها لتوقف الفهم على معرفة الوضع .

فالدلالة العقلية إذن هى التى يمكن بها إيراد المعنى بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه .

وقد نص عليها الخطيبي صراحة فى تعريف آخر للبيان حيث يقول : هو علم يبحث عما يعلم منه كيفية إيراد المعنى فى أفضل الطرق دلالة عقلية .[1]

ويقول العلوى : محاسن الكلام لا يجوز أن تكون راجعة إلى الدلالات الوضعية لسببين :

أولا : لأن الكلمة قد تكون فصيحة إذا وقعت فى محل ، وغير فصيحة إذا وقعت فى محل آخر .

فلو كان الأمر فى الفصاحة والبلاغة راجعاً إلى مجرد الألفاظ الوضعية لما اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع .

وثانياً لأن الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية من أعظم أبواب

---

(١) شروح التلخيص ـ٣ـ ١٥٦

الفصاحة وأبلغها ، وإنما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعانى لا باعتبار ألفاظها .

فصارت الدلالة على وجهين :

١ — دلالة وضعية ، وهذه لا تعلّق لها بالبلاغة والفصاحة .

٢ — دلالة معنوية :

ودلالتها إما بالتضمن أو بالالتزام وهما عقليان من جهة أن حاصلهما هو انتقال الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلازمه سواء أكانت تلك الملازمة تدل على جزء المفهوم وهى التضمنية ، أو على معنى يصاحب المفهوم ، وهى الدلالة الخارجة أو الالتزام [1] .

وباتخاذهم الدلالة العقلية وحدها أساساً للوضوح والخفاء انحصر عندهم علم البيان ضرورة فى بابين أصليين ، وهما المجاز والكناية .

وخرج التشبيه لأن دلالته وضعية ، فهو من وادى الحقيقة لا المجاز .

وقد قرر عبد القاهر ذلك جليا بقوله : إن كل متعاط لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد وهذا الخبر كالشمس فى الشهرة ، وله رأى كالسيف فى المضاء ، لم يكن منك نقل اللفظ عن موضوعه .

ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون فى الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهو محال ، لأن التشبيه معنى من المعانى ، وله حروف وأسماء تدل عليه ، فإذا صرح بذكر ماهو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم فى سائر المعانى ، فاعرفه [2] .

وإنما خصوا الاستعارة بالذكر — وهى مندرجة فى المجاز فلشرفها وكثرة

---

(١) الطراز — ٣ — ٤١٣ — ٤١٤

(٢) أسرار البلاغة — ١٩٤ — ١٩٥

أنواعها ومباحثها وكونها معظم مقاصد علم البيان [١] .

وإذن لم ذكر التشبيه فى علم البيان ؟

أورد التفتازانى هذا السؤال فى شرح المفتاح وتولى هو بنفسه الإجابة عنه ، فقال : اعلم أن البيان إنما ينظر فى الدلالات العقلية ، والتشبيهاتُ من حيث هى تشبيهات تكون بالدلالة الوضعية ، فكيف يكون التشبيه من مقاصد البيان كما يُشعر بذلك جعله أصلا ثالثاً ؟

والجواب : إنما أخذ أصلا من علم البيان لضرورة ابتناء الاستعارة عليه فلا يكون من أصوله بالذات ، فلا يلزم أن يكون البحث فيه عن الدلالات العقلية [٢] .

وهو مختصر قول السكاكى . . . إن المجاز — أعنى الاستعارة — من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، بل لا بد فيها من تقدمة تشبيه شىء بذلك الملزوم فى لازم له ، تستدعى تقديم التعرض للتشبيه ، فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثا ونقدمه [٣] .

وبذلك أصبحت أصول البيان أربعة .

أصلان ذاتيان وهما المجاز والكناية .

وواحد وسيلة وهو التشبيه .

وواحد جزء من أصل وهو الاستعارة .

شعورهم بالحرج فى هذا الحصر .

وكأنهم شعروا بالاعتراض على جعل التشبيه أصلا فى البيان ، لا لشىء غير بناء الاستعارة عليه ، فقالوا — يبررون عملهم :— بأنه لما كان فى التشبيه

(١) شرح الفوائد الغيائية للمولى عصام الدين — ١٩٤

(٢) حاشية المرشدى على شرح عقود الجمان — ٢ — ٦

(٣) المفتاح — ١٧٧

مباحث شريفة وفوائد لطيفة . جُعل مقصداً برأسه لامقدمة ، وإن كان هو في الحقيقة كذلك [١] .

وقد حمل المولى عصام على السكاكي حملة عنيفة لعده التشبيه أصلا ثالثاً في البيان ! فقال : إن ما قرره السكاكي يستدعي تقديم التشبيه على الاستعارة وجوباً ، وعلى المجاز استحسانا ، كيلا يقع الفصل به بين أنواع المجاز ، وأما أخذه أصلا ثالثاً فلا يستدعيه أصلا ، بل الواجب أن يجعل مقدمة خارجة عن مقاصد هذا الفن ، ويؤيده ما قيل : من أن دلالات التشبيهات من حيث هي ، دلالات وضعية لا عقلية .

ثم ساق عذره: بأنه وإن كان في الحقيقة مقدمة خارجة، ولكنه لكثرة مباحثه وأقسامه ، وعموم تفاصيله وأحكامه ، وتشعب فروعه ، وقوة نفعه في المطالب البيانية قد ارتقى عن أن يجعل مقدمة ، فلهذه الضرورة قد اتخذه أصلا ادعائياً لاحقيقياً ، ولا يذهب عليك أن في جعل التشبيه أصلا ثالثا من البيان بهذا القدر تكلفاً بارداً أراد السكاكي ترويجه بالمبالغة في العبارة حيث قال هنا : ‹ فلا بد من أن نأخذه أصلا ثالثا › مع أنه قال في الأصلين الحقيقيين « المجاز » و « الكناية » : « فلا علينا أن نتخذهما أصلين » [٢] .

والحق أن هذا الحصر لايستقيم لهم ما داموا يسلمون بأن التشبيه مقصد غير أساسي في البيان ، وأنه وسيلة أومقدمة لبعض أنواع المجاز ، ولا ينفعهم أن يقولوا : إنه أصل ادعائي .

ويظهر أن السكاكي قد لحظ هذا التناقض ، فاعترف بأنه تكلف هذا الحصر للضبط . [٣]

وقد سلك بعضهم في الحصر طرقا أخرى بعيدة عن تمحل السكاكي ، يصير بها التشبيه ركنا أصيلا في البيان ، وهي الحقيقة التي لايصح الامتراء فيها.

---

(١) حاشية المرشدي — ٢ — ٥ (٢) شرح الفوائد الغياثية — ١٩٥

(٣) المفتاح — ١٧٧

فالطيبي يقول : اعتبار المبالغة فى إثبات أصل المعنى للشيء إما على طريق الإلحاق أو الإطلاق ، والثانى إما إطلاق الملزوم على اللازم أو عكسه ، وما يبحث فيه عن الأول : لتشبيه ، وعن الثانى : المجاز ، وعن الثالث : الكناية . فانحصر الكلام فى الثلاثة .[1]

ويقول كمال الدين البحرانى : إن اللفظ إما أن يستعمل فى المعنى الموضوع له فهو الحقيقة ، أو فيما له علاقة به بحيث ينتقل الذهن من الموضوع له فى الجملة — وهو المسمى عندهم باللازم — وهو إما أن تكون علاقته المشابهة أو غيرها ، فعلى الأول إن كانت معه قرينة تنافى إرادة المعنى الموضوع له كان استعارة وإن لم يكن كان تشبيها .

وعلى الثانى أيضا إن كانت معه تلك القرينة المانعة كان مجازاً مرسلا ، وإن لم تكن كان كناية .

فأصول البيان أربعة ، فإذا ضممت الاستعارة إلى المجاز المرسل للاشتراك فى المجاز صارت ثلاثة .

ويظهر من هذا أن التشبيه أصل حقيق من أصول هذا الفن ، ألا يرى أن له مراتب متفاوتة فى الوضوح ، وأن فيه من النكت واللطائف البيانية ما لا يحصى .

وما يقال من أن المقصود الأصلى فى التشبيهات هو المعانى الوضعية فقط ليس بشيء ؛ فإن قولك : وجه كالبدر مثلا لا تريد به ما هو مفهومه وضعا ، بل تريد أن ذلك الوجه فى غاية الحسن ونهاية اللطافة ، لكن إرادة هذا لا تنافى إرادة المفهوم الوضعى[2] .

ويقول التفتازانى : إنه لا يلزم أن نظر البيانى مقصور على الدلالات العقلية فقط ، وإنما اللازم ألا يكون فى الوضعية وحدها ، بل فى العقليات

(١) شرح السيوطى لمنظومته عقود الجمان ـ ٢ — ٥
(٢) هامش شرح الفوائد الغيائية ـ ١٩٥

الصرفة، أو فى الوضعيات والعقليات جميعاً. لأن إيراد المعنى الواحد بالطرق المختلفة الوضوح يمكن بجميع ذلك بأن يكون الطريق الأوضح غاية الوضوح من الوضعيات وما سواه من العقليات.[1]

ويقول المولى عصام: دلالة التشبيهات من حيث هى: دلالات وضعية لا عقلية . . . ولكن ليس المقصود الأصلى هو المعانى الوضعية فقط، فإن قولك: وجه كالبدر مثلا لا تريد به ما هو مفهومه وضعاً، بل تريد ذلك الوجه المتناهى فى الحسن، لكن ذلك لا ينافى إرادة المفهوم الوضعى.[2]

ويقول ابن يعقوب: إذا قلت وجه كالبدر، فمدلوله المطابق أن الوجه يشبه البدر فى الاستدارة والاستنارة، وهو المراد مع إرادة لازمه وهو أنه فى نهاية فى الحسن . . . ولصحة أن يراد فى التشبيه المعنى المطابق - وهو اتصاف المشبه بوجه الشبه - أو لازمه صح وجود الخفاء والوضوح فيه. مع أنه ليس من الكناية ولا من المجاز بل من المطابقة اتفاقا.

وعلى هذا ينبغى أن يجعل من الحقيقة أيضاً فهم خواص التراكيب ومناسبتها لمقتضى الحال، فلا يكون من المجاز ولا من الكناية أيضاً.

وكل ذلك مما يقدح فى حصر وجود دلالة الخفاء والوضوح فى التضمن والالتزام اللتين هما العقليتان، وهما أصل للمجاز والكناية دون المطابقة.[3]

ويقول الدسوقى: ويمكن أن يقال: إنه — أى التشبيه — باب مستقل لذاته، لأن الاختلاف فى وضوح الدلالة وخفائها موجود فيه، فهو من هذا

---

(١) حاشية الرشدى — ٢ — ٦
(٢) شرح الفوائد الغيائية — ١٩٥
(٣) مواهب الفتاح — ٣ — ٢٨٨

الفن قصداً وإن توقف عليه بعض أبوابه ، لأن توقف بعض الأبواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن [١] .

ومن هذه الأقوال المتقدمة نخرج بالنتائج الآتية :

١ — أن الوضوح والخفاء يتأتيان بدلالة المطابقة .

٢ — ليس دقيقا مذهب من يقصر الوضوح والخفاء على الدلالة العقلية وحدها .

٣ — يدخل التشبيه فى البيان دخولا أساسيا ، وهو أصل حقيق فيه لا ادعائى ، كما أنه ليس بمقدمة للاستعارة ولا وسيلة لها .

ويجب أن يكون مفهوما أن هذه : الأحكام جارية على القول المشهور من أن دلالة التشبيه وضعية .

فأما على قول السعد فى شرح المفتاح : تشبيهات البلغاء قلما تخلو من مجازات وكنايات [٢] .

وقول الحموى : والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة ؛ كالاستعارة والمبالغة والإرداف والتمثيل والتشبيه ، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعة للمعنى المراد [٣] .

وعلى رأى من يقول : بأن بعضه مجاز وهو المحذوف الأداة ، أو كله مجاز كما يرى ابن الأثير [٤] وكما يفهم من قول ابن رشيق فى العمدة [٥] ، وكما نقله ابن

---

(١) حاشية الدسوقى — ٣ — ٢٩٠

(٢) طراز المجالس للخفاجى — ٤٨ (٣) خزانة الأدب — ٢ — ٥٣٢

(٤) المثل السائر — ١٤١ وذكر ذلك فى كتابه كنز البلاغة كما نقل ابن السبكى . عروس الأفراح — ٣ — ٢٩٠

(٥) العمدة — ١ — ١٧٨ « باب المجاز »

السبكى عن والده فى تفسيره [١]، فدخوله فى البيان أصالة لا يحتاج إلى بيان .

ومن هنا نفهم أنه لم يكن معنى لهذا الحصر الذى تكلفه السكاكى وشغل به الأذهان والأقلام دون فائدة .

بل لا معنى لإقحام الدلالات فى هذا الفن فضلا عن التفرقة بينها فى الوضوح والخفاء ، لأن ذلك من مقاصد المنطق، وموضوع البيان - كما يقول العلوى - هو الفصاحة والبلاغة ومعرفة أساليبهما وهما بمعزل عن علم المنطق، فلا ينبغى أن يمزج أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما [٢] .

وأحسب أنهم فطنوا إلى تطفل الدلالات على البيان ، فرأينا السيوطى فى شرحه لمنظومته عقود الجمان يوجه لنفسه هذا السؤال: ما بالك تكلمت على تقسيم الدلالة وذلك من علم المنطق ؟

وقد تبرع بالجواب كما تبرع بالسؤال فقال : قلت : ليست منه بل هذا أمر لغوى ، وهم مصرحون بأنه ليس من عملهم ، وأنهم يذكرونه فى كتبهم لاحتياجهم إليه .

وقد ظهر لنا جليا أنهم ليسوا فى حاجة إلى ذلك ، ومن الغريب أن يصدر هذا القول ممن يقول : رزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . [٣]

ونحب أن نبين لهذه المناسبة : أن تعرضنا لمبحث الدلالات لا يعنى اعتقادنا بغَنائها فيما نحن بسبيله ، ولكن لنصل إلى مقطع الحق فى هذا الجدل الذى استحرّ بينهم فى موضوع الخفاء والوضوح بلا طائل ، ثم لنصل بعد ذلك إلى رفع الضيم عن التشبيه الذى كادوا يقطعون نسبه عن البيان أو ينزلونه منه منزلة الواو من عمرو ، وهو عمدة هذا الفن وركنه الركين !

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٢٩٠
(٢) الطراز — ١ — ٣٧٠
(٣) حسن المحاضرة — ١ — ١٥٥

وإلا فنحن مع الأستاذ أمين الخولى بك : فى أن مقدمة الدلالات مقحمة بين يدى علم البيان، وأنها مقدمة منطقية لا ينفع علمها فى إدراك صور البيان التعبيرية ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج [١] .

ومع هذا لم يكن من الضرورى أن يتقيدوا بهذا التعريف الذى حمل فى تضاعيفه هذا البحث النظرى المجدب ، فقد كان فى الإمكان أن يقولوا فى تعريف البيان : هو العلم الذى يعرف به أسرار التراكيب المختلفة ، أو العلم بجواهر الكلمة المفردة والمركبة كما عرفه العلوى . [١]

---

(١) فن القول — ١٩٥   (٢) الطراز — ١ — ١٢

الفصل الثالث

حد التشبيه

التشبيه في اللغة :

معنى التشبيه في اللغة : التمثيل ، تقول : شبّهته إياه وشبهته به تشبيها : مثلته [1] فاللغة — كما رأينا — لا تفرق بين التشبيه والتمثيل .

وقد تعلق ابن الأثير بهذا النص اللغوى فعاب على البلغاء هذه التفرقة فنراه يقول : وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل ، وجعلوا لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفردا ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما فى أصل الوضع ، يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال : مثلته به ، وما أعلم كيف خفى ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه . [2]

وما عابه ابن الأثير ليس بعيب ، واتحاد التشبيه والتمثيل فى أصل الوضع لا يخفى على العلماء ، ولكن المعروف أنه يوجد فرق دائما بين العرف اللغوى والاصطلاحى .

والزمخشرى لا يفرق بينهما كذلك ، فالتشبيه عنده مرادف للتمثيل [3] .

ويرى عبد القاهر : أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا ، وكل مالا يصح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه أيضا [4] .

---

(١) القاموس المحيط والصحاح .

(٢) المثل السائر — ١٥٣

(٣) حاشية المرشدى — ٢٧

(٤) أسرار البلاغة — ٧٢

والتشبيه اللغوى ـ ويسمى المعنوى أيضا ـ يشمل التجريد[١] ، والاستعارة التصريحية التحقيقية بلاخلاف، والمكنى عنها على مذهب الجمهور، والتخييلية على مذهب السكاكى ، لأن كلا منها مبنى على التشبيه ، والتشبيه أصل له .

التشبيه فى الاصطلاح .

وقد وردت له فى الاصطلاح عدة تعريفات تختلف فى وضوحها ودقتها وشمولها :

فعند العسكرى : هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أو لم ينب[٢] .

وعند عبد القاهر أن يثبت لهذا معنى من معانى ذاك أو حكما من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء[٣] .

وعند ابن الأثير : أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به .[٤]

وعند السكاكى : وصف الشىء بمشاركته المشبه به فى أمر .[٥]

وعند الرمانى : هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر فى حال[٦] .

وعند التنوخى : هو الإخبار بالشىء ، وهو اشتراك الشيئين فى صفة أو أكثر[٧] .

---

(١) التجريد أن يكون المشبه مذكورا أو مقدرا ، ولا يكون اسم المشبه به خبراً للمشبه ولا فى حكم الخبر مع حذف أداة التشبيه نحو لقيت من زيد أسداً ؛ فأنت فى الأصل شبهت زيداً بالأسد ثم بالغت فى زيد فانتزعت منه الأسد

والتشبيه هنا ضمنى ولا يسمى تشبيها اصطلاحيا وهو الأقرب إذ لم يذكر الطرفان على وجه ينبىء عن التشبيه، وقيل : إنه تشبيه حقيقة لذكر الطرفين فيمكن التحويل فيهما إلى هيئة التشبيه لولا قصد التجريد ، وهو رأى السكاكى

وقد يقال : إن الخلاف لفظى راجع إلى الاصطلاح كما قال الخلخالى

(٢) الصناعتين ـ ٢٢٦ (٣) أسرار البلاغة ـ ٦٣ ـ ٦٤

(٤) المثل السائر ـ ١٦٣ (٥) مفتاح العلوم ـ ١٧٧

(٦) خزانة الأدب للحموى ـ ٢١٦ (٧) الأقصى القريب ـ ٤١

وعندالخطيب : الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى[١] .

وعند ابن رشيق : صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة[٢] .

وعند المطرزى والحلبي : الدلالة على اشتراك شيئين فى وصف من أوصاف الشيء الواحد فى نفسه[٣] .

وعند الوطواط : أن يشبه الكاتب أو الشاعر شيئاً بشيء آخر فى صفة من صفاته[٤] .

وعند آخر : إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما فى صفة اشتركا فى أصلها . واختلفا فى كيفيتها قوة وضعفا .

وفى هذا التعريف الأخير يقول الحموى : وهذا حد مفيد[٥]

ويلاحظ أن هذه الحدود جميعاً تتفق فى الجوهر ، وهو اتفاق المشبه والمشبه به فى وصف يجمعهما .

ولكن يلاحظ كذلك أنها ليست دقيقة ، فمثلا تعريف الخطيب — وهو أشملها — اعترض عليه بأنه لا يمنع من دخول نحو : قاتل زيد عمرا ، وجاءنى زيد وعمرو ، مما جمع فيه بصيغة المشاركة أو واو العطف .

ولا يعد مثل ذلك من التشبيه لخلوه من الوصف الجامع بين الطرفين . مع أن الخطيب من مدرسة السكاكى المشهورة بجودة الضبط والتقسيم ودقة التعريف .

وقد انبرى العلوى لتعريف المطرزى السابق فزيفه ، كما أورد تعريفا

---

(١) الإيضاح — ١٥٢ — التلخيص — ٢٣٠ « طبع البرقوقى »
(٢) العمدة — ١ — ١٩٤ (٣) الطراز — ١ ٢٦٢ حسن التوسل — ١٣
(٤) حدائق السحر للوطواط — ١٣٨ « ترجمة الدكتور الشواربى »
(٥) خزانة الأدب — ٢١٦

آخر لعبد الكريم السماكى ذكره فى كتابه « التبيان » وهو : أنه ركن من أركان البلاغة ، لإخراجه الخفى إلى الجلى ، وإدنائه البعيد من القريب .

فعابه بأنه تعريف بالفائدة والمقصود ، لا لبيان الماهية .

ثم اختار هذا التعريف الذى وضعه بنفسه ، وهو : أنه الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها .

وقد حلل العلوى تعريفه هذا ليقفنا على مزاياه التى انفرد بها .

فقوله: « هو الجمع بين الشيئين » ليدخل فيه التشبيه المفرد مثل زيد كالأسد .

وقوله : « أو الأشياء » ليدخل فيه التشبيه المركب على اختلاف أوصافه ومراتبه .

وقوله « بمعنى ما » عام لجميع الأوصاف كلها العقلية والحسية ، المفردة والمركبة .

وقوله « بواسطة الكاف » يخرج العطف ، لأنه جمع بين شيئين أو أشياء لكن بغير الكاف .

ويخرج منه مضمر الأداة كقولنا : زيد أسد .

فإنه ليس من التشبيه[1].

ثم نخر بوقوعه على هذا التعريف الصحيح فى نظره — وهى عادة اقتبسها من ابن الأثير — فقال : هكذا يكون تعريفه بما ذكرناه ، ولقد حام من أسلفنا ذكره فى تعريف التشبيه حول ما قررناه ، فما وقع ، وصأصأ فما فقح[2] .

ومن حق من أراد ماهية من الماهيات أن يورد فى حدها أخص أوصافها وأن يصونها عن النقوص[3] .

وأصرح بأنه لم يحل فى نفس كل ما تقدم من التعريفات .

---

(١) هذا رأى لبعضهم .

(٢) صأصأ الجرو : إذا التمس النظر قبل أن يفتح عينيه . وفقح بتشديد القاف : إذا فتح عينيه ، وقد ضرب ذلك مثلا لمن طلب شيئا ولم ينله .

(٣) الطراز — ١ — ٢٦٢ — ٢٦٤

وأصرح بأنه لم يَحلُ في نفسي كل ما تقدم من التعريفات .

والتعريف الذي نخر العلوي باختراعه ، لعله أن يكون أكثرها ثقلا وتكلفاً ! وأحسب أن السر في ذلك محاولته أن يجعله جامعاً مانعاً ليبذّ السلف ، ويتعب الخلف ، فزلت به القدم ، وعند التعمق الزلل !

وقد عثرت على تعريف للتشبيه في بعض كتب اللغة ، هو عندي أخف وأعذب وأكمل من هذه التشبيهات المأثورة ، وهذا من النوادر التي يفوق فيها نظر اللغوي نظر الاصطلاحي في الدقة والضبط والشمول ، وهو : شبهت الشيء بالشيء : أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما (١) .

(١) المصباح المنير مادة « شبه »

الفصل الرابع

التشبيه عند القدماء

لم يعن القدماء بحد التشبيه حداً يضبطه كما فعل المتأخرون ، وإن كنا نستطيع أن نستخلص له حدوداً جيدة من ثنايا أقوالهم فيه .

فالجاحظ أغفل تعريف التشبيه ، ولكن رأيناه من جهة أخرى يسدد إليه نظرات نافذة تتناول كثيراً من مناحيه ، وتلقى ضوءاً على جملة من قضاياه مما أعان المتأخرين على تصور مفهومه وضبطه ، ووضع القواعد الثابتة له .

بل إن كثيراً مما قرره الجاحظ لم يستطيعوا الزيادة عليه .

فمن ذلك إدراكه :

١ — أن التشبيه فى جميع أحواله يفيد الغيرية لا العينية .

فهو يقرر : أنه قد يكون فى الشيء بعض الشبه من شيء ، ولا يكون ذلك مخرجا لها من أحكامها وحدودهما ؛ فالإنسان يشبّه بالقمر والشمس والغيث والبحر والأسد والسيف والحية والنجم فى حال المدح ، ولا يخرجونها بهذه المعانى إلى حد الإنسان .

وإذا ذموا قالوا : هو الكلب والخنزير والقرد والحمار والثور والتيس والذئب والعقرب والجُعَل ، ولا يدخلون هذه الأشياء فى حدود الناس ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء .

وسموا الجارية غزالا وخِشفاً [١] ومهرة وفاختة [٢] وزهرة وقضيباً وخيزراناً على ذلك المعنى .

---

(١) الخشف : ولد الظبية الصغير . (٢) الفاختة : ضرب من الحمام .

وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب ، فذكروا الأسد والثور والحمل والجدى والعقرب والحوت والسنبلة والميزان وغيرها .

وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قوله : « نعمت العمة لكم النخلة » .

وهذا الكلام صحيح المعنى لا يعيبه إلا من يجهل مجاز الكلام [١] .

٢ — وجه الشبه يكتفى فيه بأن يكون وصفا يجمع بين الطرفين ، فلا ينظر إليه على جهة الاستيعاب ؛ فالسنور يشبّه بالأسد فى الصورة والأعضاء والوثوب والتخلّع فى المشى لا فى اللون ، لأن فى السنانير ، السود والنمر والبلق والخلنجية ، وليس فى ألوان الأسد من ذلك شىء إلا فى الندرة .

وإذا سموا امرأة : خنساء ، فليس الخنس والفطس يريدون ، بل كأنهم قالوا : مهاة وظبية [٢] .

٣ — عند عقد التشبيه يتجه الخاطر إلى الصفة البارزة فى المشبه به ، فليس الطاوس بأحسن من الإنسان ، ولا الفرس الرائع ، ولا البازى فى حسن تركيبه وتنصُّبه ، ولا الديك فى عامة صفاته ، وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه وتلاوينه [٣] .

٤ — قد يشبه الشيء بشيء آخر من جهتين مختلفتين ، فالعرب يقولون : ماهو إلا شيطان يريدون القبح ، وما هو إلا شيطان ؛ يريدون الفطنة وشدة العارضة ، أو على معنى الشهامة والنفاذ [٤] .

٥ — أورد كثيراً من التشبيهات المأثورة عن العرب [٥] ، كتشبيه الرجل

---

(١) الحيوان — ١ — ٩٩ — ٤ ط . الساسى .
(٢) المصدر السابق — ٥ — ٨٤ — ٤ — ١٢٨ (٣) المصدر السابق — ٢ — ٨٢ .
(٤) المصدر السابق — ١ — ١٤٥ — ٥ — ٦٥
(٥) المصدر السابق — ٤ — ١١٠ فما بعده .

بالبيضة ، والأبكار ببيض النعام ، والغيوم بصور النعام [١] .
قال الشاعر :

كأن الرباب دُوَين السحاب   نعام تعلّق بالأرجل

وقال الأعشى :

مثل النعام معلق   لما رقا ودنا ربابه

وتشبيه الشراب ، والوجه المشرق ، والشيء الأحمر : بالنار .
وتشبيه الزجاج : بالماء فى الفيافى .
وتشبيه المرأة الحديدة الطرف والذهن ، السريعة الحركة ، الممشوقة المحضة : بالسِّعلاة .
وتشبيه البنان إذا كانت مطرّفة ، ببنات النقا والأساريع والعنم .
وصاحب البلاغة من العامة يقول : كأن بنانها البياح والدُّراج [٢] .
وتشبه أيضا بالدمقس [٣] .

---

(١) كانت العرب ترى فى الغيوم صوراً كالنعام والنوق وما أشبه ذلك .
ومن هذا قول أبى تمام يشبهها بالنجائب :

نجائب وليس من نجيب   شبائه الأعناق بالعجوب

والعجوب : الأذناب جمع عجب بفتح فسكون .
أى هى نوق غير متولدة من فحل ، وتشبه أعناقها أذنابها .
وقول أبى حفص بن برد :

ويوم تفنن فى طيبه   وجاءت مواقيته بالعجب
تجلى الصباح به عن حيا   يصوب وعن زهر قد شرب
وما زلت أحسب فيه السحاب   ونار بوارقها تلتهب
بخاتى توضع فى سيرها   وقد قرعت بسياط الذهب

وقول شوقى :

وترى الفضاء كحائط من مرمر   نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينة   بركت وأخرى حلقت بجناح

(٢) البياح كـكتاب وكتان : نوع من السمك ، والدراج كرمان : طائر .
(٣) الحيوان — ٦ — ١١٩ .

٦ — ذكر ألوانا من التشبيهات النادرة المبتكرة ، كقول امرىء القيس[1] :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفُل

وقوله فى تشبيه شيئين بشيئين فى حالين مختلفتين فى بيت واحد :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

وقول بشّار :

كأنما النقع فوق أرؤسهم سقف كواكبه البيض المباتير

٧ — وردت له لمحات فنية دقيقة فى نقد التشبيه ، كما فى قول أبى نواس يصف داراً وقف فيها :

كأنها إذ خرست جارم بين ذوى تفنيده مطرقُ

فذكر : أنه لا يقول أحد : لقد سكت هذا الحجر كأنه إنسان ساكت ، وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار ، ويشبه صممه بصمم الصخر .

وهو فى هذا يقرر ضمنيا : أن وجه الشبه فى المشبه به يجب أن يكون أظهر وأكمل منه فى المشبه .

فإن كان أبو نواس أراد القلب فهو يقرر أيضاً : انه ليس كل تشبيه يحسن فيه القلب ، وأن لذلك شروطا يجب أن تتحقق ، كما نبه عليه البلغاء من بعده بأجيال .

وذكر ما عابوا به أبا نواس فى قوله يصف الأسد :

كأنما عينه إذا التهبت بارزةَ الجفن عين مخنوق

وهم يصفون عين الأسد بالغئور[2] .

٨ — أدرك بذوقه اللماح وفطنته الثاقبة أشياء خفيت على أهل عصره ، مثل عدم ملاحظتهم الوصف الجامع بين طرفى التشبيه فى قوله — تعالى — :

---

(١) الحيوان — ٣ — ١٥ — ٣٩ (٢) المصدر السابق — ٤ — ١٤٦

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتِنا فانسلخ منها فأتبعَه الشيطانُ فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلَد إلى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحملْ عليه يلهَثْ أو تتركْه يلهث ذلك مثلُ القوم الذين كذبوا بآياتنا »

فقد زعم المعارضون : أن هذا المثل لا يجوز ، فما يُشبِّه حال من أُعطى شيئا فلم يقبله ويذكر غير ذلك ، بالكلب الذى إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا ، وإن تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله : يلهث لم يقع فى موضعه ، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد ، وحر شديد ، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر .

وقد رد الجاحظ بقوله : . . . ليس ببعيد أن يشبه الذى أوتى الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات فى بدء حرصه عليها وطلبه لها ، بالكلب فى حرصه وطلبه ؛ فإن الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه فى كل حالة من الحالات ، وشبه رفضه وقذفه بها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها ، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له ، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة فى وزن طلبها والحرص عليها ، والكلب إذا أتعب نفسه فى شدة النباح مقبلا إليك ومدبرا عنك ، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش ، وعلى أننا ما نرى بأبصارنا إلى كلابنا — وهى رابضة وادعة — إلا وهى تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذى طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين [1] .

وفطن كذلك إلى التشبيه الوهمى ، كما فى قول امرئ القيس .

أيقتلنى والمشرفىّ مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقد علق على قوله — تعالى — : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين » بأنه [2] ليس أن الناس رأوا شيطانا قط على

(١) الحيوان ج ٢ ص ٦ — ٧ — ٨ . (٢) المصدر السابق — ٤ — ١٣ .

صورة . ولكن لما كان الله قد جعل فى طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكراهتها ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل فى ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتقريع إلى ماقد جعله الله فى طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الأمم على اختلاف طبائع جميع الأمم .

ثم يقول وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين : أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن .

ومن ذلك رده على من لم يفهم مبلغ العلاقة بين طرفى التشبيه فى قول حسان — ض — :

لعمرك إن إلّك من قريش كإل الفيل من رَأْل النعام (١)

فقد غاب عليه هذا البيت ناس ، وظنوا أنه أرادالتبعيد ، فذكر شيئين قد يتشابهان من وجوه .

وحسان لم يرد هذا ، وإنما أراد ضعف نسبه فى قريش ، وأنه حين وجد أدنى نسب انتحل ذلك النسب (٢) .

٩ — أشار إلى سرقة التشبيهات ؛ فذكر ما روى عن يونس : أن قول جرير :

مازلت تحسب كل شىء بعدهم خيلا تشد عليهم ورجالا

---

(١) الإل بالكسر : الرحموالقرابة ، والرأل بوزن نأى : ولد النعام ، والمعنىأنه دعى. وفى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢١٢ :

وأشهد أن إلك من قريش كإل السقب من ولد النعام

والسقب كسقف : ولد الناقة الذكر .

وفى رواية : كإل السقب من رأل النعام

وقد أخذه ابن مفرغ فقال فى معاوية :

فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

والأتان : الحمارة .

(٢) الحيوان — ٤ — ١١٧

مأخوذ من قول الله تعالى : — « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو »[1]

وتكلم المبرد على التشبيه فى إفاضة ممثلا للنوع المصيب منه فى أشعار القدامى والمحدثين ، مبتدئا بامرىء القيس ، ولعله كان قدوة لابن المعتز فى ذلك .

ولم يكتف بالسرد بل حلل كثيرا من الأمثلة تحليلا يعتمد على الذوق والحاسة الفنية ، وقرر فى بيان ناصع ما أثبته الجاحظ : من أن التشابه يقع فى بعض الصفات لا كلها ، فقال[2] واعلم أن للشبه حدا ؛ فالأشياء تَشابه من وجوه وتَباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع .

فإذا شُبه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق قال الله — جل وعز — « كأنهن بيض مكنون »

ويقول : والعرب تشبه النساء ببيض النعام : تريد نقاءه ونَعمة لونه[3] .

ويقول : والعرب تُشَبِّه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة .

وإنما تقصد من كل شىء إلى شىء[4] .

وقال فى الآية الكريمة « طلعها كأنه رءوس الشياطين » : قد اعترض معترض من الجهلة الملحدين فى هذه الآية ؛ فقال : إنما يمثل للغائب بالحاضر ، ورءوس الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟

---

(١) الحيوان — ٥ — ٧٥

(٢) الكامل للمبرد « شرح المرصفى » — ٦ — ١٧٨

(٣) النعمة بفتح النون المشددة : اسم للتنعم والترفه .

وقد أنكر المرصفى على المبرد إضافتها للون ، لأنه لا يوصف بها ، وكان الأجود أن يقول : فى صفاء لونه . رغبة الأمل — ٦ — ١٧٨

ولا بأس به عندى على معنى أنه لون حى جديد غير شاحب ولا ناصل ؛ وقد جاء فى وصف جارية : كأنها جان ، وكأنها خوط بان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها الياسمين نعمة وبياضا . الحيوان — ٦ — ٨٢

فوصف الياسمين بالتنعم .

(٤) الكامل للمبرد « شرح المرصفى » — ٦ — ١٨٠

وقد أجاب على ذلك : بأنه قد جاء تفسير الآية فى ضربين :

١ — أحدهما: أن شجرا يقال له «الأَسْتَن» على وزن خردل، منكر الصورة يقال لثمره : رءوس الشياطين .

والقول الآخر — وهو الذى يسبق إلى القلب — : أن الله — جل ذكره — : شنع صورة الشياطين فى قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس [1] .

وعقد ابن المعتز بابا سماه : «حسن التشبيه» [2] ، عرض فيه أمثالا كثيرة للتشبيهات الرائعة البديعة لجماعة من الشعراء القدامى والمحدثين مبتدئا بامرىء القيس أيضاً كما ابتدأ المبرد .

ولكنه اكتفى — بالسرد والإشارة المجملة إلى أنها حسنة أو عجيبة — عن تحليلها وبيان موطن الجمال فيها .

وقدامة فى «نقد الشعر» [3] شرح معنى التشبيه ، وذكر وصفه الذى يزيد به حسنا ، مع التدليل على ذلك بالأمثلة المستجادة .

ونبه على أن الشىء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، لأن التشابه من جميع الوجوه اتحاد .

وخرج من ذلك على أن التشبيه إنما يقع بين شيئين يشتركان فى معان تعمهما ويوصفان بها ، ويفترقان فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها .

وأن التشبيه يقاس حسنه بقدر كثرة الصفات التى يشترك فيها الشيئان حتى يقربا من الاتحاد .

وفى نقد النثر [4] . بين منزلته من الكلام العربى وقيمته فى نفوس العرب وعرض للرابطة بين لطافة المشبِّه فى تشبيهه وحذقه بالشعر .

---

(١) الكامل للمبرد « شرح المرصفى » — ٦ — ٢٣٩

(٢) البديع — ١٢١ « طبع الأستاذ خفاجى »

(٣) نقد الشعر — ٦٥ — ٦٧

(٤) نقد النثر — ٥٨ — ٥٩ « ط . وزارة المعارف »

ثم قسمه بعد ذلك إلى قسمين :

١ — تشبيه حسى يتناول الأشياء فى ظواهرها وألوانها وأقدارها .

٢ — تشبيه معنوى .

ومثل لكل منهما من النثر والشعر .

ومن السهل علينا أن نستنبط من هذه القواعد والأصول التى وردت فى أقوال القدامى ، وبخاصة الجاحظ والمبرد وقدامة تعريفاً صائباً للتشبيه .

ولا خلاف أن بلغاء الأدباء — وإن لم يحدُّوا التشبيه — فإنهم قد كشفوا عن مزاياه وخصائصه ، ومبلغ الصلة بين طرفيه ، وموضع الحسن والقبح فيه ، فمهدوا السبيل للخلف فى بنائه على قواعد محكمة وأسس متينة .

ولعل أبا هلال أول بليغ تصـــدى لتعريف التشبيه على الطريقة الاصطلاحية ، وكتب عنه كتابة مفصلة منظمة تقوم على بحث ودرس وتقص ، ويسودها التقنين والتقسيم والنقد الفنى .

الفصل الخامس

التشبيه من الخصائص الطبيعية

التشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه ، سواء في ذلك العرب والعجم ، والخاصة والعامة ، والبلدى والقروى ، والحضرى والبدوى ، والعالم والجاهل ، والذكى والغبى .

فهو من الصور البيانية التى لا تختص بجنس ولا لغة ؛ لأنه من الهبات الإنسانية ، والخصائص الفطرية ، والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً .

ذلك لأن أساسه هذه الصفات المشتركة أو المتشابهة أو المتضادة التى يراها الإنسان فى الأشياء ، ويترتب على ذلك استساغته استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزا .

ومن يلق سمعه إلى الحشوة والدهماء ممن لم يؤتوا نصيباً من العلم والأدب والثقافة ، يجد كثيراً من التشبيهات تسقط فى كلامهم بلا كلفة ولا عناء ، كتشبيههم « القوطة » بالجواهر ، والملوخية بأوراق العنب ، والكلام الحسن باللوز والملبن ، وسواد القلب بالليل ، والطبع الحاد بالنار ، والشىء الناعم بالحرير والخشن بالليف ، والخفيف بريش النعام ، والثقيل بالحجارة والرصاص ، والصبية اللطيفة بالقطة ، والبضة بالبطة ، والسمينة بالدبة ، والطويل بالنخلة والنحيل بالعصا ، والخبيث بالنمس ، والوجه المجدور بالغربال ، والأنف الجميل بحد السيف والبلحة ، والدميم بالضفدعة ، والعيون المليحة بعيون الغزلان ، إلى غير ذلك .

وهم يلتقون مع الخاصة فى كثير من التشبيهات ، كتشبيه الشجاع بالأسد ،

والوجه الجميل بالقمر ، والقد المعتدل بالغصن ، والثُّدى النواهد بالرمان ؛ والخد بالتفاح والورد .

بل يلتقون معهم أحيانا فى تشبيهات تحتاج إلى دقة نظر ؛ كتشبيه الفم بالخاتم ، أو خاتم سليمان كما يقولون .

فالحريرى يقول :

سألتها حين زارت نَضْو برقعها القانى م وإيداع سمعى أطيب الخبر[1]
فزحزحت شفقا غشى سنا قمر وساقطت لؤلؤاً من خاتم عطر

والمتنبي يقول [2] :

لاعبت بالخاتم إنسانة كمثل بدر فى الدجى الناجم[3]
وكلما حاولت أخذى له من البنان المترف الناعم
ألقته فى فيها فقلت انظروا قد أخفت الخاتم فى الخاتم

وقول كشاجم :

فما أنسها لا أنس منها إشارة بسبابة اليمنى إلى خاتم الفم

وكتشبيهم الرقبة بكوز الفضة ، والخاصة يقولون : إبريق الفضة .

وكتشبيههم الساق بجُمَّار النخل ، والمأثور عن العرب قولهم : الجمر فى كبدى والجمار فى خلاخلهن .

وبعض العصريين يقول :

هـــذه السيقان جما ر ذكا فى القلب جمراً

وقد تقع لهم تشبيهات غاية فى الإيجاز وإصابة الغرض وعمق المعنى ،

---

(١) نضا الشىء : خلعه .

(٢) حكى الصفدى فى شرح لامية العجم : أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبي فى مصر وروى عنه هذه الأبيات . العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب — ٢ — ٦٤٠ للشيخ إبراهيم ناصيف البازجى .

(٣) الناجم : الطالع .

كقولهم فيمن لا يرجى نفعه ولا يؤمل خيره : إنه كعظم السمك لا يمضغ ولا يُمتَص .

إلى غير ذلك مما يعز حصره ، ولا يفرق بينه وبين تشبيهات الصفوة المثقفة إلا بأن القسم الأول ساذج ، سهل المأتى، قريب الغور، سوقى اللفظ والآخر مصقول الكلمات ، طلى العبارة ، دقيق المعنى ،كثير الماء والرونق غنى بالظلال والألوان والتحاسين ؛ لأنه نتاج عقل حصيف مهذب ، ووثبة خيال واسع خصيب .

فتشبيه الألفاظ بالماء فى السلاسة ، والنسيم فى الرقة ، والعسل فى الحلاوة قد تجده فى كلام العامى ، فأما ماكان مذهبه فى اللطف مذهب قولهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . فلا تراه إلا فى الآداب والحكم المأثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة[1] .

ولقائل أن يقول . إن التشبيه أقدم صور البيان ؛ إذ هو مبنى على ما تلمحه النفس من اشتراك بعض الأشياء فى وصف خاص يربط بينها .

ولهذا يقول « سبيرمان » العالم النفسى الإنجليزى : إن الأساس النفسى الذى يقوم عليه التشبيه وغيره من الأساليب البيانية من حيث تأليفها وإدراكها وتقديرها ، هو فى الواقع عملية أساسية فى التفكير ؛ تلك هى مابين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات[2] .

فالتشبيه فى حقيقة أمره ، قياس والقياس ـ كما يقول عبد القاهر : يجرى فيما تعيه القلوب وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والآذان[3] .

---

(١) أسرار البلاغة ٦٨ ـ ٧٠

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى للاستاذ حامد عبد القادر ـ ٤١

(٣) أسرار البلاغة ـ ١٤

وإذن فليس بمستنكر على إنسان مهما قل حظه من العلم أن يقيس بعض الأشياء إلى بعض ، ويحكم عليها بالتشابه على ماتوافق منها على معنى أو أكثر .

بل إن الطفل لا يتعاظمه أن يدرك العلاقة بين الأشياء المختلفة ، فيقيس بعضها إلى بعض ، فهو يهش إلى الثدى الصناعى ويبادر إلى التقامه ، لأنه قاسه إلى الثدى الطبيعى فصح عنده أنه يشبهه .

وقد فطن أهل الجاهلية إلى هذا المعنى من زمن بعيد ، فقد ذكر بعض اللغويين : أن اسم امرىء القيس : حُندج ، وأن امرأ القيس لقب له .

وأنه لقب به لجماله ، لأن الناس قيسوا إليه فى زمانه فكان أفضلهم [1] .

وقايس النابغة فى شعره فأحسن ، وذلك حيث يقول للنعمان حين فارقه إلى الغساسنة .

ولكننى كنت امرأ لى جانب ... من الأرض فيه مُستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ماأتيتهم ... أحكَّم فى أموالهم وأقرَّب
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى فعل ذلك أذنبوا [2]

يقول : اجعلنى كقوم صاروا إليك وكانوا مع غيرك فاصنعتهم وأحسنت إليهم ولم ترهم مذنبين إذ فارقوا من كانوا معه .

ثم يقول : فإنى مثلهم صرت عنك إلى غيرك . فاصطنع إلى فلا ترنى مذنباً إذ لم تر أولئك مذنبين [3] .

وأوجز من ذلك قول أبى هلال العسكرى : لا تلمنى على شكرى وقد أحسنوا إلى إذ لجأت إليهم وإن كانوا أعداءك ، كما أحسنت إلى قوم فشكروك عند أعدائك ، فقد أحسنوا ولم يذنبوا [4] .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى — ١ — ٢٩٩ « ط . المكتبة السلفية »
(٢) فى ديوان المعانى — ١ — ١٦ : كحكمك فى قوم أراك اصطفيتهم .
(٣) مختار الشعر الجاهلى « شرح الأستاذ مصطفى السقا » — ١٢٧
(٤) ديوان المعانى — ١ — ١٦

وقد جاء القياس بمعنى التشبيه صراحة فى قول بعض الشعراء :

عبث النسيم بقــده فتأودا ... وسرى الحياء بخده فتوردا
رشأ تفرد فيه قلبي بالهــوى ... لما غدا بجماله متفــردا
قاسوه بالغصن الرطيب جهالة ... تالله قد ظلم المشبه واعتدى
حسن الغصون إذا اكتست أوراقها ... وتراه أحسن ما يكون مجردا

ومن هنا انفسحت آفاق التشبيه ، وتعددت قوالبه ، وتشعبت فروعه ، وكثر فى كلام العرب كثرة لفتت إليه الأنظار ، فسمعنا المبرد يقول : والتشبيه جار كثير فى كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يبعد .

ويقول : والتشبيه : من أكثر كلام الناس .

ويقول : والتشبيه كثير ، وهو باب كأنه لا آخر له [١] .

(١) الـكامل « شرح المرصفى » ـ ٦ ـ ٢٣٨ ـ ٧ ـ ٣٧ ـ ٦٣

الفصل السادس

منزلة التشبيه من البلاغة

لم يقصر علماء البلاغة فى بيان منزلة التشبيه ، وما له من أثر فى رفع شأن الكلام ، وخلع أشعة البهاء عليه ، وإلباسه رَوْع الإعجاب ، وتمهيد طريق معبّد له فى ثنايا النفوس ، وفتح باب القبول أمامه فى أطواء الصدور ، فإنه أشبه شيء بوسائل الإيضاح ونماذج الدروس التى تسبق الشرح أو يعقب بها عليه ، فتذلل ماعسى أن يكون من عسر فى الفهم ، وتثبت معانيها فى الذهن . هذا إلى خلابة البيان التى تنبعث منه انبعاث أشعة السحر والفتون من العيون النجل ، فتفعل فعلها العجيب بالقلوب ، فتصرّفها كما تشاء بسطاً وقبضاً ، ورغبة ورهبة ، ومحبة وبغضة ، وتقودها إلى ما تهوى بزمام سلس وعنان لين .

يقول قدامة : . . . وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه « بالكسر » منهم فى تشبيهه ألطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق [1] .

ويقول العسكرى : وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان [2].

ويقول ابن قتيبة [3] : وليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها الإصابة فى التشبيه ؛ كقول القائل :

بدأن بنا وابن الليالى كأنه ... حسام جلت عنه القيونُ صقيل [4]

---

(١) نقد النثر ــ ٥٨ (٢) الصناعتين ــ ٢٣١

(٣) الشعر والشعراء ــ ٢١ ــ ٢٢ (٤) ابن الليالى : كناية عن القمر .

فما زلت أفنى كل يوم شبابه　　إلى أن أتته العيس وهو ضئيل

وكقول الآخر فى مغن :

كأن أبا الشموس إذا تغنى　　يحاكى عاطساً فى عين شمس

يلوك بلَحْيه طوراً وطورا　　كأن بلحيه ضَرَبان ضرس

ويقول الباقلانى : والتشبيه تعرف به البلاغة (١) .

ويقول البطين : أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان : مدح رافع ، أو هجاء واضع ، أو تشبيه مصيب ، أو فخر سامق (٢) .

ويقول عبد القاهر : وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين حتى يختصر مابين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشئم والمعرق وهو يريك المعانى الممثلة بالأوهام شبهاً فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الأخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة فى الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين (٣) . . .

ويقول السكاكى : فهو الذى إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى (٤) .

ويقول الخطيب : إنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة امره فى البلاغة ، وأن تعقيب المعانى به لا سيما قسم التمثيل منه ، يضاعف قواها فى تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما أو افتخاراً أو غير ذلك (٥) .

ومن رأى الدكتور شوقى ضيف : أن التشبيه لا يحتاج بعداً فى الخيال ولا عمقاً فى التصوير (٦).

---

(١) إعجاز القرآن ـ ٢٠٧　(٢) الموشح للمرزبانى — ١٧٢
(٣) أسرار البلاغة ـ ١٠٤　(٤) مفتاح العلوم — ١٧٧
(٥) الإيضاح ـ ١٥٣　(٦) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — ١٤٥

وأنه لون مفرد بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد هو لون التصوير[1].

ولا أحسب الزميل يريد بهذا أن يهون من قدر التشبيه ، أو يصوره في صورة الشيء السهل المسلك ، القريب التناول .

وإنما لعله أراد أنه دون الاستعارة في يسر بنائه وصياغته ، وأنه أقل منها شأناً في إبراز المعاني وصبها في قوالب المحسوسات ، وإن كان هو أساسها وعمادها ، وإلا فليس التشبيه سهل الانتزاع ، ولا هو على طرف الثُّمامة من كل متناول ؛ فابن الأثير يقول : إنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب ، وهو مقتل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إما صورة وإما معنى يعز صوابه ، وتعسر الإجادة فيه ، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع من أدباء مصر ، فإنهما أكثرا من ذلك لاسيما في وصف الرياض والأشجار والأزهار والثمار ، لاجرم أنهما أتيا بالغث البارد[2].

وابن رشيق — وهو من النقاد الشعراء — يصرح بأن أشد ما تكلفه الشاعر صعوبة التشبيه ، لما يحتاج إليه من شاهد العقل ، واقتضاء العيان[3].

وأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض ، فمصروا الأمصار ، وحضروا الحواضر ، وتأنقوا في المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره .

ثم يقول : وإنما خصصت التشبيه ، لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها متعاطًى[4] .

ونحن لاننكر أن التشبيه أقل أهمية من الاستعارة في النثر الأدبي وفي

---

(١) الفن ومذاهبه — ١٥٢ (٢) المثل السائر — ١٥٥

(٣) العمدة — ١ — ١٩٤ (٤) المصدر السابق — ٢ — ١٨٣

الموضوعات الشعرية لميزتها الواضحة فى التجسيم والتشخيص ، وفى المبالغة والتهويل .

وبخاصة الشعر ، لأن لها فيه قيمة بالغة بحيث يكاد يستحيل أن يكون شعراً بغيرها (١) .

أو كما يقول أرسطو : إن الصورة فى التشبيه تجرى فى النثر كما تجرى فى الشعر ، ولكنها بالشعر ألصق (٢) .

ولكن هذه الفنون الأدبية لاتستغنى مطلقا عن التشبيه ، وقد مر قريباً : أن العلماء أجمعوا على عد التشبيه المصيب من أركان الشعر .

ثم هو يمتاز عنها بأنه أكثر دورانا فى النثر العلمى ، وفى الموضوعات التى تخاطب العقول ، لأنه يراد منها أن تكون واضحة دقيقة محدودة ، سهلة الإدراك ، بعيدة عن وثبات الخيال، وطفرات التصوير، وترف الألفاظ ، وأناقة الصياغة .

فإن أريد بالتشبيه مايدل على كال المشبه وادعاء اتحاده بالمشبه به لم يكن هناك مناص من الترقى إلى مرتبة الاستعارة وعدم القناعة بالتشبيه :

ولا يخفى أن الفرق بينهما : هو أن التشبيه يحتفظ للمشبه والمشبه به بذاتيتها ، وكل مايفعله أن يربط الصلة بينهما ، وأما الاستعارة فتدمج الواحد فى الآخر وتجعلهما شيئاً واحداً .

ففرق بين أن يقول الشاعر : فأمطرت لؤلؤا من نرجس ، وبين أن يقول : فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، فالتشبيه كما ترى أقرب إلى تصوير الواقع، وأما الاستعارة فأمعن فى الخيال ، لأنها تطمس الأشياء طمسا ، وتستبدل بها أشباهها .

---

(١) فنون الأدب لتشارلتن — ٧٩

(٢) بلاغة أرسطو للدكتور إبراهيم سلامة — ١٠٨

فالفتاة الباكية فى « فأمطرت لؤلؤا » لم تسفح من عينها دمعا كاللؤلؤ وإنما سفحت لؤلؤا ، لهذا كان التشبيه أكثر شيوعا من الاستعارة فى العصور الاتباعية التى يكون فيها الشعراء أقل حدة فى الخيال ، وأكثر انصياعا لأحكام العقل والمنطق ، وكانت الاستعارة أكثر شيوعا من التشبيه فى العصور الإبداعية التى يشطح فيها الخيال ويجمح فلا يكون عليه ضابط .[1]

ولا خلاف أن التشبيه يختلف باختلاف حظ القائل من البلاغة وقسمه من البيان .

فكلٌ يصف الشيء بمقدار ما فى نفسه من ضعف أو قوة ، أو عجز أو قدرة .

وصفة الإنسان ما رأى، يكون — لا شك — أصوب من صفته ما لم ير، وتشبيه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر .

ومن هنا يحكى عن ابن الرومى أن لائما لامه ، فقال لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟

قال أنشد لى شيئا من قوله الذى استعجزتنى فى مثله .

فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة قدْ أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى .

فأنشده :

كأن آزَرْيونها[2] والشمس فيه كاليهْ[3]
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليهْ

(١) فنون الأدب لتشارلتن — ٨٢ ترجمة الأستاذ زكى نجيب .

(٢) الآزريون : ورد أصفر لا ريح له ألبتة ، وهو صنف من الأقحوان ، ومنه ما نواره أحمر ؛ واسمه بالفارسية : آزركون ومعناه : لون النار . نهاية الأرب — ١١ — ٢٧٧ وانظر معجم أسماء النبات ص ٣٦ ، وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة ص ٨ . وفى رواية : تحت سماءها ميه .

(٣) كالية : ناظرة .

فصاح واغوثاه ! يا لله ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء وأنا أي شيء أصف !

ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم مني !

هل قال أحد أملح من قولي في صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها زهراء كالقمر [1]
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر [2]

ولهذا نرى التشبيهات تأتي تبعا لمنزلة أصحابها ، حتى ليكون منها المطرب المعجب المرقص ، كقول بشار [3] — يصف جارية مغنية — :

ورائحة للعين فيها مخيلة ... إذا برقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى ... خفا برقها في عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يمسها ... وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفرَ مثل الزعفران شربته ... على صوت صفراء الترائب رُود
كأن أميرا جالسا في ثيابها ... تؤمل رؤياه عيونُ وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثَلّة ... سَواما ولم ترفع حداجَ قَعود [4]
تميت به ألبابنا وقلوبنا ... مرارا وتحيين بعد همود
إذا نطقت صحنا وصاح لنا الصدى ... صياح جنود وجِّهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليومَ كله ... كأنا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا ... شهود وما ألبابنا بشهود

---

(١) في بعض الروايات « قوراء » وهو أصوب . (٢) العمدة ٢ — ١٨٤

(٣) قال علي بن هارون : وما في الدنيا شيء لقديم ولا محدث من منثور ولا منظوم في صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات . آمالي المرتضى ٣ — ٤٩

(٤) الثلة : الجماعة من الغنم ، والحداج : مركب النساء ، والقعود : ما يقتعده الراعي من الإبل في كل حاجة .

أرأيت إلى هذا الجمال الذى يطالعك فى قوله :

كأن أميرا جالسا فى ثيابها

جمال فى هذا التعاطف بين الألفاظ ، وفى هذا التناغم النافح من جرس الصياغة .

وجمال فى تصوير هذه الهيبة المرهوبة المحبوبة التى خلعها الفن الأنيق على هذه المغنية الحسناء ، فإذا هى أمير خطير الشأن سنى المنزلة محبب إلى النفوس يزدحم الوفود على حضرته خضّع الرقاب ، نواكس الأبصار ، لا خوفا من بطشه ، ولكن ليتملّوا طلعته المحبوبة الشائقة ، ويجتلوا منظره المرموق ، وينالوا رفده السابغ .

أليس هذه حالتنا تماماً حينما ترفع الستارة عن أم كلثوم ، وترميها بأبصارنا متخشعين ، ونرهف إليها أسماعنا متلهفين ! مستطيلين هذه الفينة التى تتأهب فيها للتغريد بهذا الصوت الشاجى المسكر !

وكقول أبي عبد الله بن مرزوق الأندلسى فى علة الكتابة بالسواد فى البياض :

ولما أن نأت منكم ديار   وحال البعـــد بينكم وبينى
بعثت لكم سوادا فى بياض   لأنظركم بشىء مثل عينى

ألست ترى أن هذا الشاعر قد استطاع أن يخدعنا بهذا التعليل البديع المخترع .

ثم ألست تحس نغمة الحزن والكمد التى تسود الشعر وتنضح بلوعة الشاعر وتفجعه وتوجعه !

لأنظركم بشىء مثل عينى !

ما أشجى هذه الكلمة ! لقد تركزت فيها تجربة الشاعر ، وانتقلت إلينا كاملة غير منقوصة ، فإذا نحن مثله نتشكى نأى الديار وبعد المزار !

وكهذا الشعر الذى نسب إلى إبليس نَفاسة به على الناس لعلو قيمته وارتفاع منزلته .

وحمراءَ قبل المزاج صفراء بعده　　بدت بين ثوبىْ نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق ِصرفا فسلطوا　　عليها مزاجا فاكتست لونَ عاشق[1]

فانظر كيف استطاع هذا الشاعر سواء أكان إبليس أم غيره أن يصف الخمر فى حالين مختلفتين وصفاً دقيقاً كاشفاً ، ويصورها فى عدة ألوان متباينة مستعيناً بجملة من التشبيهات الجميلة المفوفة ، دون أن يخل بالصياغة ، أو يدخل على المعنى ضيما ، أو يهجن الديباجة بغموض أو تعقيد أو تكلف ، مع مراعاة الترتيب والتقسيم .

هذا إلى حسن آخر تلمسه فى هذا التقابل : حمراء وصفراء ، وقبل وبعد ، والصِّرف والمزاج ، ووجنة المعشوق ولون العاشق[2]

---

(١) هذا الشعر لابن دريد . ويروى عنه أنه قال : سهرت ذات ليلة ، فلما كان آخر الليل غمضت عينى ، فرأيت رجلا طويلا أصفر اللون كوسجا دخل علي وأخذ بعضادتى الباب فقال : أنشدنى أحسن ما قلت فى الخمر . فقلت . ما ترك أبو نواس لأحد دخولا فى هذا الباب فقال : أنا أشعر منه ! فقلت : من أنت ؟ قال : أبو ناجية من أهل الشام .

وقد أخذ عليه ابن دريد : أنهما من اللف والنشر المشوش . فقال له : وما هذه المشاحة فى هذا الوقت يا بغيض . وفيات الأعيان لابن خلكان — ١ — ٢٢١ — تزيين الأسواق للأنطاكى — ١٩٠

وفى رواية أخرى أنه قال له : لم لا تقول فى الخمر شيئا ؟ فقال ابن دريد : وهل ترك أبو نواس لأحد فيها قولا ! فقال له : نعم . أنت أشعر منه حيث تقول وأنشد البيتين .

قال ابن دريد : فقلت له : من أنت ؟ فقال شيطانك أبو راجية !

وأخبره أنه يسكن الموصل . نزهة الألبا للأنبارى — ٣٢٥

(٢) يقول بعض الأدباء : إنه لم يقم فى وصف المعشوق بالاحمرار والعاشق بالاصفرار ألطف من قول ابن دريد المتقدم . وفى لون العاشق والمعشوق كتب بعض الأدباء إلى القاضى الأندلسى منذر بن سعيد : =

وإلى هذا الجو الصاخب البهيج الذى تعيش فيه برهة كأنك فى حانة عامرة بالدنان والكئوس والسقاة والندمان ، ترى فيها كيف تنتقل الخمر من حال إلى حال ، وتلبس لوناً بعد لون ، ولكنك ترى مع هذا التغير ما ينسجم مع الشراب ظاهراً وباطنا !

وهل تتم أداة الشرب بغير النرجس والشقائق ، والمعشوق والعاشق !

ثم ألست تحس هذا الشعور بعينه فى قول الخليفة الراضى[1] :

سقانىَ صفواً من سلاف كريقه ... وحيّا فأحيا قلب لهفانَ وامق
بنَيْلوفر مثل الكئوس شممته ... حكت ريحه ريح الحبيب الموافق
حكى رقدة المعشوق قبل انفتاحه ... وبعد انفتاح الجفن تسهيد عاشق

وبجانب هذه التشبيهات النادرة الفاخرة نجد تشبيهات هزيلة متهافتة ؛ كقول الشاعر :

مات الخليفـــة أيها الثقلان ... فكأننى أفطرت فى رمضان

وقول أبى العباس الجراوى يمدح بعض الخلفاء[2] :

= مسألة جئتك مستفتياً ... عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا ... وأوجه العشاق فيها اصفرار
فأجابه بقوله :
احمر وجه الظبى إذ لحظه ... سيف على العشاق فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى ... والشمس تبقى للمغيب اصفرار

(١) الأوراق للصولى ٢ — ١٣٨

(٢) ذكر المرزبانى أنه المؤمل بن أميل ، وأنه دخل مسجد الكوفة فى يوم جمعة وقد نعى إلى الناس خبر وفاة المهدى وهم يترقبون قراءة الكتاب عليهم بذلك ، فقال رافعا صوته :
مات الخليفة أيها الثقلان
فقال جماعة من الأدباء هذا أشعر الناس ! نعى الخليفة إلى الجن والإنس فى نصف بيت . وأمده الناس أبصارهم متوقعين لما يتم به البيت ، فقال :
فكأننى أفطرت فى رمضان
فضحك الناس وصار شهرة . الموشح — ٢٩٧
ونسبه ابن رشيق إلى أبى العتاهية . يريد أنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت =

إذا كان أملاك الزمان أراقما   فإنك فيهم دائمَ الدهر ثعبان

وقول آخر فى الوصف :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

فإن هذه التشبيهات يبلغ من سخفها أنها تستخرج الضحك من الأعماق بل منها ما أضحك الناس فى مقام خلق الوقار لمثله ، وهو موت خليفة المسلمين !.

= بالإفطار فى رمضان نهاراً ، وكل أحد ينكر ذلك ويستعظمه من فعلى .
ثم قال : وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردىء غير معرب عما فى النفس ــ العمدة ــ ٢ ــ ١١٨
والحق أن المعنى على رداءة لفظه غير جيد ولا غريب ، وكل ما فيه أنه يدلنا على عظم حرمة رمضان فى هذا العهد ، وأن الناس كانوا لا يجرءون على المجاهرة بإفطاره .

(٢) نفح الطيب ــ ٢ ــ ١٩٩ .

الفصل السابع

فائدة التشبيه

حيثما وقع التشبيه لا يخلو من فوائد يمتاز بها من الكلام المجرد منه ؛ ولهذه الفوائد آثر المتكلم أن يتخذه أداة للتعبير دون غيره من فنون القول.

وهذه الفوائد توجد مجتمعة لقوة القرابة والتناسب بينها ، وإن كان بعضها يبدو أوضح من بعض فى بعض الأمثال ، لأنه يكون مقصوداً فى التشبيه أكثر من غيره .

وأول هذه الفوائد :

١ — الإيجاز والاختصار :

وقد كانت العرب تختصر فى التشبيه وربما أومأت به إيماء ؛ كقول أحد الرجاز :

حتى إذا كاد الظلام يختلط ... جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط [١]

يريد فى لون الذئب .

واللبن إذا جهد : أى أخرج زبده كله وخلط بالماء ضرب إلى الغبرة . [٢]

فحكى لون الذئب .

فكلمة الذئب هنا أغنتنا عن تفصيل كثير كنا فى حاجة إليه لو لم يأت التشبيه .

وقول زهير من معلقته :[٣]

---

(١) المذق : اللبن الممزوج بالماء . (٢) الكامل المبرد « شرح المرصفى » ــ٧ــ ٦

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى ــ ٨٠ .

بكرن بكورا واستحرن بسحرة　　　فهن ووادى الرّس كاليد للفم

يريد ابتدأن السير وسرن سحرا ، وهن قاصدات لهـذا الوادى بعينه قصداً دقيقا صائبا لا يخطئنه فى الاتجاه إليه والاندفاع نحوه ، كاليد القاصدة للفم بالطعام ، لا تخطئه فى قصدها ولا تنحرف عنه .

فانظر كيف نابت هذه الكلمة عن كلام طويل مع البراءة من التعسف والوفاء بحق المعنى !

وقول النابغة فى اعتذاره للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذى هو مدركى　　　وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

لأنه قصد شدة سخطه، وراعى حال المسخوط عليه، وتوهم أن الدنيا تظلم فى عينيه ، حسب الحال فى المستوحش الشديد الوحشة .

ولم يشبه بالنهار مع أنه بمنزلة الليل فى وصوله إلى كل مكان ، فما من موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن فى النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل ، كذلك الكائن فى الليل لا يجد موضعا لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روّى فى نفسه ، فلما علم أن حالة إدراكه — وقد هرب منه — حالة السخط ، رأى التمثيل بالليل أولى .

ويستعان على بيان ذلك بقول الشاعر فى مثل هذا المقام :

نعمة كالشمس لما طلعت　　　بثت الإشراق فى كل بلد

وذاك أنه قصد هنا ماقصده النابغة فى تعميم الأقطار، والوصول إلى كل مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصى البلاد وانتشارها فى العباد بالليل ، ووصوله إلى كل بلد وبلوغه كل أحد لكان قد أخطأ خطأ فاحشا .

ويمكن أن يجاب بتركه التمثيل بالنهار — وإن كان بمنزلة الليل فيما أراده —

بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة ، وإذا كان يكلمه وهو بالنهار ، كان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر وطرآنه على النهار متوقع ، فكأنه قال : — وهو فى صدر النهار أو أواخره — : لو سرت عنك لم أجد مكانا يقينى الطلب منك ، ولكان إدراكك لى وإن بعدت واجبا ، كإدراك هذا الليل المقبل فى عقب نهارى هذا إياى ، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض .[1]

هذا إلى أن الليل يوحى بالرهبة والخوف والوجل حتى لتخشاه النفوس بالنظرة ، يستوى فى ذلك الإنسان والوحش والطير ، فينطوى فيه كل شىء على نفسه ، ويحيطها بوسائل النجاة والمنعة لا يدخر وسعا فى ذلك . .

فهذه الكلمة « كالليل » على قصرها ، لا تسد مسدها الجمل الطويلة الكثيرة ، زيادة على أنها متعينة فى مقامها هذا .

وقد تداول الناس معنى بيت النابغة[2] .

فإنك كالليل . . .

فقال الفرزدق :

ولو حملتنى الريح ثم طلبتنى لكنت كشىء أدركته مقادره

وهو دون قول النابغة ؛ لأن الليل أعم من الريح ، والريح أيضا يمتنع منها بأشياء ، والليل لا يمتنع منه بشىء .

وقال العكوك :

ومالامرىء حاولتهمنك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع

بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولا ضوء من الصبح طالع

وقال البحترى :

ولوانهم ركبوا الكواكب لم يكن لمجدهم من خوف بأسك مهرب

(١) أسرار البلاغة — ٢٠٧ — ٢٠٨ (٢) ديوان المعانى — ١ — ٢١ — ٢٢ .

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

وإنى وإن حدثت نفسى بأننى . أفوتك إن الرأى عنى لعازب
لأنك لى مثل المكان المحيط بى من الأرض أنى استنهضتنى المذاهب

وقال أبو الطيب :

ولكنك الدنيا إلىّ حبيبة فما عنك لى إلا إليك ذهاب

وقول شاعر فى مغنية :

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن
غنت فلم تبق فىّ جارحة إلا تمنيت أنها أذن

أليس يريد بذكر القمر والغصن أن يصفها بالحسن والجمال ، والبهاء والإشراق ، والغضارة واللين والتثنى ؟

فاكتفى عن كل هذه الألفاظ وما يتصل بها بلفظتين جامعتين .

وقول آخر يهجو رجلا بالرياء :

فأنت بالليل ذئب لا حريم له وبالنهار على سَمت ابن سيرين (١)

فالذئب مضرب المثل فى الخيانة والغدر والعدوان .

وكان ابن سيرين مضرب المثل فى الورع ، وفى ذلك يقول الجاحظ : كان يقال : زهد الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرِّف ، وحفظ قَتادة ، وكلهم من أهل البصرة (٢) .

وقد قامت هاتان الكلمتان : « ذئب » و« ابن سيرين ». مقام أوصاف كثيرة فى الذم والمدح .

وإنك لتجد هذا الإيجاز بيناً فى الأبيات الآتية :

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير ، وقد أقامه هنا مقام الورع .
(٢) ثمار القلوب — ٧٠ .

فى قول الخباز البلدى :

غنى وللإيقاع فو ق بيان منطقه بيان
وكأنما يده فم وقضيبه فيها لسان

وقول ابن دراج القسطلى :

ألم تعلمى أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور(١)

وقول كشاجم :

أقبلت ثم عرجت ليتها لم تعرج
فى حداد كأنها ورده فى بنفسج

وقول السميسر الأندلسى ، فى أمير غرناطة :

يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

وقول دعبل الخزاعى ـ وفيه يقول محمد بن يزيد : ماسمعت أهجى منه :

قوم إذا ذُعروا أو نابهم فزع كانت حصونهم الأعراض والحُرَم

وقول المتنبى :

أقامت فى الرقاب له أياد هى الأطواق والناس الحمام

وقول ابن خالويه فى همذان :

بلاد ـ إذا ما الصيف أقبل ـ جنةٌ ولكنها ـ عند الشتاء ـ جحيم

وقول إبراهيم الصولى ـ يظهر الشماتة بموت ابن الزيات ـ :

لما أتانى خبر الزيات وأنه قد عد فى الأموات
أيقنت أن موته حياتى

وقول ابن الرومى :

كأن مواهبه فى المحو ل آراؤه عند ضيق الحيل

---

(١) التوى : الهلاك .

فلو كان غيثاً لعم البلاد   ولو كان سيفا لكان الأجل
ولو كان يُعطى على قدره   لأغنى النفوس وأفنى الأمل

وقوله :

قل لأبى القاسم المرجّى   قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابن وكان زينا   وعاش ذو الشين والمعائب
حياة هـــذا كموت هذا   فلست تخلو من المصائب

وقول الصاحب بن عباد :

ما بالها قد عرضتنى م عنـــد شيبى للأذى
تقول بئس بعـــد ما كانت تقول حبـــذا
وكنت كحل عينها فصرت فيها كالقـــذى

وقول شاعر فى قتل عبد الملك بن مروان لعمرو بن سعيد الأشدق :

كأن بنى مروان إذ يقتلونه   بغاث من الطير اجتمعن على صقر

وقولهم : كلام كالعسل ، وفعل كالأسل .

يضرب فى اختلاف القول والفعل [1] .

ومن المعجز قول الرسول — صلوات الله عليه — : « المعروف كاسمه » .

وهو أجمع ما قيل فيه [2] .

وتتفاوت التشبيهات فى الإيجاز حتى يكون بعضها أوجز من بعض فيوصف بأنه أفضل وأجود .

وذلك كقول ابن الرومى — يصف الخمر — :

رأت نار إبراهيم أيام أوقدت   وحازت من الأوصاف أوصافها الحسنى
حكت نورها فى بردها وسلامها   وجاءت بطيب لا يوازَى ولا يحكى

(١) نهاية الأرب — ٣ — ٤٦ .   (٢) ديوان المعانى — ١٥٣ .

فجاء ابن المعتز فأوجز فى قوله :

ومشمولة قد طال بالدن لبثها حكت نار إبراهيم فى اللون والبرد

وقال الأعشى :

وتبرد برد رداء العروس بالصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحا بها الكلب إلا هريرا [1]

فتقبل منه هذا الكلام واستحسن .

ثم قيل فى عيبه أنه أتى به فى بيتين وطول به الخطاب .

وأجود منه قول طرفة :

تطرد البرد بحر ساخن وعكيك [2] القيظ إن جاء بحر

فقيل فيه : إنه أجمع وأخصر [3] .

ومنها ما يبلغ فى إيجازه درجة التركيز ، وذلك كقول جرير :

كأن رسوم الداريش حمامة محاها البلى واستعجمت أن تكلما

قيل الحمام هنا : القطاة ، وأنه شبه ألوان الرسوم : من الرماد ، وموقد النار ، والدمنة ، ومجر الطنب ، وما أشبه هذه الأشياء بألوان ريش القطاة.[4]

وقول ابن زيدون — وقد كتب به من سجنه إلى أبي حفص بن برد — :

لا يكن عهدك وردا إن عهدى لك آس

وذلك أن الورد قصير العمر والآس طويله .

وقد شرح ذلك العباس بن الأحنف فى قوله :

ولكننى شبهت بالورد عهدها وليس يدوم الورد والآس دائم

وقول البحترى فى إسرافيل النخاس النصرانى الأعور — وقد قوم غلاما له فارسياً بثمن بخس — :

---

(١) الهرير : صوت الكلب دون نباحه من قلة صبره على البرد .

(٢) العكيك كأمير : شدة الحر مع ركود الريح . (٣) الموشح — ٥٥ .

(٤) أمالى المرتضى — ٣٢ — ١٢٢ .

متى أرضى ودجال النصارى يُقوِّم ما أبيع بفرد عين
وكيف وهل ترى طاوسَ حسنٍ يُحَكَّم فى شراه غراب بين

فانظر إلى حسن ما جمع بين الطاوس والغراب فى بيت واحد .

ولما كان المهجوُّ أعور شبهه بالدجال وغراب البين ، والغراب يقال له : أعور .[1]

وقول المتنبى :

رأيت الحميا فى الزجاج بكفه فشبهتها بالشمس فى البدر فى البحر

وقول الصنوبرى فى نظم قصة عرقوب :

قالوا لنا نخلة وقد طلعت نخلتنا فاصطبر لطلعتها
حتى إذا صار طلعها بلحا قالوا توقعْ بلوغ بُسرتها
حتى إذا بُسرها غدا رُطَباً فازوا بأعذاقها برُمَّتها
عدمتها نخلة كنخلة عرقو ب ومن قصة كقصتها

فتهيأ له أن يختصر قصة فى بيت من أبيات التشبيه .

ومن البدائع أن الرشيد حين حج ، دخل مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — فبعث إلى الإمام مالك بن أنس — ض — فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافة ، قال يامالك ، صف لى مكان أبى بكر وعمر من رسول الله فى الحياة الدنيا .

فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، مكانهما منه كمكان قبريهما من قبره .

فقال الرشيد : شفيتنى يا مالك .[2] !

ولا شك أن فى هذا التشبيه الموجز الصائب شفاء الصدور !

---

(١) ثمار القلوب — ٣٧٨ .

(٢) العقد الفريد — ٣ — ٦٤ .

٢ — التبيين والتوضيح :

وهو ميزته الكبرى ، لأن وظيفته الأساسية أن يزيل عن المعنى اللَّبس والغموض ، ويجلوه على الأنظار ، ويقربه إلى الأذهان .

لذلك كان أشد عيوبه قبحاً أن يأتى مبهماً مستغلقاً ، فإن ذلك ضد الغرض الذى سيق من أجله ، وذلك كقول النابغة يصف ثوراً :

من وحش وَجرة موشّيٍ أكارعهُ طاوى المصير كسيف الصَّيقل الفرِدِ[١]

أراد بالفرد : أنه مسلول من غمده ، فلم يبن بقوله : الفرد عن سله بيانا واضحا .

والجيد قول الطِّرِمَّاح فيه :

يبدو وتضمره البــلاد كأنه سيف على شرَف يُسلُّ ويُغمد[٢]

وهذا غاية فى الوصف[٣] .

وقول البحترى :

وَأثافٍ أتت لها حِجَج دو ن لظى النار مُثَّلٌ كالأثافى

فقوله « مُثَّل » : أى قائمة ثابتة ، ويريد بالأثافى الثانية : الكواكب التى عند الفرقدين ، وهى ثلاثة قيل لها : أثاف ، لشبهها بالأثافى المعروفة التى يوقد فيها .

فشبه البحترى الأثافى بها لثبوتها وأنها مثّل على مر الدهر .

قال أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأنواء : . . . . ولو شبهها البحترى

---

(١) وجرة : فلاة بين مران وذات عرق ، ستون ميلا وماؤها قليل . فهى تجمع الوحش ويقل شربها الماء هناك فتكون بطونها طاوية ، والأكارع : قوائم الدابة ، والمصير : واحده مصران وجمعه مصارين ، كنى به عن البطن .

(٢) الشرف : المكان المرتفع . (٣) الصناعتين — ٨٢ — ٨٣ .

بالنَّسر الواقع[1] — لأنه أشهر وأظهر وأقرب شبها — لكان ذلك أحسن وأكشف للمعنى من أن يشبهها بشيء إنما استعير له اسمها ، وليس يعرفه كل أحد ، ولكنه جاء من أجل القافية [2] .

وقول أبي بكر بن ظهار :

وكأن الظلام لما تولى   نمر راعه من الفجر ليث

فالنمر لا يشبه الظلام فى اللون ، والأسد لا يشبه الفجر ، هذا إلى أن النمر لا يرتاع من الأسد ارتياع الثور منه، أو ارتياع الشاة من الذئب حتى يمثل به بل المعروف أن النمر يقاوم الأسد ويصارعه ولا يستسلم لمهلكه معه .

ولهذا اشترط الرمانى فى التشبيه أن يُخرج الأغمض إلى الأوضح ، ويقرب البعيد [3] .

كما عرفه السماكى فى كتابه « التبيان » : بأنه ركن من أركان البلاغة ، لإخراجه الخفى إلى الجلى ، وإدنائه البعيد من القريب[4] .

وتتجلى لك هذه المزية واضحة فى قول المتنبى :

كل ذِمْر يزداد فى الموت حسنا   كبدور تمامها فى المحاق

الذمر : الشجاع ، والمعنى أنهم يقتلون فى سبيل المعالى فيزدادون بالموت فخراً وشرفا وذكراً سائراً ، كالبدور لا تستفيد تمامها وكمالها إلا بعد أن يلحقها المحاق .

فهذا التشبيه جلا المعنى المشكل فى المصراع الأول ، لأنه مما يدق فهمه أن الإنسان يزيد حسنه بالموت !

وترى مثل ذلك فى الأمثلة الآتية التى لا يحتاج بيانها إلى بيان :

---

(١) النسر الواقع : أحد كوكبين فى السماء .
(٢) الموازنة بين الطائيين — ٤٥٣ .
(٣) العمدة — ١ — ١٩٥ .   (٤) الطراز — ١ — ٢٦٢ .

قال الأخطل :

إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالعُرّ يكمُنُ حينا ثم ينتشر (١)

وقال أبو العيناء :

ما فى يدىَّ من الصِّبا ... إلا الصبابة والأسف
جاء الشباب فما أقا ... م ولا ألم ولا وقف
كان الشباب كزائر ... ملَّ الزيارة وانصرف

وقال سعيد بن حميد :

أهاب وأستحيي وأرقب وعده ... فلا هو يَبدانى ولا أنا أسأل
هو الشمس مجراها بعيد وضوءها ... قريب وقلبي بالبعيد موكَّل

وهذا المعنى — كما يقول الحصرى — وإن كان كثيراً مشهوراً ، فما يكاد يدانى فى الحسن (٢) .

وقال البحترى :

تبسم وقطوب فى ندى ووغى ... كالبرق والرعد تحت العارض البرد

وقال الزيادى فيمن حلقت فروته :

حلَقوا رأسه ليكسوه قبحاً ... غَيرة منهم عليه وشُحّاً
كان صبحا عليه ليلٌ بهيم ... فمحوْا ليله وأبقوْه صبحا

وقال ابن الرومى :

رب ليل تراه كالدهر طولا ... قد تناهى فليس فيه مزيد
ذى نجوم كأنهن نجو ... م الشيب ليست تغور لا بل تزيد

---

(١) العر بفتح العين وضمها : الجرب ، أو بالفتح : الجرب ، وبالضم : قروح بأعناق الفصلان ، وداء يأخذ البعير فيمتعض عنه وبره حتى يبدو جلده . الكامل للمبرد « شرح المرصفى » — ٦ — ٩٩ .

(٢) زهر الآداب — ٤ — ١٦٨ .

وقال إبراهيم الصولى :

دعوتك فى بلوى ألمت صروفُها   فأوقدتَ من ضغن على سعيرَها
وإنّ إذ أدعوك عند ملمة   كداعية بين القبور نصيرَها

وقال ابن الزيات يتغزل :

تمكنتَ من نفسى فأزمعتَ قتلها   على غير عمد منك والروحُ تذهب
كعصفورة فى كف طفل يسومها   ورودَ حياض الموت والطفلُ يلعب

وقال ابن العميد :

آخ الرجال من الأبا   عد والأقاربَ لا تقاربْ
إن الأقارب كالعقا   رب بل أضر من العقارب

وقال أبو نواس :

ترجو وتخشى حالتيك الورى   كأنك الجنة والنار

وقال أبو تمام :

ولم أفهم معانيها ولكن   شجت قلبي فأعجبنى شجاها
فكنت كأننى أعمى معنًّى   بحب الغانيات وما يراها

وقال المتنبي :

كرم خشَّن الجوانبَ منهم   فهو كالماء فى الشفار الرقاق

وقال :

ولا ملك إلا أنت والملك فَضلة   كأنك نصل فيه وهو قِراب

وقال :

متفرق الطَّعمين مجتمع القوى   فكأنه السراء والضراء

وقال ابن شرف القيروانى :

تقلّدتنى الليالى وهى مدبرة   كأننى صارم فى كف منهزم

وقال الوزير المهلبي :

وسَمّوه مع القربى غريبا   كنور العين سَمّوه سوادا

وقال أبو الفتح البستى :

لا يغرنْك أننى لين المسّ   م فعزمى – إذا انتضيتُ – حسام
أنا كالورد فيه راحة قومٍ   ثم فيه لآخرين زكام

وقال ابن أبي عُيَيْنة :

هل أنت إلا كلحم ميْت   دعا إلى أكله اضطرار

وقال ناصر الدين بن النقيب :

لى بغلة من ضعفها   حزامهُـــا يُثقلها
كأنهـا رجلى كما   تحملنى أحملهـــا

وقال شاعر :

أضحى فلان أدام الله صَرعته   كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى إذا أخذا فى حال شوطها   تفرقا فهو فى بين الطريقين
طال الزمان ولم يظفر بحاجته   كذاك حال الذى يدعو إلهين

وقال بعض العصريين :

بسمات تحت الدموع كما افترَّت   م عن البرق مُزنة وطفاء(١)

٣ — المبـالغة :

وسر ذلك أنك لم ترد تشبيه الشىء بغيره ، إلا وأنت تقصد به تقرير المشبه فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، فيستفاد من ذلك المبالغة فيما قصد من التشبيه على جميع وجوهه : من مدح أو ذم ، أو ترغيب أو ترهيب أو كبر أو صغر .

---

(١) الوطفاء : المسترخية لـكثرة مائها ، أوهى الدائمة السح الحثيثة .

وهذا القول ينسحب على جميع وجوه التشبيه ، فإنه لا يخلو من إفادة المبالغة فى حال من الأحوال ، وإلا لم يستحق أن يكون تشبيها ، لأن إفادة المبالغة هى مقصده الأعظم وبابه الأوسع .

وذلك كقول امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مقبل مدبر معاً　　　كجلمود صخر حطَّه السيل من عَلِ

شبهه فى سرعة مره وصلابة خلقه ، بحجر ضخم رمى به السيل من مكان مرتفع إلى حضيض .

وغالى بعض من فسره من المحدثين فقال : إنما أراد الإفراط فزعم أنه يرى مقبلا ومدبراً فى حال واحدة عند الكر والفر ، لشدة سرعتـــه ، واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً ، فمثل بالجلمود المنحدر من قنة الجبل فإنك ترى ظهره فى النصبة على الحال التى يرى فيها بطنه وهو مقبل عليك .

قال ابن رشيق : ولعل هذا ما مر قط ببال امرىء القيس ، ولا خطر فى وهمه ، ولا وقع فى خلده ولا روعه[1] .

وصدق ابن رشيق لأن امرأ القيس يريد : أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة فى قوته لا فى فعله لأن فيها تضاداً .

وقوله :

كأن المدام وصـــوب الغمام　　　وريح الخُزامى ونشر القُطُر[2]

يُعَلُّ به برد أنيابها　　　إذا غرد الطائر المستحِر

فوصف فاها بهذه الصفة سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم ، فكيف تظنها فى أول الليل ؟

---

(١) العمدة — ٢ — ٧٦　　　(٢) القطر : عود طيب الرائحة يتبخر به .

وقوله يصف ناراً :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تُشبّ لقُفَّال

وإنما يرجع القفال من الغزو والغارات وجه الصبح ، فإذا رأوها من مسافة أيام أول الصباح ، وقد خمد سناها وكَلَّ موقدها ، فكيف كانت أول الليل !

وشبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها فى السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع ، لا سيما مصابيح الرهبان لأنهم يكلون من من سهر الليل ، فربما نعسوا ذلك الوقت .

وزعم بعض المتعقبين أن الذى كثر هذا الباب أبو تمام وتبعه الناس ، فإذا صرت إلى أبى الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً وأبعدهم فيه همة ، حتى لو قدرما أخلى منه بيتا واحداً[1] .

والحقيقة أن المتنبي يفرط فى الغلو فيسخف حيناً ، ويأتى بالمحال حيناً آخر ، وبخاصة حينما يفخر بنفسه .

وإليك أمثالا من غلوه وإغراقه تجعلك تعتقد أنه أحمق أو كان يتحامق ويجعلك تعجب كيف يقول هذا الهراء من يقول هذه الحكم الغالية الغضة على مدى الزمان !

فمن ذلك قوله :

تلج جفونى بالدموع كأنما جفونى لعينىْ كل باكية خد

وقوله :

أنا فى أمة تداركها الله م غريب كصالح فى ثمود

ومن قوله يصف سيفا :

يبس النجيع عليه وهو مجرَّد من غمده وكأنما هو مغمد

(١) العمدة ــ ٢ ــ ٥١ .

ومن مدحه لمحمد بن زريق الطرسوسى :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شُموسا[١]
أو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى[٢]
أو كان لج البحـــر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبدت فكان العالمون مجوسا

وقوله فى رثاء والدة سيف الدولة :

مشى الأمراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال[٣]

والنقاد يختلف رأيهم فى مثل هذه المبالغات ، فمنهم من يكرهها ، وفى ذلك يروى عبدالرحمن عن عمه الأصمعى : أن رجلا أنشده قول مالك بن أسماء الفزارى :

وإذا الدرزان حسنَ وجوه كان للدر حسن وجهكِ زينا
وتزيدين أطيب الطيب طيبا إن تمسّيه أين مثلك أينا

والرجل يظهر إعجابه بهما ، فقال له الأصمعى : لا تعجب بهما فما يساويان فَلسا ، وأجود الشعر ما صُدق فيه وانتظم المعنى ، كقول امرىء القيس :

ألم ترياني كلما جئت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تَطَيَّب

وقال محمد بن يزيد النحوى : أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه بوصف قوى واختصار قريب ، ، وعدل فيه عن الإفراط .[٥]

---

(١) لذى القرنين حديث مشهور فى التاريخ الدينى .
(٢) عازر : رجل من بنى إسرائيل أحياه عيسى بإذن الله .
(٣) الزف بالكسر : أصغر الريش وألينه ولا سيما ريش النعام ، ولم يرض بذلك حتى جعله زف الرئال ، وشبه به المرو وهو ما صغر من الحصى .
(٤) الموشح — ٢٢٠ . (٥) المصدر السابق — ٢٤٤ .

ومنهم من يؤثر المبالغة ويقول بتفضيلها ويراها غاية الغايات فى الجودة .

والنابغة رأس هذا المذهب وقد رأينا نقده لحسان فى قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقوله — وقد سئل من أشعر الناس ؟ — : من استجيد كذبه ، وأضحك رديئه .

ولما أنشد كثير عبد الملك مدحته التى يقول فيها :

على ابن أبى العاصى دلاص حصينة أجاد المسدّى سردَها وأذالها

يئود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستضلع القرم الأشم احتمالها[1]

قال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معد يكرب أحب إلى من قولك :

وإذا تجىء كتيبة ملومة خرساء يخشى الدارعون نهالها

كنتَ المقدَّم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلَما أبطالَها

فقال : يا أمير المؤمنين : وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق ، ووصفتك بالحزم والعزم .

فأرضاه .

قال المرزبانى : رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى فى هذا المعنى على قول كثير ، لأن المبالغة أحسن عندهم من الاقتصار على الأمر الوسط .

والأعشى بالغ فى وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام ، وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففى وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه[2] .

---

(١) يئود : يثقل ، والقتير : رءوس مسامير الدروع (٢) الموشح — ١٤٦ .

٤ — التوكيد :

وذلك أن التشبيه من شأنه أن يقرر شكل المشبه فى الذهن ، ويعمق معناه ، ويلح عليه بالتثبيت ، ويرسم له فى لوح الخاطر صورة بارزة المعالم .

فإنك إذا مثلت الشيء بالشيء ، فإنما تقصد به إثبات الخيال فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد فى طرفى الترغيب فيه والتنفير منه .[1]

وقد صرح العسكرى بذلك فى قوله : والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً ، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه[2] .

ويتجلى التوكيد فى معرض واضح فى التشبيه المحسوس ، وبخاصة إذا كانت أداته « كأن » ؛ كقول الشاعر :

وتَنقَّل من معشر فى معشر فكأن أمك أو أباك الزئبق .

وقول المتنبى يصف الخيل فى الحرب :

قد كلَّمتها العوالى فهى كالحة كأنما الصاب مذرور على اللُّجُمِ[3]

وقوله :

أرى كل ذى ملك إليك مصيره كأنك بحر والملوك جداول

(١) المثل السائر — ١٥٥ . (٢) الصناعتين — ٢٣١ (٣) كلمتها : جرحتها .

الفصل الثامن

تقسيم التشبيه

سلك البلغاء فى تقسيم التشبيه طرقا تختلف باختلاف أمزجتهم ولون ثقافتهم ونظرتهم العلمية أو الفنية .

وبعض هذه الطرق قاصد ، وبعضها طويل شاق ، وهو على طوله ومشقته لا ينتهى إلى فائدة تذكر .

ويكفى أن نعلم أن ابن السبكى بلغ بأقسامه إلى تسعة وثمانين ومائتى قسم(١) حتى يتبين لنا مبلغ غلوهم فى هذا الشأن .

وقد لفت هذا الإسراف نظر المرشدى، فاعترض على السيوطى فى اقتدائه بالخطيب فى ذكر تقسيمات غير مجدية لا تتفرع عنها أحكام متفاوتة ، مع اعترافه بأن السيوطى حذف كثيراً مما ذكره صاحب الأصل. جرياً على عادته من ترك التكلم فيما له تعلق بالعلوم الحكمية حيث ذهب إلى تحريمها .

ورمى السكاكى بأنه نهج هذا السبيل ليبين عن معرفته باصطلاحات المتكلمين، وأن الخطيب أوهم أنه لا يعرف هذه الاصطلاحات ، ثم أخل بما وعد من حذف الحشو والتطويل والفضول .

ثم حمد لعبد القاهر إحاطته بأسرار الكلام العربى ، وخصائص التراكيب البليغة ، واقتصاره فى هذا المقام على الإكثار من إيراد الأمثلة لأنواع التشبيهات وتحقيق لطائفها .

---

(١) عروس الأفراح ــ ٣ ــ ٣٠٦ (٢) حاشية المرشدى ــ ١٢

تقسيم المبرد .

وحينما نستعرض هذه التقسيمات نجد المبرد نظر إلى التشبيه نظرة فنية محضة ، فذكر أن العرب تشبِّه على أربعة أضرب [١] .

فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشَن الكلام

فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي : هو كالبحر ، وللشجاع : هو كالأسد ، وللشريف سما حتى بلغ النجم .

ثم زادوا فوق ذلك ؛ فمن ذاك قول بعضهم — وهو بكر بن النَّطاح — لأبي دُلَف العجلي :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار عشرها على البر صار البر أندى من البحر
ولو أن خَلْق الله في مَسْك فارس [٢] وبارزه كان الخليَّ من العمر

ومن التشبيه المتجاوز الجيد النظم قول أبي الطمحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظَّم الجَزع ثاقبه

ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغة :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضَّواجع [٣]
فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرُّقش في أنيابها السم ناقع [٤]

---

(١) الكامل « شرح المرصفي » — ٧ — ٣٣ إلى ٣٧

(٢) المسك بفتح فسكون : الجلد .

(٣) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر ؛ وراكس : اسم واد ، والضواجع : موضع . وكلاهما بديار غطفان .

(٤) المساورة : المواثبة ، والضئيلة : الحية الدقيقة .

يُسَهَّد من نوم العشاء سليمها لحَلى النساء فى يديه قعاقع[1]
تَناذَرها الراقون من سوء سمها تُطلّقه طوراً وطوراً تُراجع[2]

فهذه صفة الخائف المهموم ، وذلك أن المنهوش إذا ألح الوجع به تارة وأمسك عنه تارة ، فقد قرب أن يُؤأس من برئه .

وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لوعة فى إثر لوعة والفترة بينهما ، والخائف لا ينام إلا غراراً فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد .

وعرض لحلى النساء، لأنهم كانوا يعاقونه على الملدوغ يزعمون أن ذلك من أسباب برئه ، لأنه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم فلا ينام فيدب فيه السم ، ويسهد لذلك .

وأما التشبيه البعيد الذى لا يقوم بنفسه فكقوله :

بل لو رأتنى أخت جيراننا إذ أنا فى الدار كأنى حمار

فإنما أراد الصحة .

وهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره .

وقد قال الله — جل وعز — وهو البين الواضح : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار » الآية، فى أنهم قد تعاموا عنها، وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذى يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها .

ويلاحظ أن المبرد لم يمثل للقسم الذى سماه : المقارب

تقسيم قدامة .

وقد آثر قدامة الاقتصاد ، فاكتفى بتقسيم التشبيه قسمين .

---

(١) السليم : الملدوغ ؛ سمى بذلك تفاؤلا له بالسلامة .

(٢) تناذرها : خوف بعضهم بعضا منها ، وتطلقه : تخف عنه أوجاعه فتعود إليه نفسه .

١ — تشبيه الأشياء فى ظواهرها وألوانها وأقدارها ، كما شبهوا اللون بالخمر ، والقد بالغصن ، وكما شبه الله النساء فى رقة ألوانهن بالياقوت ، وفى نقاء أبشارهن بالبيض «كأنهن بيض مكنون» .

وقول آخر :

أيا شبه ليلى لا تُراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها خلا أن عظم الساق منك دقيق

وقول آخر :

وردن اعتسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابنُ ماء محلِّق[1]

٢ — تشبيه المعانى ، كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ، والحسن الوجه بالبدر .

وكما شبه الله أعمال الكافرين فى تلاشيها مع ظنهم أنها حاصلة لهم ، بالسراب يدخله الظمآن الذى قد وعد نفسه به فلا يجده شيئا .

وكما شبه من لا ينتفع بالموعظة ، بالأصم الذى لا يسمع ما يخاطب به .

وشبه من ضل عن طريق الهدى ، بالأعمى الذى لا يبصر ما بين يديه .

ومن هذا النوع قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول أبى تمام :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وختم كلامه بقوله : وهذا كثير فى القول وفى القرآن والشعر ، وما ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله[2] .

---

(١) ابن الماء : كل طائر يألف الماء . (٢) نقد النثر — ٥٩ .

والمتأمل فى تقسيم قدامة يرى أنه لم ينظر إلا إلى وجه الشبه فقط ، فالقسم الأول ، وجه محسوس ، والآخر وجه معقول .

تقسيم العسكرى :

وغالى أبو هلال العسكرى فى التقسيم ، فقسمه ابتداء إلى ثلاثة أقسام :

١ — تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء ، والغراب بالغراب ، والجرة بالجرة .

٢ — تشبيه شيئين متفقين يُعرف اتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، والسواد بالسواد .

٣ — تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر .

والمعنى الذى يجمعهما لطافة التدبير ، ودقة المسلك .

وكتشبيه الشدة بالموت .

والمعنى الذى يجمعهما : كراهية الحال ، وصعوبة الأمر .

والنوع الأخير من التشبيه العقلى ، تشبيه معنى بمعنى ، والأولان من الحسىّ .

ولا يخلو هذا التقسيم من غموض واضطراب ونقص ، فالقسم الأول مقصور على اللون وحده من المحسوسات ، والقسم الثانى يشوبه اللبس : ما معنى شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل ؟

وما الفرق بينه وبين القسم الأول ؟ وما الفرق على الخصوص — بين تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء ، والسواد بالسواد ؟

تقسيم ثان له .

ثم عاد العسكرى فقسمه من حيث الجودة إلى أربعة أقسام :

١ — إخراج ما لا يحس إلى مايحس ؛ وهو ما يسمى لدى المتأخرين :

تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ كقوله ـ تعالى ـ « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء .... » الآية .

والمعنى الذى يجمعهما : بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة .

ولو قال : يحسبه الرائى لم يقع موقع الظمآن ، لأن الظمآن أشد فاقة إليه ، وأعظم حرصاً عليه .

٢ — إخراج ما لم تجر به العادة إلى ماجرت به العادة ، كقوله ـ تعالى ـ : « وإذ نتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظُلَّة » .

والمعنى الجامع الانتفاع بالصورة .

أو إخراج ما جرت به العادة إلى ما لم تجر به ، كقوله ـ سبحانه ـ : « كأنهم أعجاز نخل منقعر » .

وكقوله : « فكانت وردة كالدِّهان » .

والجامع : الحمرة ولين الجوهر .

٣ — إخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، كقوله ـ تعالى ـ : « جنة عرضها السموات والأرض ... » .

والجامع بينهما : العظم .

وكقوله : « مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ... » .

والجامع : الجهل بالمحمول .

٤ — إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فيها ، كقوله ـ عز وجل ـ : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » .

والجامع بين الأمرين : العظم .

وعلى هذا الوجه تجرى أكثر تشبيهات القرآن ، وهى الغاية فى الجودة والنهاية فى الحسن .

ثم يقول : وقد جاء فى أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال

بالفكر ، وهو ردىء وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة (١) .

وهذا التقسيم غير محدود أيضاً ، ولا غناء فيه ، ولا يستطاع ضبطه ، وبعضه يندرج تحت بعض .

ويكفى أن نعلم أنه مثل بالآيتين « والذين كفروا أعمالهم كسراب .... » . و « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ... » .

لقسمين مختلفين هما : إخراج ما لا يحس إلى ما يحس ، وإخراج مالا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها ، مع أنهما معا من المركب العقلى .

تقسيم ثالث له .

ثم عاد مرة ثالثة فقسمه إلى أقسام أخرى يزيد بها الخلط والاضطراب والتشعب ، فقال(٢) : والتشبيه بعد ذلك فى جميع الكلام يجرى على وجوه ، منها :

١ — تشبيه الشيء بالشيء صورة — وهو عند المتأخرين تشبيه المحسوس بالمحسوس — مثل قوله — تعالى — « والقمر - قدرناه منازل — حتى عاد كالعُرجون القديم » .

٢ — تشبيه الشيء بالشيء لوناً وحسنا ، كقوله -تعالى- : « كأنهن الياقوت والمرجان » . « كأنهن بيض مكنون » .

٣ — تشبيه الشيء بالشيء لونا وسبوغا ، كقول امرىء القيس فى الدرع :

ومشدودة السّك موضونة ... تَضاءل فى الطى كالمبرد

تفيض على المرء أردانها ... كفيض الأتى على الجدجد

شبه الدرع بالسيل ، والجامع بينهما : البياض والسبوغ ، لأنها تعم الجسد كما يعم السيل المكان الصلب .

---

(١) الصناعتين — ٢٢٦ إلى ٢٢٨ . (٢) الصناعتين — ٢٣٢ .

(٣) السك : الدرع الضيقة الحلق ؛ والموضونة : المنسوجة حلقتين حلقتين . والمعنى : أنها للينها تتضام غضونها بعضها إلى بعض حين تطوى حتى تشبه حزوز المبرد .

٤ — تشبيهه به لونا وصورة كقول النابغة فى الثغر :

كالأقحوان غداةَ غبّ سمائه ... جفَّت أعاليه وأسفله ندى

شبه الثغر بالأقحوان لونا وصورة لأن ورق الأقحوان صورته كصورة الثغر سواء ، وإذا كان الثغر نقيا كان فى لونه سواء .

٥ — تشبيهه به لونا فقط ، كقول زهير :

وقد صار لون الليل مثل الأَرَنْدج

٦ — تشبيهه لونا وهولا ، كقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر مُرخ سدولَه ... علىّ بأنواع الهموم ليَبتلى

٧ — تشبيهه به معنى — وهو المسمى تشبيه المعقول بالمعقول — كقول النابغة يمدح النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وهذا التقسيم — كما ترى — يمكن إدخاله تحت تشبيه المحسوس بالمحسوس والمعقول بالمعقول ، فلا معنى لتمديده وتمطيطه على هذه الصورة .

ولو سلكنا نهج العسكرى لتشعبت أقسام التشبيه إلى غير نهاية ، لأن المعانى لا يمكن حصرها واستقصاؤها .

ولكن من الحق أن نشيد بفضل الرجل ؛ فقد وسع دائرة التشبيه بما قسم من أقسام ، وبين من حدود ، ووضع من شروط ، وساق من أمثال كثيرة بارعة لكل قسم .

هذا إلى شعب كثيرة فرّعها على ما أصّله الأقدمون ، وألوان من النقد وشحّ بها مباحثه المختلفة ، فعصمها من الجساوة والجفاف .

---

(١) الأتي : السيل ، والجدجد : الأرض الغليظة .

(٢) الأرندج : جلد أسود تعمل منه الخفاف .

ولا شك أن ما كتبه العسكرى فى التشبيه فتح الباب على مصراعيه لمن جاءوا بعده، ومهد لهم الطريق فبنوا على أسس متينة ، وسلكوا أرضاً دمثة وجنوا قطوفا مذللة ، وكثير من أمثالهم هى أمثاله التى اختارها بنصها وفصها .

تقسيم عبد القاهر :

وذكر عبد القاهر أن التشبيه ضربان [1] :

١ — صريح وهو ما يكون من جهة أمر بيِّن لا يحتاج فيه إلى تأويل كتشبيه الشىء بالشىء فى الصورة والشكل ؛ نحو أن تشبه الشىء إذا استدار بالكرة فى وجه ، وبالحلقة فى وجه آخر .

وكالتشبيه من جهة اللون ، كتشبيه الخد بالورد ، والشعر بالليل ؛ والوجه بالنهار ، وسِقط النار بعين الديك .

وكالتشبيه من حيث الصورة واللون ، كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنوِّر .

وكالتشبيه من جهة الهيئة ، كتشبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن . ويدخل فى الهيئة حال الحركات فى أجسامها ، كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسهم السديد ، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح .

ويدخل فى الصريح كل تشبيه يتعلق بالحواس : من ملموس ومرأى ومسموع ومشموم ومذوق ، ولو كان وجه الشبه مركباً كالبيت المشهور لقيس بن الخطيم :

وقد لاح فى الصبح الثريا لمن رأى   كعُنقود مُلَّاحية حين نوَّرا

وكقول ابن المعتز :

وأرى الثريا فى السماء كأنها   قدم تبدت فى ثياب حداد

(١) انظر أسرار البلاغة ص ٦٦ إلى ٧٠ .

فالشبه فى هذا كله بين لا يجرى فيه التأول ، ولا يفتقر إليه فى تحصيله .

٢ — تشبيه مؤول وهو أن يكون الشبه فيه محصَّلا بضرب من التأول ولو كان الوجه مفرداً، ويتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه القريب المأخذ، السهل المأتى ، كقولهم فى صفة الكلام : ألفاظه كالماء فى السلاسة ، وكالنسيم فى الرقة ، وكالعسل فى الحلاوة .

يريدون أن اللفظ لا يستغلق ، ولا يستبهم معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستكره ، لكونه غير مألوف، أو ما ليس فى حروفه تكرير وتنافر يكد اللسان من أجلهما ، فصارت لذلك كالماء الذى يسوغ فى الحلق ، والنسيم الذى يسرى فى البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى إلى القلب روحا ، ويوجد فى الصدر انشراحا ، ويفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذى يلذ طعمه وتهشّ النفس له ، ويميل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه .

فهذا كله تأول ورود شيء إلى شيء بضرب من التلطف .

ومنه ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع ، كنحو قول كعب الأشقرى يصف أبناء المهلب للحجاج — متمثلا بقول فاطمة بنت الخُرشُب الأنمارية — : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

فهذا — كما ترى — ظاهر الأمر فى فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة .

ومن هذا الضرب تشبيه التمثيل الذى يحصل فيه الشبه بضرب من التأول .

تقسيم ابن رشيق .

وذكر ابن رشيق : أن التشبيه عند الرمانى يأتى على ضربين والأصل واحد وهما :

١ — تشبيه التقدير — وهو التشبيه من وجه واحد دون وجه — .

٢ — تشبيه التحقيق — وهو التشبيه على الإطلاق ، أو التشبيه بالنفس — مثل تشبيه الغراب بالغراب ، وحجر الذهب بحجر الذهب — إذا كان مثله سواء — وحمرة الشقائق بحمرة الشقائق .

ويلحظ أن القسم الأخير يخالف ما اشترطوه فى أن الطرفين يجب ألا يتفقا فى جميع الجهات ، وألا يختلفا كذلك .

وأورد ابن أبى الإصبع فى كتابه « تحرير التحبير » تقسيما آخر للرمانى ، يعد خيراً مما تقدم ، وإن أشبهه فى الجملة ، وهو :

١ — تشبيه حقيق — أو تشبيه الاتفاق — وهو تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، مثل قولك : ماء النيل كماء الفرات .

وكتشبيه العرض بالعرض ، كقولك حمرة الخد كحمرة الورد .

وكتشبيه الجسم بالجسم ، كقولك : الزبرجد مثل الزمرذ .

٢ — تشبيه مجازى — أو تشبيه الاختلاف — وهو تشبيه شيئين مختلفين بالذات ، لجمعهما معنى واحداً مشتركا ، كقولك حاتم كالغمام ، وعنترة كالضرغام(٢) .

وما رآه الرمانى من تقسيم التشبيه إلى حقيق ومجازى ، أو إلى ما اتحد ذاتا واختلف صفة وبالعكس ، هو — فى نظرى — أفضل تقسيم وأوجزه وأجمعه .

تقسيم السكاكى :

وللسكاكى وتلاميذه تقسيم آخر نظر فيه إلى الطرفين وقد جاء على أربعة أقسام :

---

(١) العمدة — ١ — ١٩٥   (٢) خزانة الأدب للحموى — ٢١٧

١ — تشبيه محسوس بمحسوس — وهو تشبيه صورة بصورة أو إخراج ما تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه — كقول السرى الرفاء :

خفقت رايةُ الصباح وللنا رلهيب كالراية الصفراء
لمعت للعيون بعد اسوداد فأضاءت حنادسَ الظلماء
واستقرت تحت الرماد خيلت ذهباً تحت فضـــة بيضـاء

٢ — تشبيه معقول بمعقول — وهو تشبيه معنى بمعنى أو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى مالا تقع عليه — كقول البحترى :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصبابة ليس البلاء بواحد

وقول حافظ :

معنى ألذ من الشما تة بالعـــــــــدو المدبر

٣ — تشبيه معقول بمحسوس — وهو تشبيه معنى بصورة ، أو إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه — كقول ابن منير الطرابلسى :

زعم كمنبلج الصباح وراءه عزمٌ كحد السيف صادف مقتَلا

٤ — تشبيه محسوس بمعقول — وهو تشبيه صورة بمعنى أو إخراج ما تقع عليه الحاسة إلى ما لا تقع عليه — كقول جحظة البرمكى :

أتُرجّة كالمســـك فى طيبه والتبر فى بهجة إشراقه
كأنها فى كف أستاذنا مخلوقة من طيب أخلاقه

وقول أبى طالب المأمونى فى الحمام :

وبيت كأحشاء المحب دخلته ومالى ثياب فيه غير إهـابى

وقول الوأواء الدمشقى :

وحـديث كـأنه أوبة من مسـافر
كان أحلى من الرقا د لدى طرف ساهر

بت ألهو بطيبه　　في رياض زواهر
بين ساق وسامر　　ومغن وزامر

وقول آخر :

رب ليل كأنه أملى فيك م وقد رحت عنك بالحرمان

وسنعرض لهذا النوع بالتفصيل فى موضع آخر .

ويلاحظ أن السكاكى لم يبتكر هذا التقسيم ، فهو موجود فى ثنايا تقسيمات العسكرى .

ولكن لا يمكن نكران ما اتسم به هذا التقسيم من دقة وضبط وحصر ولا عيب فى ذلك إذا تجرد من الغلو .

وعبد القاهر — على حظه العظيم من الفنِّية — لم ينكر فائدة ذلك ، فقال إن لوضع القوانين ، وبيان التقسيم فى كل شىء ، وتهيئة العبارة فى الفروق فائدة لا ينكرها المميز ، ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض .[1]

ولكن الذى يؤخذ على هذه المدرسة إغراقها فى التقنين والتحديد حتى قيدت النشاط البلاغى ، وحجَّرت ما وسعه الفكر ، وألقت بالفن مكبلا بين أربعة جدران .

تقسيم ابن الأثير :

وذهب ابن الأثير[2] فى تقسيمه مذهباً يجمع بين الطرافة والفائدة ، فقسمه ابتداء إلى قسمين : مظهر ومضمر .

وذكر أن المضمر يُشكل تقدير الأداة فى بعض مواضعه .

ثم قسم المضمر خمسة أقسام :

الأول : يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين كزيد أسد .

---

(١) أسرار البلاغة — ١٢٥　　(٢) المثل السائر — ١٥٣ — ١٥٤

فهذا مبتدأ وخبره .

وإذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك ببديهة النظر على الفور ، فقيل : زيد كالأسد .

والثانى : يقع موقع المبتدأ المفرد ، وخبره جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه ، كقول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « الكَمْأَةُ جُدَرِىُّ الأرض »

وإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبوى لايحتاج فى تقدير أداة التشبيه إلى تقديم المضاف إليه ، بل إن شئنا قدمناه وإن شئنا اخرناه، فقلنا: الكمأة للأرض كالجدرى أو الكمأة كالجدرى للأرض .

وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداه التشبيه . فمن ذلك قول البحترى :

غمائم سماح لا يَغِبّ له حياً — ومِسعَر حرب لا يضيع له وِتر

فإذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا : سماح كالغمام .

ولا يقدر إلا هكذا ، والمبتدأ فى هذا البيت محذوف وهو الإشارة إلى الممدوح ، كأنه قال : هو غمام .

ومن هذا النوع ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا الفن كقول أبى تمام :

---

(٢) عن أبى هريرة أن النبى — صلى الله عليه وسلم — : خرج على الصحابة وهم يذكرون الكمأة ، وبعضهم يقول : هى جدرى الأرض ، فقال — صلوات الله عليه : « الكمأة من المن وماؤها شفاء العين » .

قال الزجاج : المن كل ما عن به — تعالى — مما لاتعب فيه ولا نصب .

وهذا هو المراد من حديث : الكمأة من المن .

وقال أبو عبيدة : إنها كالمن الذى كان يسقط على بنى إسرائيل سهلا بلا علاج ، فكذا الكمأة لا مئونة فيها ببذر ولا سقى .

أىْ مرعى عين ووادى نسيب   لَحَبتْه الأيام فى ملحوب[1]

ومراد أبى تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسناً ثم زال عنه حسنه ، فقال : إن العين كانت تلتذ بالنظر إليه كالتذاذ السائمة بالمرعى .

وإذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا : كأنه كان للعين مرعى وللنسيب منزلا ومألفا .

وإذا ما جاء شيء من الأبيات الشعرية على هذا الأسلوب أو ما يجرى مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه .

والثالث : يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين ، كقول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « وهل يكُبّ الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم » كأنه قال : كلام الألسنة كحصائد المناجل .

وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكوراً فيه بل تذكر صفته ، ألا ترى أن المنجل لم يذكر ههنا وإنما ذكرت صفته وهى الحصد ..

وكل ما يجىء من هذا القسم فإنه لا يرد إلا كذلك .

ويعد القسم الثانى والثالث متوسطين بالنسبة إلى تقدير أداة التشبيه فيهما.

والرابع : يرد على وجه الفاعل والمفعول كقوله — تعالى — : « والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم » .

وتقدير أداة التشبيه فى هذا الموضع أن يقال : هم فى إيمانهم كالمتبوىء داراً : أى إنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه ، يصف بذلك تمكنهم منه .

وعلى هذا ورد قول أبى تمام :

نطقت مقلة الفتى الملهوف   فتشكّت بفيض دمع ذَروف

---

(١) ويجوز مرعى عين بكسر العين : وهى بقر الوحش على إرادة النساء ذوات العيون السود الواسعة ، ولحبته : قشرته .

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه ههنا ، قلنا : دمع العين كنطق اللسان أو قلنا : العين الباكية كأنما تنطق بما فى الضمير .

والقسم الخامس : يرد على وجه المثل المضروب ، كقول الفرزدق يهجو جريرا :

ما ضرَّ تَغلبَ وائلٍ أهجوتها   أم بُلت حيث تَناطح البحران

فشبه هجاء جرير لتغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لا يؤثر شيئاً فكذلك هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئاً .

وكذلك ورد قوله :

قوارص تأتينى ويحتقرونها   وقد يملأ القطر الإناء فيفعمُ[1]

فإنه شبه القوارص التى تأتيه محتقرة بالقطر الذى يملأ الإناء على صغر مقداره : يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيرا .

والقسم الرابع والخامس أشكل الأقسام فى تقدير الأداة .

تقسيم للحلبى .

بقى تقسيم أورده الحلبى[2] وقال عنه : ذكر بعض المؤرخين فى التشبيه سبعة أنواع نحن نوردها هنا وإن لم تكن كلها منه وهى :

١ — التشبيه المطلق ، وهو أن يشبه شيئاً بشىء من غير عكس ولا تبديل ؛ كقوله — تعالى — : « والقمر قدَّرناه منازلَ حتى عاد كالعُرجون القديم »

« وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام »

« كأنهم أعجاز نخل خاوية »

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : — « الناس سواسية كأسنان المشط »

---

(١) فعم يفعم من باب كرم : امتلأ .   (٢) حسن التوسل — ١٦ .

٢ — التشبيه المشروط ، وهو أن يشبِّه شيئاً بشيء لو كان بصفة كذا ، ولولا أنه بصفة كذا ؛ كقوله : أشبهٍ وجه مولانا بالعيد المقبل لو كان العيد تبقى ميامنه ، وتدوم محاسنه .

وكقوله : وجه هو الشمس لولا كسوفها ، والقمر لولا خسوفه .

وكقول الوطواط :

عزمانه مثل النجوم ثواقبا   لو لم يكن للثاقبات أفول

٣ — تشبيه الكناية : وهو أن يشبه شيئاً بشيء من غير أداة تشبيه ؛ كقول المتنبي :

بدت قمراً وماست خوطَ بان   وفاحت عنبراً ورنت غزالا

٤ — تشبيه التسوية : وهو أن يأخذ صفة من صفات ، نفسية ، وصفة من الصفات المقصودة ، ويشبههما بشيء ، كقوله :

صدغ الحبيب وحالى   كلاهما كالليـــــالى

وقول الحلبي :

كلانا غريق فى الدموع وفى الدجى   كأن دموع العين والليلَ طوفان

٥ — التشبيه المعكوس : وهو أن يشبه شيئين كل واحد منهما بالآخر . كقول بعضهم : كم من دم أهرقناه فى البر ، وشخص أغرقناه فى البحر ، فأصبح البر بحراً بدمائهم ، والبحر براً بأشلائهم .

وكقول منصور الهروى :

الراح مثل المـاء فى كاساتهـا   والماء مثل الراح فى الغُدران

٦ — تشبيه الإضمار ، وهو أن يكون مقصود المشبِّه التشبيه بشيء ، ويدل ظاهر لفظه على أن مقصوده غيره ، كقول المتنبي :

ومن كنت جاراً له يا علىّ   لا يقبل الدر إلا كبارا[1]

فيدل ظاهره على أن مقصوده الدر ، وإنما غرضه تشبيه الممدوح بالبحر.

وكقول الشاعر :

إن كان وجهك شمعا   فما لجسمى يذوب

٧ — تشبيه التفصيل : وهو أن يشبه شيئاً بشىء ، ثم يرجع فيرجح المشبه على المشبه به ، كقول الشاعر :

حسبت جماله بدراً مضيئا   وأين البدر من ذاك الجمال

(١) على : هو سيف الدولة الحمدانى .

الفصل التاسع

أركان التشبيه

للتشبيه أربعة أركان :

المشبه والمشبه به ، ويقال لهما : طرفا التشبيه .

وأداة التشبيه ، ووجه الشبه .

مثل قول ابن الفارض :

أعوام إقباله كاليوم في قِصَر ويوم إعراضه في الطول كالحِجَج

وعبر السكاكي عن أداة التشبيه : بكلمة « التشبيه[1] » .

وذهب الحموي في الأركان مذهباً آخر ، فرأى أنها : المشبه ، والمشبه به ، والمشبه بالكسر — وهو المتكلم — والتشبيه — وهو الإلحاق المذكور في الشبه[2] — .

فأغفل أداة التشبيه ووجه الشبه .

ولكن لما كان الإلحاق لا يتم بغير أداة تشبيه ووجه شبه ، يمكن أن نعتبر أنه قد أتى بهما ضمنا .

طرفا التشبيه :

طرفا التشبيه هما : الركنان الأساسيان فيه .

ولا بد من اتحادهما في الحقيقة أو اشتراكهما في الذات ، مع اختلافهما في الصفة ، أو اتحادهما في الصفة مع اختلافهما في الحقيقة أو الذات .

---

(١) مفتاح العلوم — ١٨٩ (٢) خزانة الأدب — ٢١٦

لأن التشبيه يقتضى الاختلاف فى بعض الجهة والاشتراك فى بعضها ، إذ الاشتراك من جميع الوجوه حتى الاتحاد الذى يأبى التعدد ، أو الاختلاف من جميع الوجوه حتى التعين الذى يأبى المقاربة ، لا يتأتى به تشبيه ألبتة .

فأطراف التشبيه أشبه شىء بالبشر ، فهم جميعاً يشتركون فى صور خاصة ، وفى سمات يُعرفون بها أنهم بشر .

وفى الوقت نفسه لا نجد فيهم اثنين متشابهين مطلق التشابه .

فهنا موضوعان كل منهما حقيق فى نطاق حدود معينة ، وهما التشابه والتغاير ، أو الائتلاف والاختلاف .

مثال الأول : تشبيه إنسان بإنسان مع اختلافهما طولا وقصراً ، أو بدانة ونحافة ، أو بياضا وسواداً إلى غير ذلك .

وكتشبيه العَدْو بالطيران ، لأنه ليس بينهما اختلاف إلا بالسرعة والبطء .

وكقول عمر بن أبى ربيعة :

يتقابلن كالبدور على الأغصان م فى مُثقَل من الأرداف
بخصور تحكى خصور الزنابير م ضعاف هممن بالإنقصاف

وقول قيس بن ذَريح :

أقضِّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمَّ بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لىَ الليل هزتنى إليك المضاجع

وقول المتنبى — فى هزيمة سيف الدولة لعساكر الإخشيد بصفين — :

أو ما ترى صِفِّين كيف أتيتها فانجاب عنها العسكر الغربىّ
فكأنه جيش ابن حرب رعته حتى كأنك يا علىّ على[1]

---

(١) على الأول : سيف الدولة ، والثانى : الإمام أبو الحسن .

وقوله :

كم مهمه قَذَفٍ قلبُ الدليل به قلب المحب قضانى بعدما مطلا[1]

وقوله :

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

وقول شاعر :

ليلى بتنِّيس ليل الخائف العانى تفنى الليالى وليلى ليس بالفانى

وقول آخر :

عهدى بنا ورداء الليل يجمعنا والليل أطوله كاللمح بالبصر
والآن ليلىَ مذبانوا — فديتهم — ليلُ الضرير فصبحى غير منتَظر

ومثال الثانى تشبيه الإنسان بالقرد والخنزير ، كقول أبى دلامة :

إذا لبس العمامة كان قردا وخنزيراً إذا خلع العمامه

وكتشبيهه بالجواد فى قول المتنبى :

فدى لأبى المسك الكرامُ فإنها سوابق خيل يهتدين بأدهمَ

وتشبيهه بالجواد والسيف فى قول المعرى :

وإنى جواد لم يُحَلَّ لجامه ونصل يمان أغفلته الصياقل

وتشبيهه بالنجم فى قول المتنبى :

وإنى لنجم تهتدى صحبتى به إذا حال من دون النجوم سحاب

وقد يقال : إن الطرفين متحدان فى مثل : كأن زيداً قائم .

والجواب : أن الاختلاف فى التقدير ؛ إذ تقديره : كأن زيداً رجل قائم : أى من أفراد الرجل .

وقد يقال : كأن زيداً قائم : للشك ، كما صرح به الزجاج ، إذا كان خبرها صفة مشتقة أو فعلا ، أو كأن للتحقيق عند بعضهم[2] .

---

(١) المهمه : الفلاة الواسعة . والقذف بفتحتين : البعيد .
(٢) شرح الفوائد الغياثية — ١٩٧ .

وأحوال التشبيه من القوة والأهمية، والعموم والخصوص، عائدة إلى المشبه به حقيقة.

وأغراضه من بيان الحال وتقريره إلى آخره عائدة إلى المشبه حقيقة إلا في التشبيه المقلوب، فإن الأغراض تعتبر في المشبه به هناك.

ومرد ذلك إلى أن الأصل في التشبيه أن يقصد به إلحاق الناقص بالزائد في الصفة المطلوبة، لأنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه — كما يقول ابن الأثير — :

أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة «أفعل».

أي يشبه بما هو أبين وأوضح، أو بما هو أحسن أو أقبح.

وكذلك يشبه الأقل بالأكثر، والأدنى بالأعلى[1].

وهو معنى قول السكاكي: ... المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه من المشبه، وأخص بها، وأقوى حالا معها.[2]

وقول العلوي: المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله[3].

وقد وقع على الندرة مجيء المشبه أقوى من المشبه به في غير القلب؛ كقوله — تعالى — : «الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» إذ لا نور أعلى من نوره — عز وجل — ولكنه جاء كذلك، تقريباً لأذهان المخاطبين.

والمدح في التشبيه يجرى على المتعارف من تشبيه الأدنى بالأعلى، ولكن في الذم يشبه الأعلى بالأدنى؛ لأن مقام الذم مقام الأدنى، والأعلى طارىء عليه.

تقول في المدح: حصباء كالياقوت، وتراب كالمسك، ورمل كالحناء، وورق كالفضة.

---

(١) المثل السائر — ١٦٥

(٢) مفتاح العلوم — ١٨٤

(٣) الطراز — ٣ — ٢٢٧

وكقول المتنبي :

تذكّرت ما بين العُذيْب وبارق   مجرَّ عوالينا ومجرى السوابق
وليلا توسّدنا الثَّويَّة تحته   كأن ثراها عنبر فى المرافق[١]

وفى الذم تقول : ماس كالزجاج ، ودر كالخزف ، وقمح كالزؤان ودقيق كالجير .

وكقول أبى هفان فى ذم باهلة :

أباهلُ ينبحــنى كلبكم   وأسدكمُ ككلاب العرب
ولو قيل للكلب يا باهلى   عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وقول داود الأنطاكى :

بيضاء تجلو الهم عن ناظرى   بعين حق لا بعين انتقاص
فقل لمن يرغب فى أسمر   ما الفضة البيضاء مثل النحاس

وقول آخر :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما   بصاحبه يوما أحال على الدم[٢]

وكذلك يشبه الأعلى بالأدنى فى السلب .

ومنه قوله — تعالى — : « يانساء النبي لستن كأحد من النساء » .

أى فى النزول لا العلو .

وقوله — عز وجل — : « أم نجعل المتقين كالفجار »

أى فى سوء الحال .

وكقول طرفة :

فتى ليس بابن العم كالذئب إن رأى   بصاحبه يوما دما فهو آكله

---

(١) الثوية : موضع بقرب الكوفة .

(٢) أحال : أقبل ، ويضرب اللؤم بالذئب فى الخيانة ، وربما كانت الذئبة مع ذئبها فيرى الذئب فتشد عليه وتأكله .

وقد يقع العكس كقول العسكرى :

أفضل الورد على النرجس   لا أجعل الأنجم كالأشمس
ليس الذى يقعد فى مجلس   مثل الذى يمثُل فى المجلس

« لا » بين المشبهين .

ومما نحن فيه قول الحريرى : غدوت ولا اغتداء الغراب[1] .

فحذف مثل وأقيم المضاف إليه مقامه ، ولولاه لم تنصب لأنه معرفة

وقال الفنجديهى : رفعه أبلغ من نصبه

والمعنى : أراد أن اغتداءه كان قبل اغتداء الغراب ، وهو أكثر الطيور بكورا .

وهذا وما شابهه كثير فى قول الكتاب ، والمشبه فيه أقوى من المشبه به ، ولم يأت مثله عن العرب بل عكسه ، كقولهم : فتى ولا كمالك : يريدون أن مالكا أفضل من كل فتى .

ومثله : مرعى ولا كالسعدان : أى السعدان أفضل من كل مرعى .

ثم يقول : هذا مذهب العرب فى ذكر « لا » بين المشبهين ، وما وقع فى كلام الحريرى انقلب فيه المعنى ، وهو كثير فى كلام عامة العراق ، وقد استعمله البديع فى مقاماته . والمولدون فى أشعارهم .

---

(١) ومثله ما كتبه الميكالى إلى الثعالبى : قرأت خبر سلامتك ، فسرى السرور فى الجوانح ، واهتزت النفس له اهتزاز الغصن تحت البارح .

أليس لأخبار الأحبة فرحة   ولا فرحة العطشان فاجأه القطر

زهر الآداب — ٤ — ٩٤

ومن ذلك قول المتنبى :

وكل شجاعة فى المرء تغني   ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

ومثل : اسم لا وإن كان مضافا إلى معرفة ، لأنه من الأسماء التى لا تتعرف بإضافتها إلى المعارف ، والخبر محذوف : أى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم موجودة : يريد أن كل شجاعة تنفع صاحبها وتدرأ عنه الحيف والظلم والأذى ، ولكنها مع ذلك لا تقاس بشجاعة الحكيم المقرونة بالحزم وبعد النظر والتفكير فى العواقب .

ويقول الخفاجي : استعمله العرب على الترقي والحريري على عكسه ، وليس مثله مما يتوقف على السماع ، لأنه ليس فيه ما يخالف كلام العرب فى معانى المفردات ولا فى قواعد الإعراب ، ومثله لا يتوقف على النقل ، والمعانى لا حجر فيها ، مع أن الثعالبي فى كتاب « سحر البلاغة » نقل مثله عن العرب ولم ينتقده .

ويقول الخفاجي : ثم إنى ظفرت بهذا الاستعمال بعينه فى كلام العرب الفصحاء ، كقول يزيد بن الريان فى شعر قاله فى قصة وقعت بينه وبين عامر ابن الطفيل العامرى ، وهو :

أمىَ يابن الأسكر بن مدلج لا تجعلنْ هوازنا كمذحج

لا النبع فى مغرسه كالعوسج ولا الصريح المحض كالممزّج[1]

ثم يقول : والحاصل : أن نفى مشابهة شيء لشيء إما لأنه دونه أو فوقه لأن المشبه به أعلى مرتبة منه ، وقد وقع فى أول حواشى « التلويح » كلام فيه ، حيث قال فى وصف الكتاب : اشتهر ولا كاشتهار الشمس فى رائعة النهار ، مع أن لكل وجه من البلاغة حسن فى بابه .

وفى الشعر القديم :

طرق الخيال ولا كليلة مدلج[2]

وقد يفيد المشبه به معنيين :

أحدهما محسوس ، كتشبيه المصابيح بالنجوم فى لمعانها وإشعاعها .

والآخر معقول ، كتشبيه الرسول — صلوات الله عليه — أصحابه بها فى الهداية حيث يقول « أصحابي كالنجوم بأيهم اهتديتم اقتديتم » .

فهذا شبه عقلى .

(١) النبع : شجر القسى والسهام ، والعوسج : الشوك ، والصريح : الخالص من كل شيء .

(٢) طراز المجالس — ١٢٢ — ١٢٣ .

والمعنى : أن الناس يهتدون بهم كما يهتدى السارى فى ظلمة الليل البهيم بالنجوم ، قال — تعالى — : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » .

وقد يكون المعنيان متضادين .

وذلك كرُقية الحيات ، فإنها تضرب مثلا فى شيئين متضادين :

أحدهما الكلام الطويل الذى لا يفهم ، كقول على بن الجهم فى وصف توقيعات ابن الزيات :

عَلَى ابنِ عبد الملك الزيات لَعائنُ الله موفَّرات

يرمى الدواوين بتوقيعات مطولات ومقصرات

أشبه شىء برقى الحيات

والآخر : الكلام الذى يزيل السخيمة ويصلح ذات البين ، وهو اللين اللطيف كما قال أبو تمام :

خذها مثقفة القوافى زنتها بسوابغ النعماء غير كنود

كالدر والمرجان أُلِّف نظمه بالشَّذْر فى عنق الفتاة الرُّود

كشقيقة البرد المنمنم وشيه فى أرض مَهْرَةَ أو بلاد تزيد[1]

كرقى الأساود والأراقم طالما نَزَعت حُمات سخائم وحقود[2]

وكبيضة البلد ، فإن العرب تمدح بها وتذم

فمن مدح بها جعلها أصلا كما أن البيضة أصل الطائر

ومن ذم بها أراد ألا أصل له .

---

(١) مهرة : من أقاليم جزيرة العرب ، وتزيد : أبو قبيلة ، ومنه البرود التزيدية وبها خطوط حمر .

(٢) الحمات : جمع حمة بالضم ، وهى السم أو الإبرة يضرب بها الزنبار أو الحية ونحو ذلك .

فمن الأول قول أخت عمرو بن وُد «العامرى» حين قتله على بن أبى طالب فى غزوة الخندق :

لو كان قاتل عمرو غيرَ قاتله   لكنت أبكى عليه آخر الأبد
لكنّ قاتله من لا يعاب به   وكان يدعى قديماً بيضة البلد

ومن الثانى قول الراعى يَهجو عدى بن الرِّقاع العاملى :

لو كنت من أحد يُهجى هجوتكم   ياابن الرقاع ولكن لست من أحد
تأبى قضاعة أن ترضى لكم نسبا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلد [1]

---

(١) ابنا نزار : مضر ، وربيعة .

الفصل العاشر

التمليح والتهكم

قد يقع التشبيه بين الضدين والمختلفين ، كقولك : العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته ، أو كالخل فى حموضته .

ومن ذلك قولك للبخيل : هو حاتم فى الكرم ، وللجبان : هو عنترة فى الشجاعة ، وللعيي : هو سحبان فى الفصاحة .

غير أنه لا بد لصحة ذلك الأخذ من غرض ، وهو التمليح أو التهكم .

فلا يكفى مطلق الاشتراك ، كأن تقول : السماء كالأرض فى الانخفاض ، والأرض كالسماء فى الارتفاع ، ونحو ذلك مما لم يصح وروده عن البلغاء .

والتمليح لغة : هو الإتيان بما فيه ملاحة وظرف ، يقال : ملَّح الشاعر بالتشديد كفرّح : إذا أتى بشيء مليح ، وفلان يتظرف ويتملح ، وحدثته بالمُلَح .

قال الطرماح يخاطب زوجته سليمة :

تملَّح ما استطاعتْ ويغلب دونها   هوى لك يُنسى مُلحة المتملحً

والتهكم : الاستهزاء كأن تقول للقبيح : هو يوسف فى الحسن ، وكما تقدم فى الأمثلة السابقة .

وتهكم به : تهزأ به ، وقال ذلك على سبيل التهكم . قال حسان :

بنى أم البنين ألم يرعكم   وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبى بَراء   ليخفره وما خطأ كعمد

وعن الأصمعى : أنه قال فى قول زهير :

فتغلل لكم .... [١]

هذا منه تهكم [٢] .

ومن ذلك قول شاعر فى رجل اسمه عون :

الجود حاتم طىء وحاتم البخل عون
له مطابخ بيض والعرض أسود جون

ومعناهما فى اصطلاح البلغاء : إطلاق اللفظ الدال على وصف شريف على ضده ، كإطلاق الكريم على البخيل ، والأسد على الجبان .

ولا يصح معهما العكس ؛ كإطلاق البخيل على الكريم ، والجبان على الأسد .

ولهذا اشترط الرمانى فى هذا الضرب من التشبيه أن يكون مصحوباً بتقييد وتفسير .

وقد يقع كل من التمليح والتهكم منفرداً ، وقد يجتمعان معاً والأمثلة كلها صالحة لذلك ، فإذا قلت للدميم : أنت يوسف فى الجمال أمام من يستملح مثل ذلك الحديث ويستظرفه ، وقامت القرائن على أنك لا تقصد الاستهزاء بالمشبه ، لصداقة بينكما تجعله جليل المكانة عظيم القدر فى نفسك ، كان الغرض لا محالة التمليح .

وإن قامت القرائن على قصدك اتخاذه هزواً ونصبه سخرية ، لعداوتك له وسخطك عليه ، مع عدم وجود سامع يستملح النكات ، ويستظرف النوادر ، ويستجيد الملح تقصده بحديثك ، كان الغرض التهكم حتما .

وإن قامت القرائن على قصدك التهكم والتمليح معا ، بأن كان المشبه خصما

---

(١) يريد البيت :

فتغلل لكم مالا تغل لها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى . مادة « هكم » .

لك تقصد تجريحه والغض منه ، وكان هناك سامع رهيف الحس يتذوق أسرار الكلام ، ويسترْوح إلى النكتة البارعة فأردت التظرف والتملح معه بهذا القول ، كان الغرض كليهما .

ويظهر لدى التأمل أن الجمع بين التهكم والتمليح مما يخرج عن الطريق السوى ، ولا تسوق إليه الفطرة الصافية والطبع السجيح ، والحق ما ذهب إليه المولى عصام ، وهو أنّ قصدهما معا تكلف ، إذ جمع الاعتبارين المذكورين فى إطلاق واحد قلما يمكن[١] .

ووجه الشبه هنا منتزع من نفس التضاد الواقع بين الشيئين لاشتراكهما فيه ، فإن كلا منهما موصوف بأنه مضاد للآخر مساو له . فإذا قلنا: ماأشبه الجبان بالأسد فى الشجاعة ، أو زيد الجبان ، كالأسد فى الشجاعة ، كان وجه الشبه منتزعا من المتضادين .

وذلك لأننا نزّلنا تضاد الجبن والشجاعة منزلة تناسبهما ، فصار الجبن مناسباً للشجاعة وبمنزلتها، لأن التناسب التنزيلى مشترك بين الجبن والشجاعة ، لكون كل منهما مناسب للآخر ، فصار الجبان مناسباً للشجاع .

فإذا شبهته به صار كأنه قامت به شجاعة ، وإذا أخذ وجه الشبه منهما كان هو الشجاعة ، وإن كانت فى المشبه به حقيقة وفى المشبه ادعاء .

وزيادة فى الإيضاح يقال : إن وجه الشبه فى هذا التشبيه هو الرافع للتضاد ، الموجب للمناسبة ، لا نفس التضاد المشترك بين الضدين ، ومن جعل الوجه هنا هو التضاد المشترك حقيقة فقدسها .

وذلك أنه إذا قصدنا أن الوجه هو التضاد لم يعد تمليحاً ولا تهكما ، لأنه بمنزلة قولنا : البياض كالسواد فى تقابلهما وتضادهما ، أو فى اللونية الكائنة

---

(١) شرح الفوائد الغياثية ــ ٢١٦ .

فيهما ، ولكننا نزلنا التضاد منزلة التناسب ، وجعلنا الجبن بمنزلة الشجاعة ، فالجبان شجاع تنزيلا فصح الاشتراك[١] .

أى إن تنزيل التضاد منزلة التناسب رفع التضاد بينهما ، فصح جعل الجبن بمنزلة الشجاعة ادعاء .

وقد اعتبر عبد اللطيف البغدادى فى كتابه « البلاغة » : التضاد على وجه آخر فقال : قد يشبه أحد الضدين بالآخر إذا كان أحدهما أظهر ؛ كما يقال : العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته .

وأنشد لإبراهيم بن المهدى يعتذر إلى المأمون فى الخروج عليه :

لئن جحدتك معروفا مننتَ به إنى لفى اللؤم أحظى منك فى الكرم

يريد أن لؤمه إذ ذاك يربى على نصيب المأمون من الكرم مع عظم نصيبه منه .

وقول أبى نواس :

أصبح الحسن منك يا أحسن الأمة م يحكى سماجة بن حبيش

يريد أن حسن هذا يبلغ فى منزلته قبح ذاك .

وقول آخر :

أنت أذكى ريحاً إذا تعطرت بالعنبر م والمندلىّ من ظَربان[٢]

ويرى ابن السبكى : أن وجه الشبه ليس هو التضاد ، بل هو مطلق الشدة والقوة الموجودة فى كل من الضدين .

ثم هو يرى أن المراد بالتمليح هنا : هو التلميح المصطلح عليه : أى الإشارة فى شعر أو قرينة سجع إلى قصة معلومة ، أو نكتة مشهورة ، أو بيت شعر

---

(١) حاشية الدسوقى — ٣ — ٣٨٣ .

(٢) المندلى : عود منسوب إلى مندل من بلاد الهند ، والظربان كقطران : دويبة كالهرة منتنة .

حفظ لتواتره ، أو إلى مثل سائر يجرى فى الكلام على جهة التمثيل .

وهذا هو المتعين عنده .

فإذا أخذنا قولهم للبخيل : هو حاتم ، إلى التمليح ، فالقصة المشار إليها : ما اشتهر من كرم حاتم وأخباره .(١)

وقد رد ذلك المغربى ، فقال : وليس هو « التمليح » مرادفا للتلميح بتقديم اللام ، الذى هو الإشارة إلى قصة ، كما فى قول أبى تمام — وقد سفرت محبوبته من جانب الخدر ليلا — :

فرُدَّت علينا الشمس والليل راغم	بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
فوالله ما أدرى أأحلام نائم	ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

ومن سوى بينهما وجعل قوله : هو حاتم ، إلى قصة حاتم فقد وهم ؛ لأن حاتماً لا يشعر بقصة وإنما يشعر بالجود الذى هو كاللازم له ، وهذا ما قصد ليجعل وجه الشبه .(٢)

والحق مع المغربى فى أن التمليح غير التلميح فى معناه وغرضه ، ولكن هذا لا ينفى أن التلميح يسمى تمليحاً عند بعضهم ، كأن صاحبه أتى بنكتة زادت كلامه ملاحة . كما يقول الحموى (٣) — .

هذا . والتمليح معروف فى كلام العرب كما نبه عليه الإمام المرزوقى فى قول الحماسى :

أتانى من أبى أنس وعيد	فَسُلَّ لَغَيْظة الضحاك جسمى

فإن قائل هذا البيت قصد التهكم بأبى أنس ، والتمليح بإتيانه شيئا يستظرفه السامعون .

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣٨٣ .

(٢) مواهب الفتاح —٣ —٣٨٥ .   (٣) خزانة الأدب — ٢٣٠ .

وسل مبنى للمجهول ، والجسم نائب فاعل .

وفى بعض الروايات :

فسَلَّ تغيظُ الضحاك جسمى

بالبناء للفاعل ، وتغيظ : فاعله ، والجسم : مفعول به .

والمراد بالضحاك : أنس نفسه ، وقد عبر بالظاهر بدل المضمر بياناً لعين المستهزأ به بذكر الاسم العلم تحقيراً لشأنه .

وقيل الضحاك : اسم لملك من الملوك سماه به زيادة فى التهكم ، لتضمنه تشبيهه به على وجه الهزؤ والسخرية ، فكأنه قال : فسل جسمى تغيظ هذا الذى هو كالملك الفلانى ، ولا يخفى ما فيه من الاستهزاء .

ومن هذا قول جرير يتهكم بالفرزدق لتهديده راويته « مربع » بالقتل

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يامربع

وقول ابن النقيب :

توعَّدنى وهـــددنى وغالى   وبالغ فى التعنت والملامه

فقالت حسدى أبشر بخير   وأيقن طول عمرك بالسلامه

ومما يجل عن الوصف قوله — تعالى — : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » جاءت على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه .

وقيل : إن المراد به أبو جهل ، فقد روى أنه قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ما تستطيع انت ولا ربك أن تفعلا بى شيئاً .(١)

وهناك فرق لطيف بين التهكم وبين الهزل الذى يراد به الجد — كما يقول الحموى — (٢) :

---

(١) الكشاف للزمخشرى — ٢ — ٣٦٣ .   (٢) خزانة الأدب — ٧٩ — ٨٠ .

فالأول ظاهره جد وباطنه هزل والثانى بالعكس .

والهزل الذى يراد به الجد ، هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ، فيخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال كما فعل أصحاب النوادر ؛ مثل أشعب وأبى دلامة وأبى العيناء ومزيد ، ومن سلك مسلكهم.

فمن نوادر أشعب أنه حضر وليمة لبعض ولاة المدينة وكان رجلا بخيلا فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة فيها جدى مشوى ، فكان الناس يحومون حوله ولا يمسه أحد منهم لعلمهم ببخله .

وكان أشعب يحضر مع الناس ويرى الجدى ، فقال فى اليوم الثالث : زوجه طالق إن لم يكن عمر هذا الجدى بعد أن ذبح وشوى أطول من عمره قبل ذلك !

والفاتح لهذا الباب امرؤ القيس بقوله :

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها ... بأن الفتى يهذى وليس بفعّال

ومن شواهده[1] ما أنشده ابن المعتز من قول أبى العتاهية .

أرقيك أرقيك باسم الله أرقيكا ... من بخل نفسك عل الله يشفيكا

ما سلم كفك إلا من يتاركها ... ولا عدوك إلا من يرجّيكا[2]

ومثّل له الخطيب[3] بقول أبى نواس من قصيدة هجا بها تميما وأسدا وافتخر بقحطان .

إذا ماتميمى أتاك مفاخـــراً ... فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

وسؤال التميمى عن أكله الضب ، هزل مبطن بالجد ، لأن تميما فى الواقع كانوا يأكلون الضِّباب ويعيرون بذلك .

---

(١) البديع لابن المعتز ـ ١١٢ (طبع الأستاذ خفاجى) .

(٢) فى خزانة الأدب للحموى وفى معاهد التنصيص : « يناولها » .

(٣) الإيضاح ـ ٢٦٩ .

وقد هجا أبو القاسم بن الفضل أو الرئيس على بن الأعرابى ، الحيص بيص الشاعر التميمى بقوله :

كم تبارى وكم تطوّل طُرطو ... رك ما فيك شَعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل الأخضر ... م واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ومن يقر ... ى ومن يدفع الأذى عن حريم

ومن بدائعه قول ابن نباتة المصرى :

سلبتَ محاسنُك الغزالَ صفاته ... حتى تحير كل ظبى فيكا
لك جيده ولحاظه ونفاره ... وغدا نظير قرونه لأبيكا

ويقول الحموى : وهذا النوع ما سبكه فى قوالبه إلا من لطفت ذاته ، وكانت له ملكة فى هذا الفن وحسن تصرف .

ثم يذكر أن من أظرف ماوقع له فى هذا الباب أنه أصيب بجرب وهو فى مصر أشرف منه على التلف ! ووصف له الحكيم بطيخا — وكان عزيز الوجود فى هذه الأيام — وقد بلغه أنه أهدى إلى ابن البارزى صاحب صاحب دواوين الإنشاء بطيخ ، فكتب إليه :

مولاى عاقبنى الزمان بجَربة ... وقد انقطعت بجسمى المسلوخ
وعمِيت من حزَنى على ماتم لى ... لكن شممت روائح البطيخ

ثم يقول معلقا على ذلك : والكناية عن طلب البطيخ سبكت فى أحسن قوالب الهزل مع حسن التضمين(١) .

تقسيم الطرفين :

قد يأتى الطرفان فى تشبيه المفرد بالمفرد غير مقيدين ، كتشبيه القد بالغصن .

(١) خزانة الأدب — ٧٠ .

وقد يقعان مقيدين ؛ كقولك لمن لا يحصل من سعيه على طائل : هو كالقابض على الماء ، والراقم على الماء .

فالمشبه هو الساعى ولكن سعيه غير مطلق بل مقيد بأنه سعى مقرون بالخيبة والإخفاق .

والمشبه به هو القابض أو الراقم لا مطلق قبض ولا رقم ، بل قيد بالقبض على الماء أو الرقم فيه ، لأن وجه الشبه فيهما هو التسوية بين الفعل وعدمه فى فقد الفائدة .

والقيد فى هاتين الصورتين هو الجار والمجرور .

فمعنى التقييد إذن : أن تشبه شيئاً بشيء بشرط انضمام شيء إليه .

والمراد بالقيد فى طرفى التشبيه : ما كان له مدخل فى التشبيه ، احترازاً عن القيود اللفظية . كقوله ـ تعالى ـ : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

فلكم ولهن : قيد لفظى لا أثر له فى وجه الشبه .

وقد يقع المشبه به مقيداً والمشبه مطلقاً ؛ كقولك : هو كالحادى وليس له بعير .

والقيد هنا : حال .

أو بالعكس ؛ كتشبيه القمر فى الليلة الرابعة عشرة بالوجه .

ومما جاء طرفاه مقيدين قول ابن الرومى :

إنى وتزيينى بمدحى معشراً كمعلِّق دراً على خنزير

فالشبه : هو أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر ؛ لأن الشيء غير قابل للتزيين .

ولا بد للواو فى هذا النحو أن تكون بمعنى « مع » وأمرها فيه أبين إذ لا يمكن أن يقال : إنى كذا وإن تزيينى كذا ، لأنه ليس معناشيئان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم فى « إنى » الذى هو المعطوف عليه ، والآخر

عن تزييني المعطوف .... فأنت في نحو « إني وتزييني » مُلجَأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه ، حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيهاً بعد تشبيه .

فإن قلت إن في « معلّق » معنى الذات والصفة معاً ، فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه .

والجواب لو أريد إني كمعلق دراً على خنزير ، وإن تزييني بمدحي معشراً كتعليق درة على خنزير ، كان قولا ظاهر السقوط ، لما ذكرت من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلا ، بمعلّق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو ، وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه[1] .

والفرق بين المفرد المقيد والمركب : أن المركب ، كل واحد من أجزائه جزء الطرف ، والمفرد المقيد يكون الطرف فيه ذلك القيد ، والقيد شرط لا جزء[2] .

وتشبيه المركب بالمركب ، والمفرد المقيد بالمفرد المقيد ، لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر في اللفظ بل في المعنى .

فحيث كان المقصود الهيئة الحاصلة من مجموع أمرين أو أمور ، فهو تشبيه مركب بمركب ، لأن كل واحد من أجزاء الطرف الواحد ليس مقصوداً ، وإن صح تشبيهه بجزء الطرف الآخر .

وحيث كان المقصود كل واحد من أجزاء الطرف الواحد ولكن بقيد فيه ، وليس ذلك القيد مقصوداً لنفسه بل للطرف ، فهو مقيد بمقيد[3] .

وعلى كل فوجه الشبه المقيد بمعنى آخر ، فيه معنى التركيب ، ولكنه يعد مفرداً لأن التقييد غير التركيب .

---

(١) أسرار البلاغة — ١٦٢ — ١٦٣ . (٢) مواهب الفتاح — ٣ — ٤١٨ .
(٣) عروس الأفراح — ٣ — ٤٦٣ .

فإذا وجدت فى أحد الطرفين قيداً لفظياً : من مفعول أو صفة أو ظرف أو جار ، ومجرور أو غير ذلك ، فانظر إلى المعنى ، فإن وجدت المقيد هو المقصود والقيد تبع لم يؤثر فيه شيئاً ، فهو مفرد مقيد .

وإن وجد القصد إلى الهيئة الحاصلة فى الذهن على السواء ، فهو تشبيه مركب .

وإن أردت تشبيه أشياء منفصلة بأشياء منفصلة ، فهو تشبيه متعدد .

ولا خلاف أن الفرق بين المركب والمفرد أحوج شيء إلى التأمل فكثيراً ما يقع الالتباس ، لأن القيود معتبرة فى كليهما ، ولا حاكم فى تمييز أحدهما عن الآخر عند الالتباس سوى ذكاء الطبع وصفاء القريحة .

الفصل الحادى عشر

وجه الشبه

وجه الشبه : هو المعنى المشترك بين الطرفين ، الجامع لهما فى قصد المتكلم .
ولا بد من وجوده فى الطرفين تحصيلا للفائدة إما تحقيقاً أو تخييلا .

مثال الأول : تشبيه الخد بالتفاح مثلا ، فإن وجه الشبه — وهو النضارة واللون — متقرر فى كل منهما على وجه التحقيق .

ومثال الثانى قول القاضى التنوخى المشهور :

وكأن النجوم بين دجاها   سُنن لاح بينهن ابتداع

فالجامع بينهما : الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة بيض فى جوانب شىء مظلم .

ولا يمكن وجوده فى المشبه به — وهو السنن والابتداع — إلا على طريق التأويل .

فهو قد شبه النجوم بالسنن والجامع حصول النور ، وهو خيالى فى الابتداع .

فإن تجرد الطرفان منه على وجه التحقيق أو التخييل وقع التشبيه مختلا لعدم فائدته .

فإن من حق وجه الشبه شمول الطرفين ، فإذا صادفه صح وإلا فسد [1] .
وذلك كقول القائل :

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

---

(١) المفتاح — ١٨٢ .

فقد خلا من وجه شبه يجمع بين الطرفين ، ويكون غاية منشودة من التشبيه ، وترك السامع فى فراغ لا يستقر فيه على حال ، فكان لغواً من القول لا لغو بعده .

ومن ذلك[١] أن الوجيه ابن الذورى دخل الحمام ومعه ابن وزير الشاعر فقال ابن وزير :

لله يوم بحمام نعمت به والماء ما بيننا من حوضه جارى
كأنه فوق شقات الرخام ضحا ماء يسيل على أبواب قَصّار[٢]

فقال ابن الذورى :

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له فكاد يحرقه من فرط إذكاء
أقام يُعمل أياما قريحته وشبّه الماء بعد الجهد بالماء

ويذكرون أن ابن شرف القيروانى أنشد ابن رشيق قوله :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم فكأننى سبّابة المتندم

ثم قال له : هل سمعت هذا المعنى ؟

قال ابن رشيق سمعته وأخذته أنت وأفسدته !

أما الأخذ فمن النابغة حيث يقول للنعمان بن المنذر معتذراً :

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العرِّ يكوى غيره وهو رانع

وأما الإفساد ، فإن سبابة المتندم أول شىء يتألم منه ، فلا يكون المعاقب غير الجانى .

بخلاف بيت النابغة فإن المكوىّ من الإبل يألم وما به عر ألبتة ، وصاحب العر لا يألم جملة[٣] .

---

(١) وفيات الوفيات للكتبى ـ ١ ـ ١٢٠ . (٢) القصار كشداد : محور الثياب .
(٣) الايضاح ـ ١٥٩ ـ ١٦٠ .

وقد أورد ابن السبكي : أن نسبة الجناية إلى سبابة المتندم فيها نظر ، لأن سبابة المتندم قد لا تكون جانية ، بأن يكون الندم على فعل قلبي أو فعل عضو آخر ، وإنما اتصال الأعضاء ، وجعلها كالشيء الواحد سهـل ذلك[1] .

والحق أن ابن رشيق كان متجنياً على منافسه ومعاصره ابن شرف — والمعاصرة حجاب — فليس فى البيت فساد كما زعم .

ولتقريب ذلك نقول : لنفرض أن إنسانا سفيها سب إنساناً فعوقب على بذاءته ، فعض على سبابته ندما حتى قطعها أو أدماها !

فهنا يصح أن يقال : إن اللسان جنى وأن السبابة عوقبت ، وإن كان العقاب فى الواقع قد حقَّ على صاحب اللسان والسبابة .

وقد جرى الشعراء تخييلا على تصوير الأعضاء تجنى ويؤخذ فيها البرىء بذنب المجرم ، ويعقدون بينها مناظرات غاية فى الإبداع .

فمن ذلك قول ابن الرومى :

وغـزال ترى على وجنتيه ... قَطْر سهميه من دماء القلوب
لهف نفسى لتلك من وجنات ... وَردها ورد شارق مهضوب[2]
أُنهلت صِبغ نفسها ثم عُلَّت ... من دماء القتلى بغـــير ذنوب
جرحته العيون فاقتص منها ... بجوى فى القلوب دامى الندوب

وقول خالد الـكاتب :

أعان طرفى على جسمى وأحشائى ... بنظرة وقفت جسمى على دائى
وكنت غِرّاً بمـا يجنى على بدنى ... لا علم لى أن بعضى بعض أدوائى

وقول ابن أبى فنن :

أدميت بالألحاظ وجنتـــه ... فاقتص ناظره من القلب

---

(١) عروس الأفراح ـ ٣ ـ ٣٣٠ . (٢) المهضوب : المطور .

وقول صَرَّدُرّ :

لواحظنا تجنى ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر
ولم أر أغبي من نفوس عفائف تصدِّق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حُجَّاب قلبه أَذِنَّ على أحشائه للفواقر

وقول الأرَّجانى :

تمتعتما يا مقلتىَّ بنظرة وأوردتما قلبي أشر الموارد
أعينىّ كفًّا عن فؤادى فإنه من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وقول آخر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء ما دام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على خطر
يسُر مقلَته ما ضر مهجته لا مرحباً بسرور جاء بالضرر

وقول آخر :

نظر العيون إلى العيون هو الذى جعل الهلاك إلى الفؤاد سبيلا
ما زالت اللحظات تغزو قلبه حتى تشحَّط بينهنَّ قتيلا

وقول آخر :

يا من يرى سقمى يزيـد م وعلتى أعيت طبيبى
لا تعجبن فهكذا تجنى العيون على القلوب

وقول آخر

يقول قلبي لطرفى إذ بكى جزعا تبكى وأنت الذى حملتنى الوجعا
فقال طرفى له فيما يعاتبه بل أنت حملتنى الآمال والطمعا
حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبه كلاهما بطويل السقم قد قنَعا

نادتهما كبدى لا تعتبا فلقد قطعتمانى بما لاقيتما قطعا

وقول آخر :

عاتبت قلبىَ لمَّا رأيت جسمى عليلا
فألزم القلب طرفى وقال كنت الرسولا
فقال طرفى لقلبى بل أنت كنت الدليلا
فقلت كُفَّا جميعاً تركتمانى قتيلا

وقول شوقى :

مازلت أركب كل صعب فى الهوى حتى ركبت إلى هواك حمامى
وإذا القلوب استرسلت فى غيها كانت بليتها على الأجسام

ومما جاء على لسان النفْس قول أحدهم :

أنا ما بين عدوين م هما قلبى وطرفى
ينظر الطرف ويهوى م القلب والمقصود حتفى

ومن الطرائف قول ابن مدرك — وقد ضمنه مسألة فقهية — :

جرحت بلحظىَ خد الحبيب فما طالب المقلة الماعله
ولكنه اقتص من مهجتى كذاك الدِّيات على العاقله(١)

وهذا قليل من كثير .

ومن اختلال التشبيه لاختلال الجامع بين الطرفين قول ابن وكيع التِّنيسىّ :

وسحاب إذا همى الماء منه ألهب الرعد فى حشاه البروقا
مثل ماء العيون لم يجــــر إلا ظل يُذكى على القلوب حريقا

فإن تقريره أن جريان ماء العيون يذكى حريق القلوب ، لا يصح فى مبنى الطباع ، ولا متعارف العادة .

(١) العاقلة : التى تغرم عن الجانى .

والشعراء من قديم الزمان جروا على عكس ذلك ، فقال امرؤ القيس :

وإن شفائى عبرة مهراقة　　فهل عند رسم دارس من معول

وقال ذو الرمة :

لعل انحدار الدمع يُعقب راحة　　من الوجد أو يشفى نجىّ البلابل

وقال الفرزدق :

فقلت لها إن البكاء لراحة　　به يشتفى من ظن ألا تلاقيا

وقال أبو تمام :

نثرتْ فريد مدامع لم تُنظم　　والدمع يحمل بعض ثِقل المغرم

وقال البحترى :

علَّ ماء الدموع يُخمد ناراً　　من جوى الحب أو يبُل غليلا

وبكاء الديار مما يرد الشو　　ق ذكراً والحبَّ نِضواً ضئيلا

وقال الحسن بن وهب :

ابك فما أكثر نفع البكا　　والحب إشفاق وتعليل

افزع إليه فى ازدحام الجوى　　ففيه مَسلاة وتسهيل

وهو إذا أنت تأملته　　حزن على الخدين محمول

وقال حافظ إبراهيم :

يا من خلقت الدمع لطفاً　　منك بالباكى الحزينْ

بارك لعبدك فى الدمو　　ع فإنها نعم المعين

وقال شاعر عصرى :

هذه الأدمع نستشفى بها　　من جوى الأحزان والأحزانُ داءْ

ربما كانت شفاء عبرةٌ　　لأخى البث إذا عزّ الشفاء

ولم يخالف هذا النهج المسلوك غير أبى تمام فى بعض شطحاته حيث يقول :

أَجدِرْ بجمرة لوعة إطفاؤها　　بالدمع أن تزداد طول وقود

لأنه كما يقول الآمدى(١) : أحبَّ الإغراب فخرج إلى مالا يعرف من كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم .

وقد تبعه على الخطأ تلميذه البحترى فى قوله :

فعلام فيض مدامع تدِق(٢) الجوى وعذاب قلب فى الحسان معذب

وكان خيراً لهما لو سلَكا مسلك ابن دريد فى قوله :

قلب تقطع فاستحال نجيعاً فجرى فصار مع الدموع دموعا
رُدت إلى أحشائه زفـــراته ففضضن منه جوانحاً وضلوعا
عجبا لنار ضُرمت فى صدره فاستنبطت من عينه ينبوعا

وقول العسكرى :

لهيب قلبى أفاض الدمع من بصرى والعود يقطر ماء حين يحترق

فإنهما جعلا الحرقة سببا فى البكاء ، لا أن البكاء يزيد الحرقة ، ولا اعتراض على ذلك لعدم المنافاة بينهما .

على أن هناك فرقا بين قول ابن وكيع ، وقول أبى تمام والبحترى ؛ فابن وكيع يقرر بالتشبيه حكما عاما ، وتقرير الأحكام يجب أن يكون بنجوة من الخطأ والانثلام .

وأما الطائيان فقد ساقا القول مساق المبالغة ، فزعما أن بكاءهما يزيد فى غليلهما ، وهى حالة خاصة بهما لم يدّعياها لغيرهما ، ولا أرسلاها إرسال القواعد المسلمة ، فعيبهما الإفراط والسرف فى الوصف ، وهو خطأ أقل من خطئه .

ويسوقنا ما نحن بسبيله إلى ذكر المثـل : « النحو فى الـكلام كالملح فى الطعام » .

---

(١) الموازنة بين الطائيين ــ ١٨٧ (٢) تدق الجوى : تدنيه .

فان جُعِل الوجه فيه كونُ القليل مصلحا والكثير مفسداً اختل التشبيه . لأن القلة والكثرة إنما تلحظ فى الملح فقط ، فيوضع منه فى الطعام القدر المناسب فيصلحه ، ويجعل فيه ما زاد عليه فيفسده .

وأما النحو فى الكلام فلا يمكن أن يوصف بقلة ولا كثرة ، لأنه لا يوزن ولا يكال وإنما هو ضوابط وأحكام ، إما أن توجد كلها فيصلح بها الكلام ويوصف بالصحة ، وإما أن تتخلف جميعا أو يفقد بعضها فيفسد .

وإذن يكون الوجه المقبول فى المثل المتقدم : كون الاستعمال مصلحا والإهمال مفسداً ، لاشتراكهما فى ذلك دون نظر إلى قلة أو كثرة .

وأما مراعاة القلة والكثرة فلا تتأتى إلا فى مثل قول أبى الفتح البستى :

أَفِدْ طبعك المكدود بالجد راحة ... يَجِمّ وعلّله بشىء من المزح[١]
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يُعطى الطعام من الملح

فإن الملاحظ هنا أن فى استعمال الملح والمزح استعمالا معتدلا على نسبة خاصة ، فيه صلاح للكلام والطعام .

على أن بعضهم فيما يظهر كان يرى التقليل من الإعراب .

فأبو بكر الخُوَارَزى يقول :

والبغض عندى كثرة الإعراب

وأنشد أبو أحمد العسكرى عن الصولى :[٢]

ويعجبنى زى الفتى وجماله ... ويسقط من عينىَّ ساعة يلحن
على أن للإعراب حداً وربما ... سمعت من الإعراب ما ليس يحسن
ولا خير فى اللفظ الكريه استماعُه ... ولا فى قبيح اللفظ والقصدُ زين

---

(١) فى زهر الآداب — ١ — ٢٠٦ :
أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... براح وعلله بشىء من المزح

(٢) ديوان المعانى — ١ — ١٤٨ .

غير أن عبد القاهر أنكر على الخُوارَزمى قوله ، وقال فيه : كلام لا تحصل منه على طائل ، لأن الإعراب لا يقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة .

وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجمل مضموما إلى إعراب تلك ، فهى الكثرة التى لا بد منها ولا صلاح مع تركها ، والخليقُ بالبغض مَن ذمها .

وإن كان أراد نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا　　أبو أمـــه حى أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً ، موضوعا على التأويلات المتكلفة ، فليس ذلك بكثرة وزيادة فى الإعراب ، بل هو أن يكون نقصا له ونقضا أولى ؛ لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما فى نفسه ويبينه ، ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة فى التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب لا لكثرة الإعراب [1]

ويخيل لى : أن المراد بكثرة الإعراب البغيضة إليهم ، هى تعاطى التشادق والتقعر والإغراب كما روى عن أبى علقمة النحوى وغيره ، فإن هذا إن عد إعرابا فهو إعراب مَقيت ، واللحن أخف منه .

أو استعمال الإعراب فى نوادر العوام ومُلَح الحشوة والطَّغام ، وتخيز اللفظ الحسن لها ، وإخراجها من الفم مخرجا سرياً ، فقد قرر الجاحظ : أن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها .

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٥٢ .

وهو لذلك يَستملح اللحن من الجوارى الظِّراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشوابِّ الملاح إذا كان على سجية سكان البلد ، ولم يقع على سبيل التكلف ، كما تستحسن اللثغة من الجارية الحديثة السن ، المقدودة المجدولة .[١]

هذا هو الذى يمكن أن يقال فى بغض كثرة الإعراب ، فأما تجويز اللحن فى الكلام مطلقا فلا يعقل التسليم به ، ولا يظن بمثل الخوارزمى أنه قصد إليه فى قوله :

والبغض عندى كثرة الإعراب

ويقول قدامة : وربما اغتفر فى دهرنا هذا اللحنُ والخطأ للإنسان فى كلامه ، لكثرة اللحن فى الناس وأنه فشا وعظم ، وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب الأعاجم والأقباط وسائر الأجناس ، فأما فى الكتاب فغير مغتفر له ذلك لأن الطرف يتكرر نظره فيه ، والروية تجول فى إصلاحه ، وليس كمثل الكلام الذى يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة ، وقد يستملح اللحن من الجوارى والإماء وذوات الحَداثة من النساء ، لأنه يجرى مجرى الغَرارة منهن وقلة التجربة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وحديث ألَذُّه هو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحنَ أحيـانا وخيرُ الحديث ما كان لحنا

ثم يعود فيقول : ولست أدرى كيف صار اللحن عند هذا الشاعر خير الحديث ، وأظنه أراد أملح الحديث فاضطره الوزن إلى أن جعل فى موضع ذلك : « خير الحديث » .

وقد تأول له بعض الناس فقال : إنما أراد باللحن : الفطنة للمعانى ، ومنه

(١) البيان والتبيين ــ ١ ــ ١٣٤ .

قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إنكم لتتحاكمون الىَّ ولعل أحدَكم ألحنُ بحجته »

يريد أفطن لها .

وما أتى هذا التأويل بشيء ؛ لأن قوله : منطق صائب قد أتى على إصابة المعنى ، فما وجه فطنتها لذلك أحيانا[١] !

فقدامة كما ترى يعد لحن الغريرات من الحديث المليح ، ولكن لا يراه خير الحديث .

وابن الأثير يعد النحو فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة «أبجد» فى تعليم الخط ، وأنه أول ما ينبغى اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربى ليأمن معرة اللحن ، ولكنه ذهب إلى أن الجهل به لا يقدح فى فصاحة ولا بلاغة ولكنه يقدح فى الجاهل به نفسه ، لأنه لا يعد شرطا فى حسن الكلام ، وأن الغرض من الشعر والخطب والرسائل ليس إقامة إعراب الكلمات ، وإنما الغرض أمر وراء ذلك كله .

وقد فند رأيه العلوى : بأن المقاصد وإن كانت مفهومة بالقرائن فى بيان الفاعل والمفعول لكننا نريد مع فهم المعانى بالقرائن الحالية ، أنه لا بد من جريها على القوانين الإعرابية . . . فالزلل فى الجهل باللغة مؤد إلى تحريف الألفاظ وفساد معانيها ، والزلل فى الإعراب يؤذن بفساد المعانى والتباسها . [٣]

ويظهر أن العلوى لم يفهم كلام ابن الأثير ، فابن الأثير لا يستجيز اللحن ولا يستحسنه ولا يغمط حق الإعــــراب ، وإنما يريد ما قاله الأستاذ الشايب بك : من أن هناك قوانين نحوية وبلاغية مقررة يراعيها جميع

---

(١) نقد النثر — ١٤٤ — ١٤٥ . (٢) المثل الثائر — ٥ — ٨ .

(٣) الطراز — ١ — ٢٨ — ٣٠ .

المنشئين ، ولكنها ذات أثر سلبي يحفظ العبارة من الخروج على الأصول البيانية العامة ، أما العبقرية الذاتية والقدرة على تصفية الكلمات والتصرف فى العبارات بما يجعلها مرآة لنفس الأديب، فذلك عمل إيجابي كثيراً ما يحتقر القوانين المحددة .[١]

وصفوة ماتقدم: أن المقيت المذموم هو التملح بجلب الكلمات الغريبة والقصد إلى المعاظلة حبا فى التفاصح ، فأما تجويز اللحن فى الكلام إطلاقا فلا يمكن التسليم به ، ولا يُظَن بمثل الخوارزمى أنه يرى إليه فى قوله :

والبغض عندى كثرة الإعراب .

وقد عرف عن العرب كراهة اللحن والاحتراس منه ، وتهيب التصدى للخطابة خوف الوقوع فيه .

ويكفى فى بيان قبحه قول مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل يسألنى الحاجة فتستجيب نفسى له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها[٣] .

وقول قدامة : اللحن ما خالف اللغة العربية ، وخرج عن استعمال أهلها وما بنى عليه إعرابها ، وهو معيب عند الأدباء فى الجملة ، وعلى من يأخذ نفسه بالإعراب ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب[٤] .

---

(١) أصول النقد الأدبي ــ ٢٥٤ .

(٢) طراز المجالس ــ ٦٧ . (٣) نقد النثر ــ ١٤٤ .

الفصل الثانى عشر

أقسام وجه الشبه

ينقسم وجه الشبه إلى ثلاثة أقسام :

ا — وجه مفرد :

والمراد به ما يعد فى العرف واحداً ، لا الذى لا جزء له أصلا .

وذلك كالحمرة فى تشبيه الخد بالورد مثلا ، فإنها تشتمل على مطلق اللونية والقبض للبصر ، ولكنها مع ذلك تعد وجها واحداً .

وهذا الوجه المفرد قد يكون حسياً ، وفى هذه الحال لا يكون الطرفان إلا حسيين .

كقول بشار :

كأن فؤاده كرة تَنزى ... حِذار البين لو نفع الحِذار

وقول المعرى :

وسهيل كوجنة الحِبِّ فى اللو ... ن وقلب المحب فى الخفقان

وقول ابن رافع الجزرى :

انظر إلى الجزر البديع كأنه ... فى حسنه قُضب من المرجان

أوراقه كزبرجد فى لونها ... وقلوبه صيغت من العقيان

وقول آخر فى الموز :

موز حلا فكأنه ... عسل ولكن غير جارى

ذو باطن مثل الأقا ... ح وظاهر مثل النضار

يحكى إذا قشرته ... أنياب أفيال صغار

وقد يكون عقلياً ، ويجوز حينئذ أن يكون الطرفان حسيين

كقول مسلم ابن الوليد يمدح يزيد بن مزيد الشيباني :

كالليث بل مثله الليث الهصور إذا غنى الحديد غناء غيرَ تغريد

وقول العباس بن جرير :

إن الصديق هو الذى يرعاك حين تغيب عنه
مثل الحسام إذا انتضاه أخو الحفيظة لم يخنه

وقول أبي الفتح البستى :

أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكام

أو عقليين :

كقول البحترى :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصبابة ليس البلاء بواحد

وقول جَحظة البرمكى :

ورَقَّ الجو حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمان

وقول المتنبي :

مُمَثَّلة حتى كأنْ لم تفارقى وحتى كأنَّ اليأس من وصلك الوعد

وقول السرى الرفاء :

بنفسى من أجود له بنفسى ويبخل بالتحية والسلام
وحتفى كامن فى مقلتيه كمون الموت فى حد الحسام

وقول شوقى :

تَرْك النفوس بلا علم ولا أدب ترك الجسوم بلا طب ولا آسى

وقول زكى مبارك :

حزن يقطِّع فى الحشا فكأنه غدر الصديق

أو المشبه معقول والمشبه به محسوس :

كقول العسكرى :

خلق كنشر الروض طُلَّ نباته ... أو مثل صرف الراح فضَّ ختامه

وقول ابن سينا :

إنما النفس كالزجاجة والعلـ ... ـم سراج وحكمة الله زيت

وقول الصابى:

والعمر مثل الكأس يرْ ... سُب فى أواخرها القذى

ومن طرائف ذلك : أن أبا دلف كتب إلى عبد الله بن طاهر :

أرى ودكم كالورد ليس بدائم ... ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

وحبى لكم كالآس حسنا ونضرة ... له زهرة تبقى إذا فنىَ الورد (١)

فأجابه ابن طاهر :

وشبهتَ ودى الوردَ وهو شبيهُه ... وهل زهرة إلا وسيدها الورد

وودك كالآس المرير مذاقُه ... وليس له فى الطيب قبلٌ ولا بعد

ومن تشبيه المعقول ، بالمعقول والمحسوس معاً ، قول ابن هانىء الأندلسى — يصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها — :

لو كف عنها الدهر صرفَ الدهر ... جاءت كمثل النهد فوق الصدر

تفتر عن مثل اللِّثات الحمر ... فى مثل طعم الوصل بعد الهجر

وقول المتنبي :

كأن المعانى فى فصاحة لفظها ... نجوم الثريا أو خلائقك الزُّهر

وقول حافظ فى الأستاذ الإمام :

خشع البحر إذ ركبت جواريه ... م خشوع القلوب يوم الحساب

---

(١) الآس : يضرب به المثل فى دوام الود لخضرته ، قال أبو حنيفة الدينورى : الآس بأرض العرب كثير ينبت فى السهل والجبل وخضرته دائمة ، وينمو حتى يكون شجراً عظاما ، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة وثمرته سوداء إذا أينعت تحلو وفيها مع ذلك علقمة .

وبدا ماؤه كخاطرك المصقول م أو كالفِرند أو كالسراب

أو المشبه محسوس والمشبه به معقول :

كقول أبي تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابة بالمحب المغرم

وقول عبد العزيز الجرجانى :

مَن عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحى ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالمدنف الهائم

وقول آخر :

كأن بياض غُرته رشاد كأن سواد طُرّته ضلال

٢ — ومنه مركب :

وهو المركب تركيبا اعتباريا يجعله بمنزلة الواحد ، بأن يكون حقيقة ملتئمة ، كقول ابن وكيع التِّنِّيسى فى البلح :

كأنه والعيون تنظره إذا بدا زهره على القضب
مكاحل من زمرد خرطت مقَمَّعات الرءوس بالذهب

أو يكون أوصافا مقصوداً من مجموعها إلى هيئة واحدة ، كقول أبي طالب الرَّقى :

وكأن أجرام السماء لوامعاً دررٌ نُثرن على بساط أزرق

وهو إما مركب حسى وطرفاه مفردان ، كقول أحيحة بن الجُلاح ، أو قيس بن الأسلت :

وقد لاح فى الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نورا

والوجه الهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض الصغار المقادير فى مرأى العين وإن كانت كباراً فى الحقيقة ، على الكيفية المخصوصة ، منضمة إلى المقدار المخصوص .

والمراد بالكيفية المخصوصة : أنها لا مجتمعة اجتماع التضام والتلاصق ولا هى شديدة الافتراق ، بل لها كيفية مخصوصة من التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما نجده فى رأى العين بين تلك الأنجم .

والطرفان المفردان : هما الثريا والعنقود ، ولا عبرة بتقييدهما لأن التقييد لا ينافى الإفراد .

أو طرفاه مركبان .

كقول البحترى فى شقائق النعمان :

شقائق يحملن الندى فكأنه ... دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقول ابن المعتز فى النَّارَنج :

كأنما النارنج لما بدت ... صفرته فى حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً ... فاصفر ثم احمر خوف الرقيب

وقول أبى الحسن الصقلى فيه :

ونارنجة بين الرياض نظرتها ... على غصن رطب كهامة أغيد
إذا ميَّلتها الريح مالت كأكرة ... بدت ذهباً فى صَولجان زُمرُّد

وقول محمد بن القاسم العلوى فى الطلع :

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه ... فيا حسنه فى لونه حين هُتِّكَا
حكى صدر خود من بنى الروم هزها ... سماع فشقت عنه ثوباً ممسكا

أو مختلفان والمشبه مفرد والمشبه به مركب ، كقول عدى بن الرقاع :

تزجى أغنَّ كأن إبرة رَوقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها

وكقول محمد بن قيس فى الورد الأبيض :

جاءت بورد أبيض ... شبهته عند العيان
بمداهن من فضة ... فيها بقايا زعفران

وقول آخر فى الورد الأسود :

وورد أسود خلناه لما تنشَّق نشرَه ملكُ الزمان
مداهن عنبر غضٍّ وفيها بقايا من سحيق الزعفران

وقول الصنوبرى فى النيلوفر :

كأنما باسط اليد نحو نيلوفرٍ نَدِى
كدبابيس عسجد قُضبها من زبرجد

أو المشبه به مركب والمشبه مفرد ، كقول أبى تمام :

يا صاحبيَّ تَقصَّيا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تَصوَّر
تريا نهارا مُشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر

وهذا النوع عزيز جداً ، ويقول العلوى : إنه لم يجد له مثالا فى القرآن الكريم لقلته وغرابته ، وهو موجود فى الشعر على جهة الندرة[1].

أو مركب عقلى ، كقول أبى تمام :

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وجه الشبه : صورة قوة عاتية مؤثرة يمازجها ضعف ولين وتكسر .

وقول أبى الفضل الميكالى :

كم والد يحرم أولاده وخيرهُ يحظى به الأبعد
كالعين لا تنظر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجه الشبه : حرمان الأقرب المستحق ، ونيل الأبعد الذى لا يستحق :

وقول سلطان بلنسية عبد الملك بن مروان الأندلسى :

ولا غروَ بعدى أن يسوَّد معشر فيضحى لهم يوم وليس لهم أمس
كذاك نجوم الجو تبدو زواهرا إذا ما توارت فى مغاربها الشمس

وجه الشبه : سيادة الدهماء بفقد العظماء :

وقول آخر :

(١) الطراز — ٣ — ٣٣٤ .

لئن بسط الزمان يدىْ لئيم فصبرا للذى فعل الزمان
فقد تعلو على الرأس الذُّنابى كما يعلو على النار الدخان

وجه الشبه : ارتفاع السفلة واستفال العلية .

٣ — وجه شبه متعدد

وهو ما ليس واحداً ولا منزلا منزلة الواحد .

وذلك أن يذكر فى التشبيه عدد من أوجه الشبه : شيئين أو أشياء على على وجه الاستقلال ، فلا يتقيد بعضها ببعض ، بل كل واحد منفرد بنفسه .

مثال المتعدد الحسى قول البحترى يصف جواداً :

مثل الغراب بدا يبارِى صحبه بسواد صبغته وحسن قوامه

ومثال المتعدد العقلى قول ابن الرومى :

كالدهر فى النفع والمضرة والحُنكة م لكنَّ ريبَه غضبُهُ

وقول المتنبى :

فتى كالسحاب الجون يُخشى ويُرتجى يُرجَّى الحيا منها وتُخشى الصواعق(١)

ومثال المتعدد المختلف قول شاعر :

همُ الأسد بأسا فى اللقاء وأوجها إذا غضبوا والسَّمهرية غِيلها

والفرق بين التعدد فى الوجه والتركيب فيه :

أن الأول لا يجب فيه الترتيب ، فيجوز تقديم بعضه على بعض .

تقول : محمد كالغيث فى النفع والضرر ، أو فى الضرر والنفع .

وثانيا أنه إذا أسقط بعضه لا يختل التشبيه ولا يتغير حال الباقى .

فمثلا فى قول ابن رشيق :

وتفاحة من كف ظبى أخذتها جناها من الغصن الذى مثل قده
حكت لمس نهديه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحمرة خده

---

(١) الجون بضم الجيم : جمع جون بفتحها ، السود والبيض ، والمراد هنا السود .

يمكن الاكتفاء بالحمرة ، أو بالحمرة وطيب الرائحة ، ويظل التشبيه بعد هذا حافظا لقيمته ، وإن كان الاستقصاء أروع وأدق .

ومثل هذا يقال فى وصف أندلسى للسفرجل :

سفرجلة جمعت أربعاً   نظمن لها كل معنى عجيب
صفاء النضار وطعم المُقار   ولون المحب وريح الحبيب

وقول أبى القاسم العطار :

وبى غزال إذا صادفت غِرّته   جنيت من وجنتيه روضة أُنُفا[١]
كالبدر مكتملا كالظبى ملتفتا   كالروض مبتسماً كالغصن منعطفا

بخلاف المركب كقول السرى الرفاء فى وصف القلم :

أخرس يُنبيك بإطراقه   عن كل ما شئت من الأمر
يُذرى على قرطاسه دمعةً   تُبدى لنا السر وما يدرى
كعاشق أخفى هواه وقد   نمّت عليه عبرة تجرى

فإنه لو أسقط منه جزء مما اعتبرت فيه الهيئة بطل التشبيه فى قصد المتكلم لأنها صورة روعى فيها أن تكون تامة التأليف كاملة الأجزاء ، يسودها التناسب والانسجام والتنسيق .

وفى هذا يقول الزمخشرى : والعرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض فتشبهها بنظائرها ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بآخر مثلها .[٢]

هذا هو التقسيم المأثور لدى البلغاء .

وقد قسمه الفيومى تقسيما آخر باعتبار آخر ، فقال : إن الصفة التى هى وجه الشبه ذاتية ومعنوية :

فالذاتية : نحو هذا الدرهم كهذا الدرهم ، وهذا السواد كهذا السواد .

---

(١) الغرة بالكسر : الغفلة .
(١) حاشية المرشدى — ٢٤

والمعنوية : نحو زيد كالأسد ، أو كالحمار : أى فى شدته وبلادته ، وزيد كعمرو : أى فى قدرته وكرمه وشبهه .

وقد يكون مجازا : نحو الثابت كالمعدوم ، والثوب كالدرهم : أى قيمة هذا الثوب تعادل قيمة الدرهم فى قدره[1].

ومما تقدم نعلم أن فى تشبيه المحسوس بالمحسوس يأتى وجه الشبه على ثلاثة أضرب :

١ — أن يكون محسوسا كالوجه والصبح فى الإشراق .

٢ — أن يكون معقولا كالعالم والنجم فى الهداية .

٣ — أن يكون محسوسا ومعقولا كالجبل والبدر فى الجمال وعلو المنزلة .

غير أنه إذا كان وجه الشبه محسوسا كله أو بعضه سواء أكان واحداً أومركباً أومتعددا ، فلا بد أن يكون الطرفان حسيين لامتناع أن يدرك بالحس شيء من غير الحس .

أما فى تشبيه المعقول بالمعقول كالشباب والجنون فى التهور والطيش .

والمعقول بالمحسوس كالشوق والنار فى الإحراق .

والمحسوس بالمعقول كالمسك والثناء الحسن ، فإن وجه الشبه يكون عقلياً فقط ، لأنه مشترك بين الطرفين ، فلو أمكن أن يجيء محسوسا فى هذه الحال ، لكان المعقول الموصوف به محسوسا من ذلك الوجه وهو محال بخلاف مجيء المعقول من الطرفين الحسيين ، لجواز أن يدرك بالعقل شيء من الحس .

ومن هنا يثبت أن التشبيه بالوصف المعقول أعم من التشبيه بالوصف المحسوس ، وأن التشبيه بالوصف المحسوس أتم من التشبيه بالوصف المعقول لأمور منها :

---

(٢) المصباح المنير . مادة « شبه » .

١ — أن أكثر الغرض من التشبيه : التخييلُ الذى يقوم مقام التصديق والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة .

٢ — أن المشابهة فى الصفة قد تبلغ إلى حيث يتوهم أن أحد الطرفين هو الآخر كالخد والورد ، ولكن ما يتعلق بالصفة لا يبلغ إلى هذا الحد فإن من المستحيل ألا يفرق العاقل بين ذوق العسل فى نفس الذائق ، وبين ما يحدث بالكلام المقبول فى نفس السـامع من الارتياح فى تشبيه الكلام بالعسل .

وفى هذا يقول السكاكى [١] : وهنا نكتة لا بد من التنبه لها ، وهى أن التحقيق فى وجه الشبه يأبى أن يكون غير عقلى .

يريد أن وجه الشبه أمر كلى مأخوذ من المثلين بتجريدها عن التعين ، وما كان هذا شأنه فهو أمر عقلى .

ويقول الخطيب : يمكن أن يقال : المراد بكونه حسيا أن تكون أفراده مدركة بالحس كالسواد ، فإن أفراده مدركة بالبصر وإن كان هو فى نفسه غير مدرك به ولا بغيره من الحس .

وهذا فى الحقيقة تسليم لكلام السكاكى واعتراف بأن وجه الشبه عقلى ، غير أنه يسمى حسيا [٢].

ولا بد فى وجه الشبه من زيادة اختصاص بالمشبه به ، كالشجاعة مثلا فى تشبيه زيد بالأسد ، فكلاهما يشتركان فى الحيوانية والجسمية والوجود وغير ذلك ، ولكن شيئا منها لا يسمى وجه تشبيه .

وقد اشترط بعضهم أن يكون اشتراك الطرفين فى صفة ظاهرة ، وفيه

---

(١) المفتاح — ١٧٩ (٢) الإيضاح — ١٦١

(٣) عروس الأفراح — ٣ — ٣٥٣ (٤) أسرار البلاغة — ٢٣٧

نظر إذ لا مانع من التشبيه فى صفة خفية على شريطة بيان وجه الشبه بها ، كقولك : رأيت رجلا كالأسد فى البَخر .[١]

والممتنع هو الخفاء فى العلاقة .

وخير التشبيه عند عبد القاهر[٤] ما جمع معنيين ، كقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسن م وفى بعـد المنال

جُد فقد تنفجر الصخرة م بالمـاء الزلال

فوجه الشبه مؤلف من معنى الحسن وبعد المنال .

ولا يخلو ما به المشابهة من أن يكون :

١ — صفة حقيقية ، وهى الكيفيات الجسمانية محسوسة أو غير محسوسة كالألوان والأصوات والمذوقات والأشكال والمقادير والحركات والصلابة والرخاوة ، أو الكيفيات النفسانية كالغرائز والأخلاق .

٢ — أو حالا إضافية كقولك : هذه حجة كالشمس .

فاشتراكهما ليس فى شىء من الكيفيات الحقيقية ، كالحمرة فى الورد والخد ولكنه أمر إضافى ، وهو أن كلا منهما مزيل كاشف للغطاء .

وهذه الحالات الإضافية قد تكون واضحة حتى تقرب من الكيفيات الحقيقية ، كما فى تشبيه الكلام بالعسل فى حلاوته .

وقد يكون بعيداً يحتاج إلى تأويل كتشبيه المستويين فى الفضل بالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

فلا يتصور المقصود من ذلك إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة .

(١) يوصف الأسد بالبخر لقلة ريقه كما يقولون .

الفصل الثالث عشر

مراعاة جهة التشبيه

حينما يوقع المتكلم تشبيها بين شيئين ، يراعى معنى خاصا قُصد إشراك الطرفين فيه .

فليس مراداً له الاتفاق فى جميع الوجوه ، لأن ذلك يقضى بعدم التعدد فيصبح الطرفان شيئا واحداً عبر عنه بعبارتين ، إذ تشبيه الشىء لا يكون إلا وصفا له بمشاركته المشبه به فى أمر من الأمور ، وإلا لو كان نفس المشبه به لكان من قبيل الترادف أو الاشتراك .

كذلك ليس مراداً له الاختلاف فى جميع الصفات ، لأنه لا يمكن التشبيه مع التخالف التام لفقد الجامع بينهما ، والتشبيه فى جوهره ربط وتأليف .

لذلك كان لا بد من الاختلاف فى بعض الجهة ، والاشتراك فى بعضها ، لأن الاشتراك من جميع الوجوه أو الاختلاف من جميع الوجوه لا يتسنى به تشبيه .

وقد شرح قدامة ذلك بقوله : إنه من الأمور المعلومة أن الشىء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير ألبتة ، اتحدا فصار الاثنان واحداً ، فبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها [1] .

---

(١) نقد الشعر — ٦٥

ومن ثم كان الواجب مراعاة جهة التشبيه مراعاة تامة، لأنها عنوان الدقة، ومظهر الإصابة، وتجلى الذوق السليم والمنطق المستقيم، والنظر العميق النافذ إلى صميم الأشياء، ودليل القدرة على المقارنة المستوعبة، وإصدار الأحكام العادلة المتزنة.

ولا يبعد من يقول: إن مراعاة الجهة هى ميزان التشبيه، بها يحكم له أو عليه، وأن سر ارتياحنا للتشبيه أو انقباضنا عنه، ترجع إلى مبلغ حظه منها قوة وضعفا.

وهذا عبد القاهر يقول: إن من حق العاقل ألا يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولا سيما فى العقليات [1].

وذهب قدامة إلى أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها، حتى يدنى بها إلى حال الاتحاد.

ومما أورده فى ذلك قول يزيد بن الطثرية [2] يصف رأسه قبل حلقه وبعده [3].

فأصبح رأسى كالصُّخيرة أشرفت ... عليها عُقاب ثم طارت عقابها

فالحسن فى تشبيه الرأس بالصخرة أنه قريب منها فى الضخامة والملاسة واللون المائل إلى خضرة [3].

وقد ألح على هذا المعنى، فقال فى نعت الوصف [4]: والوصف إنما هو ذكر الشىء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى، كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها

---

(١) أسرار البلاغة — ٥٣.

(٢) شاعر غزل ظريف كان يتعرض للنساء فعاقبه أخوه بحلق رأسه وكان حسن الشعر.

(٣) نقد الشعر — ٦٥ — ٦٨. (٤) المصدر السابق — ٧١ — ٧٢.

حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته ، كقول رجل من هذيل يصف حال القوم فى الحرب عند الجلاد :

كغماغم الثيران بينهم ضرب تغمض دونه الحدق (١)

وكقول معاوية بن خليل النصرى — يصف نباهة قومه وأنهم أشهر من حى آخر — :

فنحن الثريا وعيوقها ونحن السماكان والمرزم (٢)
وأنتم كواكب مجهولة ترى فى السماء ولا تعلم

وكقول عبد الرحمن القس — يصف إصغاء السامعين إلى غناء «سلامة» : —

إذا ما عج مزهرها إليها وعاجت نحوه أذناً كرام
فأصغوا نحوها الأسماع حتى كأنهم — وما ناموا — نيام

ورأيى أن جودة التشبيه لا تتوقف على كثرة الاشتراك فى الصفات ، فقد لا تكون هناك صفات متعددة تقضى بهذا الاشتراك ، وإنما المهم هو إصابة جهة الاشتراك وقد تكون هذه الجهة معنى واحداً .

ونحن نرى كثيراً من التشبيهات تخلو من المعانى المتعددة ، ولكنها بالغة الغاية فى الدقة والإصابة ، كقول أشجع السلمى فى مدح جعفر البرمكى :

بديهته مثل تفكيره متى رمته فهو مستجمع

وقول أبى العيناء :

إنى لأعجب بل فعالك أعجب من طول ترددى إليك وتهرب
وتقول لى قولا أظنك صادقا فأجىء من طمع إليك وتكذب
فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالوا مسيلمة وهذا أشعب

---

(١) الغماغم : الأصوات جمع غمغمة .
(٢) العيوق : نجم أحمر مضىء فى طرف المجرة الأيمن . والمرزم : نجم .

وقول المتنبي :

كريم لفظت الناس لما بلغته　　　كأنهم ما جفّ من زاد قادم

وقول بعضهم يهجو رجلا برثاثة الحال :

يأتيك في جبة مخرّقة　　　أطول أعمار مثلها يوم

وطيلسان كالآل يلبَسه　　　على قميص كأنه غيم

وقول أبي الفتح البستي :

كأنه فرس الشِّطرنج ليس له　　　في ظل رابطه ماء ولا علَف

وقول آخر :

من كانت الدنيا له ثروة　　　فنحن من نظّارة الدنيا

نرمُقها من كَثَب حسرة　　　كأننا لفظ بلا معنى

وقول آخر :

كأن بلاد الله وهي عريضة　　　على الخائف المذعور كِفّة حابل

وقول شوقي :

والفردُ يؤمن شره في قبره　　　كالسيف نام الشر خلف قِرابه

فهذه التشبيهات لا ترد روعتها إلى كثرة الاشتراك في صفات متعددة ولكن إلى إصابة جهة التشبيه وإن كانت جهة واحدة .

نعم إن كان شيء يشبه شيئين ، وكان أحدهما أغنى من الآخر بجهات الشبه فلا مرية أن يكون أولى بالتشبيه .

ولعل ذلك ما يقصده قدامة من قوله المتقدم .

ومن هذا تشبيه الأقحوان بالثغور فقد أكثر الشعراء منه ، وإن كان تشبيههم الثغور به أكثر ، كقول ظافر الحداد — وهو من النوع الجيد — :

والأُقحوانة تحكي ثغر غانية　　　تبسمت عنه من عُجب ومن عَجب

فى قد والبرد والريق الشهى وطيب م الريح واللون والتفليج والشَّنَب[١]
كشَمْسة من لجين فى زبرجدة قد شُرِّفت حول مسمار من الذهب[٢]

ويقول آخر :

والأقحوانة تُجلى وهى ضاحكة عن واضح غير ذى ظَلْم ولا شنب
كأنها شمسة من فضة حُرست خوف الوقوع بمسمار من الذهب

وهذا والذى قبله — كما يقول النويرى — من بديع التشبيه ، وهو أجود من تشبيهها بالثغور وأصنع ، فإنها لا تشبه بالثغر حقيقة إلا من وجه واحد ، وهذا قد شبهها ووصفها بجميع صفاتها وهيئاتها .[٣]

فإذا كانت الجهات كثيرة كان من الحق أن يستوعبها المنشىء كلها إن كان الإطار العام للتشبيه لا يتم إلا بها .

كقول الحسن بن وهب :

بأبى كرهتِ النار لما أوقدت فعرفت ما معناك فى إبعادها
هى ضَرة لك بالتماع ضيائها وبحسن صورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بسَيالها وأراكها وعَرادها[٤]
شرِكتك فى كل الأمور بحسنها وضيائها وصلاحها وفسادها

وقول الصاحب بن عباد :

وشمعــــة قدمت إلينا تجمع أوصاف كل حب
صفرة لون وذوب جسم وفيض دمع وحر قلب

---

(١) التفليج : التباعد ما بين الأسنان .
(٢) الشمسة : يريد بها القطعة المدورة على هيئة الشمس .
(٣) نهاية الأرب — ١١ — ٢٨٩ .
(٤) السيال : نبات له شوك أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن ، والعراد : نبت .

وقول أبي الفتح البستي :

فتى جمع العلياء علما وعفة وبأساً وجوداً لا يَفيق فُواقا [١]
كما جمع التفاح حسنا ونَضرة ورائحة محبوبة ومذاقا

وقول التهامي :

يحكى جنى الأُقحوان الغض مبسمُها في اللون والريح والتفليج والأُشُر [٢]

وقول ابن الخلّال في وصف الشمعة :

وصحيحة بيضاء تطلُع في الدجى صبحا وتَشفي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوانَ شبابها واسودّ مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها

وقول ابن القارح — وقد جمع في بيت واحد أوصاف الشمعة السبعة: [٣]

لقد أشبهتني شمعة في صبابتي وفي هول ما ألقى وما أتوقع
نحول وحرق في فناء ووحدة وتسهيد عين واصفرار وأدمع

فهذه الأشعار روعي فيها استيفاء جهات التشبيه المتعددة ؛ لأن غرض الشاعر كان الاستقصاء ، فكان لا بد من الإتيان بها .

ولكن هذا ليس بلازم حتم ، بل ليس بمستملح دائما ، فليس مطلوبا من الشاعر أن يشرح ويفسر ويتتبع الأجزاء الصغيرة ، لأن هذه نظرة العالم لا الأديب ، وإنما يراد منه أن يصور لنا أهم الأجزاء ، ويجلو علينا ما حاك في صدره ، لنشاركه في تجربته .

فالشعر والرسم لمحات دالة على النواحي الكلية القيمة الممتازة ، والفن

---

(١) لا يفيق فواقا : لا يستريح من العمل قدر فواق الناقة ، وهو الوقت الذي بين الحلبتين ، أو هو ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع .

(٢) الأشر : بضمتين وضم وفتح : تحزيز في الأسنان خلقة وصناعة .

(٣) رسائل البلغاء — ٢٠٩ « جمع الأستاذ كرد علي » .

الأصيل يأبى الإفاضة والتفسير ويعفى نفسه من التفاصيل الفرعية .

فالشأن — كما يقول المبرد — : واعلم أن للتشبيه حداً ، فالأشياء تَشابه من وجوه وتَباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرونق ، ولا يراد العظم والإحراق . والعرب : تشبه النساء بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها ، قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا رَيْث ولا عَجل

فهذا ما تلحق العين منها ، فأما الخفة فهى كأسرع مار .

والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة ، وإنما تقصد من كل شىء إلى شىء .[1]

ويقول العسكرى : ويصح تشبيه الشىء بالشىء جملة وإن شابهه من وجه واحد مثل قولك : وجه مثل الشمس ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما فى ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما ، وإنما شبهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن . وعلى هذا قول الله — عز وجل — « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » .

إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشىء الشىء من جميع جهاته لكان هو هو[2] .

فليس كل شىء يشبَّه بشىء يقع التشبيه به من جميع الجهات حتى لا يغادر منها شىء ، وقد يكون إنما شبه ببعض ما فيه لا بكله[3] .

والسِّنَّور يوصف بصفة الأسد إذا أرادوا به الصـــورة والأعضاء والوثوب والتخلُّع فى المشى ، وقد يكون فى الشىء بعض الشبه من شىء ولا يكون ذلك مخرجاً لهما من أحكامهما[4] .

---

(١) الكامل « شرح المرصفى » — ٦ — ١٧٧ . (٢) الصناعتين — ٢٢٦ .
(٣) الموازنة للآمدى — ٢٧٦ . (٤) الحيوان — ٥ — ٨٤ .

وقد جرت عادة الناس أن يقولوا : فلانة أحسن من الطاوس ، وما هى إلا طاوس ، وقول الشاعر :

خدودها مثل طواويس الذهب

مع أن الفرس الرائع الكريم أحسن من كل طاوس فى الدنيا .

وكذلك الرجل والمرأة ، وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه وألوانها .... ولم يذهبوا إلى أعضائه وجوارحه .

وكما يقول جعفر بن سعيد : إن الديك أحسن من الطاوس وأنه مع حسنه وانتصابه وتقلعه[1] إذا مشى ، سليم من مقابح الطاوس ومُوقه[2] وقبح صوته ، وتشاؤم أهل الدار به ، ومن قبح رجليه ونذالته[3] .

ويقول ابن رشيق : ألا ترى أن قولهم : خد كالورد إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ماسوى ذلك من صفرة وسطه ، وخضرة كمائمه .

وكذلك قولهم : فلان كالبحر وكالليث إنما يريدون كالبحر سماحة وعلما وكالليث شجاعة وقرَما ، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته ، ولا شتامة الليث وزهومته ؛ فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أم اتفقت ، فقد يشبهون الشيء بسميّه ونظيره من غير جنسه ؛ كقولهم : عين كعين المهاة ، وجيد كجيد الرئم ، فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمهاة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الإنسان والريم والكاف للمقاربة ، وإنما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المهاة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الرئم .

ألا ترى أن الأصمعى سئل عن الحور ، فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ولا حور فى الإنسان .

---

(١) التقلع : القفز والخفة فى الوثب .

(٢) الموق بالضم : الحمق .

(٣) ثمار القلوب ــ ٣٧٣ .

هذا أحد أقوال الأصمعى فى الحور ، وهو يدلك على أن التشبيه إنما هو بالمقاربة كما قلنا[١].

وفى ظل هذا القانون يمكنك أن توازن بين قول ابن الرومى فى النيلوفر :

وكأنه إذ غاب عند مسائه ... فى الماء فاحتجبت نضارة قده
صب يهدده الحبيب بهجره ... ظلماً فغرّق نفسه من وجده

وقول السرى الرفاء فيه :

يا حسن نيلوفر شُغفت به ... يمنحه الماء صفو مشروبه
كأنه عاشق به ظمأ ... توهَّم الماء ريق محبوبه

فابن الرومى تخيل النيلوفر صباً تهدّده الحبيب بالهجر ظالماً له ، فأمات نفسه غرقا فراراً مما هو أشد من الموت !

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرا ... ملامكما فالهجر أعفى وأيسر

وهذه النظرة السوداء الانتحارية تتفق مع مزاج ابن الرومى المتشائم !

وتخيل الرفاء أن النيلوفر عاشق أيضا ، وأن هذا العاشق اعتراه ظمأ فرأى ماء توهمه رضاب محبوبه ، فأكب عليه يكرع منه ويعب ولا يروى ؛ لأن ريق المحبوب يزيد فى وقدة الوجد :

ترشفت فاها سحرة فكأننى ... ترشفت حر الوجد من بارد الظَّلْم

فأنت ترى أن كلا الشاعرين شبه النيلوفر بالمحب الهائم المتيم ، وكلاهما التمس العلة فى شغف النيلوفر بالماء والتصاقه به فأحسن التعليل ، ولكن وجهة نظرهما اختلفت باختلاف مزاجهما وخيالها والزاوية التى آثر كل منهما أن ينحاز إليها ، وهى لا تعدو معنى جزئيا خاصا .

ومما وقع موقعه من دقة المراعاة لوجه الشبه قول أوس بن حجر — .

---

(١) العمدة — ١ — ١٩٤ — ١٩٥ .

يشبّه ارتفاع الأصوات فى الحرب تارة ، وهمودها وانقطاعها تارة أخرى ، بصوت الفتاة البكر تجاهد أمر الولادة :

لها صرخة ثم إسكاتة كما طرّقت بنفاس بِكرْ

فلم يرد الشاعر فى هذا الموضع نفس الصوت ، وإنما أراد حاله فى أزمان مقاطع الصرخات ، وإذا نظر فى ذلك وجد الذى وفق بين الصوتين واحداً وهو مجاهدة المشقة ، والاستعانة على الألم بالتبديد فى الصرخة(٢).

ولعلقمة — أنشده المبرد يشبّه الظليم فى حركة جناحيه مع إرسالهما بالخباء المقوض — :

صَعْل كأن جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاءُ مهجوم(٣)

اشترط أن تتعاطى تقويضه خرقاء ؛ ليكون أشد لتفاوت حركاته وخروج اضطرابه عن الوزن(٤) .

وقول الشّماخ فى العُقاب :

تلوذ ثعالب الشَّرَفيْن منها كما لاذ الغريم من التبيع

وقد يختلف اللّوَذان بحسب اختلاف اللائذين ، فأما التبيع فهو ملحّ فى طلب الغريم لفائدة يرومها منه ، والغريم بحسب ذلك يجتهد فى الروغان وفى اللواذ خوفا من مكروه يلحقه .

---

(١) التطريق : قرب الولادة . (٢) نقد النثر — ٦٦ .

(٣) الصعل : الدقيق الرأس ، والجؤجؤ : الصدر ، والخرقاء : المرأة الحمقاء ، والريح المختلفة الهبوب لا تدوم على جهة واحدة ، والمهجوم : الذى حلت أطنابه .

(٤) أسرار البلاغة — ١٧٦ .

(٥) الشرفين : مثنى شرف وهو ما ارتفع من الأرض ، والغريم : الدائن والمدين والمراد هنا الثانى ، والتبيع : صاحب الدين .

وكذلك الثعلب والعقاب سواء ، لأن العقاب ترجو شبعتها والثعلب يخاف موته .

وقول ابن أحمر الباهلى – يصف قلب الفرس عند الحركة السريعة –:

وفؤاده زَجِلٌ كعُـرف الهدهد

فتواتر نبض قلب الفرس إذا تحرك قريب الشبه من تواتر حـــركة عرف الهدهد .[1]

وقول عمرو بن معد يكرب :

ولما رأيت الخيل زُوراً كأنها جداول زرع أُرسلت فاسبطرَّت[2]

فجاشت إلىَّ النفسُ أولَ مرة فرُدت على مكروهها فاستقرت[3]

يقول : لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن وقد خلوا عنهم دوابهم وأرسلوها علينا كأنها جداول زرع أرسلت مياهها فامتدت . . . .

والتشبيه وقع على جرى الماء فى الأنهار لا على الأنهار ، فكأنه شبه الخيل فى انحرافها عند الطعن بامتداد الماء فى الأنهار ، وهو يطَّرد ملتويا ومضطربا .

وهو تشبيه بديع .[4]

وقول قيس بن الخطيم :

فرأيت مثل الشمس عند طلوعها فى الحسن أو كدنوها الغروب

وإنما نص على ذلك ؛ لأن الشمس عند طلوعها وعند غروبها يمكن النظر إليها ويمكن التشبيه .

---

(١) نقد الشعر – ٦٦ – ٦٧ .

(٢) زور : جمع أزور وهو المعوج الزور بالفتح : أى الصدر ، والمراد : مائلات ، واسبطرت : امتدت .

(٣) جاشت : ارتفعت من الفزع .

(٤) خزانة الأدب للبغدادى – ٢ – ٣٨١ – ٣٨٢ .

وأما قول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس

فإنها تعني : أنها تذكره أول النهار للغارة وآخره للأضياف .

وقول الطِّرِمَّاح في وصف الثور هارباً من الكلاب :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سيف على شرَف يُسلُّ ويُغمد

والثور يوصف بالسيف كما يوصف بانقضاض الكوكب ، لسرعته وحسنه وبريق جلده .

وقول بعضهم — وقد أنشده الجاحظ — :

أما رأيت بني بحر وقد حفَلوا كأنهم خبز بقَّال وكُتاب[1] .

هذا طويل وهذا حَنْبل جَحِد يمشون خلف عُمَير صاحب الباب

شبههم بخبز المعلمين لإتيانه مختلفا لأنه من بيوت صبيان مختلفي الأحوال .

وأنشد أيضا :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه لسانُ دعيٍّ في القريض دخيل

وبعر الكبش لا يقع إلا متفرقا .

ولذلك قالت ابنة الحطيئة لأبيها لما نزل في بني كُليب بن يربوع : تركت الثروة والعدد ، ونزلت في بني كليب بعر الكبش .[2]

وقول بعضهم :

حديث بني بدر إذا ما لقيتَهم كنزو الدَّبَى في العرفج المتقارب[3]

---

(١) الحنبل : القصير الضخم البطن ، والجحد بكسر الحاء : الضيق العيش .

(٢) الكامل للمبرد « شرح المرصفي » — ٥ — ١٢٠ .

(٣) الدبى : صغار الجراد واحدته دبلة ، والنزو : الوثب ، والعرفج : نبت لا يطول مثل قعدة الإنسان سريع الالتهاب .

يصفهم بضئولة الأصوات وسرعة الكلام وإدخال بعضه فى بعض ، والمحمود الجهارة والفخامة كما قال العمانى يمدح الرشيد :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النغم
ويخطو على الأَيْن خطو الظليم ويعلو الرجال بخَلق عَمَم(١)

وقول أبى حية النمرى : — وهو من مليح التشبيه — :

لَعينُك يوم البين أسرع واكفا من الفنن الممطور وهو مَرُوح

وذاك أن الغصن يقع المطر فى ورقه فيصير منها فى مثل المداهن ، فإذا هبت عليه الريح لم يلبث أن يقطر .

وقول أبى تمام :

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أخاً ولذى التّقويس والكَبْرة ابنَا

فقد أحكم فيه المقابلة وأعدل القسمة .

وقول ابن المعتز — وقد عده بعض البغداديين أحسن ما قيل فى طيب النكهة والريق وحسن الثغر — :

وقبلت أفواها عِذاباً كأنها ينابيع خمر خصِّبت لؤلؤ البحر

ولا يعيبه إلا كلمة البحر فإنها فضل لا يحتاج إليه ؛ لأن اللؤلؤ لا يكون إلا فى البحر ، ولو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة .

وقوله يصف شرب حمار :

وأقبل نحو الماء يستلّ صفوه كما أغمدت أيدى الصياقل مُنصلا

شبه انسياب الماء فى شدقيه إلى حلقه بمنصل يغمد .

وهذا تشبيه مليح يدرك بالحس ويتمثل بالمعقول(٢) .

---

(١) الأين : الإعياء ، والعمم : الجسيم .
(٢) العمدة — ١ — ١٩٦ .

وقوله — وهو أحسن ما وصفت به كأس على فم — :

ظبي خلّيّ من الأحزان أودعني ... ما يعلم الله من حزن ومن قلق
كأنه وكأن الكأس في فمه ... هلال أول شهر غاب في الشفق

وهذه صورة جميلة دقيقة كثيراً ما نراها في عالم الواقع .

وقوله يصف الحية — وليس في شعر المحدثين أحسن منه — :

كأنني ساورتني يوم بينهم ... رقشاء مجدولة في لونها بلق
كأنها حين تبدو من مكامنها ... غصن تفتح فيه النّور والورق
ينسل منها لسان تستغيث به ... كما تعوّذ بالسّبابة الغـرق

وهذا تشبيه كاشف للحية في مظاهرها المختلفة لا تزيدنا الرؤية عليه شيئا .

وقول ابن الرومي في الخمر — وهو أحسن ما قيل في بابه وأتمه — :

لها صريح كأنه ذهب ... ورغوة كاللآلىء الفلَق [1]

فقد أتى بشيء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفلق اللؤلؤ — وهو على الحقيقة تشبيهه — والناس قبله إنما شبهوه باللؤلؤ الصحيح .

وقد قفى على آثاره أبو هلال العسكري شارحاً ما أجمله بقوله :

وكاس تمتطي أطراف كف ... كأن بنانها من أرجوان
أنازعها على العلات شَرْبا ... لهن مَضاحك من أقحوان
يلوح على مفارقها حَباب ... كأنصاف الفرائد والجمان

وفي قول العسكري زيادة ، لأن في الحباب ما هو كبير يشبّه بأنصاف الفرائد — وهي كبار اللؤلؤ — ومنه ما هو صغير يشبه بأنصاف الجمان — وهو صغار اللؤلؤ — .

---

(١) الصريح : الخالص من كل شيء ، والفلق : جمع فلقة بالكسر : الكسرة من الشيء .

وقول ذى الرمة فى الصبح :

وقد لاح للسارى الذى كمّل السرى   على أُخْرِيات الليل فَتق مُشهَّر
كلون الحصان الأنبط البطن قائما   تمايل عنه الجُلُّ واللون أشقر

والأنبط : الأبيض البطن ، شبه بياض الصبح تحت حمرته ببياض بطن فرس أشقر ، وهذا أحسن تشبيه وأكمله .

وقد أخذه ابن المعتز فقال :

وما راعنا إلا الصباح كأنه   جِلال قَباطىّ على فَرَس ورد[١]

وقال أيضا :

غدا والصبح تحت الليل باد   كطِرف أشهب مُلقى الجلال

قصد الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت حالهما معا . وأراد أن يأتى بنظير للهيئة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر .

وبقى أن تعلم أن الوجه فى إلقاء الجل : أن تريد أنه أداره عن ظهره وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده ، لا أنه رمى به حتى انفصل منه لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر فى الليل .

ويشبه ذلك قول الشريف الرضى فى القمر :

سوادك من حيث تمسى هلالا   إلى حيث تكمل بدراً منيراً
نقاب لتركية أسود   تُنزِّل منه يسيراً يسيراً

(٢) الجلال بالكسر : أكسية الدواب جمع جل بالضم والفتح ، والقباطى : ثياب تنسب إلى القبط مفردها قبطية بالضم على غير قياس وقد تكسر .

وأما قوله :

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع فى كثيب يضطرب[1]
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جله حين وثب

فلا شبهة فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلق ، دون أن يدخل لون الجل فى التشبيه ، حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق فى سواد الغمام ، بل ينبغى أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع بغتة ويلوح للعين فجأة ، فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه وميل جله عنه .

وقد قال ابن بابك فى هذا المعنى :

للبرق فيها لهب طائش كما يعرى الفرس الأبلق

إلا أن لقول ابن المعتز « حين وثب » من الفائدة ما لا يخفى .

وقد عنى المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ، ألا تراه قال :

وترى البرق عارضاً مستطيلا مرح البلق جلن فى الأجلال

فجعلها تمرح وتجول ليكون قد راعى ما به يتم التشبيه ، وهو معظم الغرض من تشبيهه . وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .[2]

وقول آخر :

وإنى وإياه كرجلى نعامة على كل حال من غنىً وفقير

شبه برجلى النعامة لأنه لا تنوب إحداهما عن الأخرى ، إذ لا مخ فيها وسائر الحيوان إذا أعتب[3] إحدى رجليه استعان بالأخرى ، وقال «غنى» لأن الأسماء ترد على المصادر والمصادر على الأسماء، لأن المصادر إنما ظهرت لظهور الأسماء فتمكن الإعراب منها .[4]

---

(١) الشجاع : الحية .
(٢) أسرار البلاغة ــ ١٣٧ (٣) أعتب : رفع إحدى رجليه ووثب بالأخرى .
(٤) معجم الأدباء ــ ١٨ ــ ١١٥ .

ومما انحرف فيه عن رعاية التشبيه فجاء فسلا منهوكا قول الفرزدق :

يمشون فى حلَق الحديد كما مشت جرب الجمال بها الكُحَيْل المشعَل[١]

فتشبيه الرجال فى الدروع بالجمال الجرب بعيد ، لأنه إن أراد السواد فلا مقاربة بينهما فى اللون ، وهو إلى ذلك سخيف .[٢]

وقد شبه غيره مشية الأبطال فى الميدان بمشية الجمال فلم يقعوا فى هذا الهراء ، فكعب ابن زهير جعلها جمالا بيض الألوان ، لا جمالا جربا مهنوءة تقذى العين وتغثى النفس ! فى قوله يمدح قريش :

يمشون مشى الجمال الزُّهر يعصِمهم ضرب إذا عرّد السودُ التنابيل[٣]

وحسان بن ثابت جعلهم جمالا فى اكتمال قوتها ، ولم يعرض لسواد الدروع التى تشبه القطران ، بل وصفها بالمتانة والإحكام لنسجها المضاعف فى قوله :

يمشون فى الحلل المضاعف نسجُها مشى الجمال إلى الجمال البُزْل[٤]

وقول بعض بنى تميم يمدح :

ومنهم عُمر المحمود نائلُه كأنما رأسه طين الخواتيم

وهو لا يقل بعداً وقبحاً عن قول الفرزدق السابق .

وقول بعضهم فى وصف الهلال :

والجو صاف والهلال مُشَنَّف بالزُّهْرة الزهراء نحو المغرب[٥]

كصحيفة زرقاء فيها نقطة من فضة من تحت نون مذهب

---

(١) الكحيل : القطران ، والمشعل : الكثير . (٢) المثل السائر — ١٦٤ .

(٣) التنابيل : جمع تنبال وهو القصير ، وقد عرض فى ذلك بالأنصار لغلظتهم عليه ، فأنكرت ذلك قريش وقالت : لم تمدحنا إذ هجوتهم . الشعر والشعراء لابن قتيبة — ٦٩ .

(٤) البزل : جمع بازل وهو ما خرج نابه من الجمال بأن يكون فى سن التاسعة .

(٥) مشنف : لابس الشنف بالفتح وهو ما يعلق بأعلى الأذن .

فجعل النقطة تحت النون والعادة أن تكون فوقها .

وقول ابن المعتز فى وصف الورد الأبيض :

أتاك الورد مبيضاً مصونا كمعشوق تكنفه صدود

كأن وجوهه لما توافت بدور فى مطالعها سعود

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

وهذا خطأ فى التشبيه مرده إلى سوء المقابلة ، لأن الخدود متوسطة وليست جوانب.[1]

وفى الخجل إنما تحمر الوجنتان ، فأما منبت الأصداغ ومخط العذار فقليلا مايحمران .

ولو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار فى جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه .

ويرى عبدالقاهر : أن هذا التشبيه من ابن المعتز يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامى وأنه يقال : قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع وبأن ترك أن يراعى الحمرة وحدها ، واعتذر له عما ذكره من إحداق الحمرة بالبياض ، بأنه لعله وجد الأمر كذلك فى الوردة فشبه على طريق العكس ، فقال : هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك .

ثم يقول : فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ويحضر العى ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الانفراد لا معنى له ، وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة ، أعنى تشبيه الورد الأحمر بالخد ، فإنه يفسد من حيث القصد إلى جنس من الورد مخصوص ،

---

(٢) العمدة — ٢ — ١٦ .   (٣) الوساطة — ١٤٧ .

وهو ما فيه بياض تحدق به حمرة ، فيجب أن يكون وصف المشبه به على هذا الشرط أيضاً.[١]

وقول بعض المحدثين :

قد انقضت دولة الصيام وقد　　بشّر سقم الهلال بالعيـــد
تبدو الثريا كفاغر شره　　يفتح فاه لأكل عنقود

ذكر العنقود ، ولم يصفه بلون خاص ، وقد يكون العنقود أسود اللون أو أحمر .

فقول الآخر :

كعنقود مُلّاحيةً حين نوّرا

أدق منه وأبين.

وقول المتنبي :

وجرى على الورق النجيع القانى　　فكأنه النّارنج فى الأغصان[٢]

ولا تكاد تحس بوجه شبه بين الطرفين من حيث نظرت إليه .

وقد عده ابن الأثير من التشبيهات الباردة ولا مرية فى ذلك .

وقوله فى رثاء والدة سيف الدولة :

سقى مثواك غاد فى الغوادى　　نظير نوال كفك فى النوال
لساحيه على الأجداث حَفْش　　كأيدى الخيل أبصرت المخالى

الساحى : الذى يقشر الأرض ، والحفش ، شدة الوقع .

يريد : أن هذا المطر يقشر بسيلانه القبور ويشتد وقعه عليها ، كما تفعل الخيل بأيديها إذا رأت المخالى .

---

(١) أسرار البلاغة ــ ١٦٠ ــ ١٦١ .　　(٢) الورق : المراد به ورق الشجر .
(٣) المثل السائر ــ ١٦٤ .

فالمناسبة بعيدة بين طرفى التشبيه مع قبح الألفاظ ، وجمعه بين الحوشى فى أول البيت والمبتذل فى آخره .

وقوله :

وعجاجة ترك الحديد سوادها زنجا تَبسَّم أو قَذالا شائبا[١]

فقد قصد التهويل من شأن هذه الكتيبة فالتوى عليه قصده ، فتبسم الزنجى لا يوحى إلينا بعظمة تناسب عظمة الجيش المتكفِّر فى السلاح، بل لعله يوحى إلينا بمعانى الاستهجان والاحتقار والزراية ، لما قر فى الأذهان من ضعة شأن الزنوج وقبح مشافرهم .

والقذال الشائب أحقر من أن يُشبَّه به بريق السيوف ولمعان الأسنة ، فهو يثير فينا شعور الضئولة والمهانة والتفاهة لا شعور العظمة والجلال .

ومن الغريب أن يقول بعد ذلك :

فكأنما كسى النهار بها دجى ليل وأطلعت الرماح كواكبا

وقول التنوخى :

شقائق مثل خدود نُقِشتْ شوارب بالمسك فيها ولِحى

والبعد ظاهر لأن السواد الذى فى الشقائق لا يشبه الشوارب واللحى .

وقول ابن فتوح الأندلسى — وقد أهدى مقصا — :

خذها إليك فإنها مخلوقة من فطنة مشبوبة وذكاء

تحكيك فى دفع المهم لأنها ولِعت بشق حناجر الأعداء

وفيه يقول ابن بسام[٢] : وتشبيه ابن فتوح صديقه بالمقص من الوصف

(١) العجاجة : الغبار ، والقذال : مؤخر الرأس ، شبه بريق الأسلحة فى سواد الغبار بتبسم الزنج وشيب القذال .

(٢) الذخيرة — ٢ — ٢٦٥ .

القبيح مما مال فيه إلى العقوق ، وعدابه عن سواء الطريق !

ومتى كان المقص يشق الخناجر ، كأنه لم يسمع قول الآخر — وهو ابن الرومى — :

وما تكلمتَ إلا قلت فاحشة   كأن فكيك للأعراض مقراض

وقول صَرَّدُر :

قوم كئوسهم السيوفُ وخَمرهم   ما استخرجت من شاخب الأوداج

فلا علاقة بين الكئوس والسيوف فى ناحية من النواحى ، ولو قال سقاتهم أو ندمانهم السيوف لأصاب .

وقال الصفدى فى وصف القمر من خلال تثنى الأغصان :

كأنما الأغصان لما انثنت   أمام بدر التم فى غيهبهْ
بنت مليك خلف شباكها   تفرجت منه على موكبه

وقال فى ذلك أيضا :

كأنما الأغصان فى روضها   والبــدر فى أثنائها يُسفر
بنت مليك سار فى موكب   قامت إلى شباكها تنظر

وقد انتقد النواجى وبدر الدين بن الدمامينى هذا الشعر : بأن مراد الشاعر أن يشبه البدر — يظهر من خلل الأغصان حال انثنائها ، ويحتجب فى حال اعتدالها — ببنت مليك خلف الشباك تتراءى مرة وتختفى أخرى .

ولكن التركيب لم يساعده على غرضه — وكثيراً ما يقع له ذلك — فقد جعل الأغصان بنت المليك ، والمقصود جعل البدر بنت المليك .

---

(١) سلافة العصر لابن المدنى — ٦١ — مطالع البدور — ١ — ١١٥ — خزانة الأدب للحموى — ٢٢٧ .

هذا إلى ضعف النسج وهلهاته ، وكثرة الحشو بذكر فى « غيهبه » و« التفرج على الموكب » .

واختصاص بنت المليك بالذكر لا معنى له ، فأى امرأة جميلة تقوم مقامها وليس من الضرورى أن تكون بنت المليك جميلة .

فأين يقع قوله هذا من قول أعرابية :

تطالعنى الشمس من دونها ... طلاع فتاة تخاف اشتهاراً
تخاف الرقيب على سرها ... وتحذر من زوجها أن يَغارا
فتستر غرتها بالخما ... ر طوراً وطوراً تزيل الخمارا

وقول ابن عبد ربه :

نهار لاح فى سربال ليل ... فما عُرِف الرواح من البكور
وعين الشمس ترنو من بعيد ... رُنوَّ البكر من خلف الستور

وقول ابن فتوح الأندلسى فى عين الشمس :

نشر الغمام رداءه فتقنعت ... خجلا به للناظرين ذُكاء
فكأنه ستر تشير بمقلة ... مطروفة من خلفه عذراء
وكأنه إذ مده من تحتها ... سر تضيق بكتمه الظلماء

وقول آخر :

والبدر فى الأفق الغربى متسق ... والغيم يكسوه جلبابا ويسلبه
كوجه محبوبة تبدو لعاشقها ... فإن بدا لها واش تُنَقِّبه

على أن الصفدى لم يخترع هذا المعنى ، بل أخذه من القاضى محيى الدين ابن قرناص حيث يقول :

وحديقة غناء تنتظم الندى ... بفروعها كالدر فى الأسلاك
والبدر من خلل الغصون كأنه ... وجه المليح يُطل من شُباك

وهذا الشعر خال من العيوب التى لحقت بشعر الصفدى مع ما فيه من الإيجاز ، فقد أتى بالمعنى فى بيت واحد .

ولو أنه قال :

كأن بدر التم لما بدا ... من خلل الأغصان فى غيهبهْ
بنت مليك خلف شباكها ... تفرجت منه على موكبه

وفى المقطوع الثانى :

كان بدر التم فى أفقه ... من خلَل الأغصان إذ يسفر
بنت مليك سار فى موكب ... قامت إلى شباكها تنظر

لسلم بعض السلامة من العيوب

وقول شوقى فى وصف روضة :

قام الجليد بها وسال كأنه ... دمعُ الصبابة بلّ غصن عذار

فالعذار لا يشبه بالغصن . وإن كان يوصف بالخضرة — ولو قال : روض عذار مثلا لكان أفضل .

وقوله من قصيدة رثاء :

همدوا وكل محرِّك ... يوما سيسكن فى الترابْ
وكأنهم صرعى كرى ... بالقاع أو صرعى شراب

فقد شبه فعل الموت بفعل النوم والخمر ، فشبه قوة بضعف ، وأين صريع المنام والمدام من صريع الحمام ؟

وقوله يصف صعود الطيارات فى الجو :

ذهبت تسمو فكانت أعقُبا ... فنسوراً فصقوراً فحماما

وكان الترتيب الواقعى أن يقول : فكانت نسوراً فأعقبا ، لأن النسور

---

(١) العذار : الشعر النابت على الصدغين .

(٢) أعقب : جمع عقاب ، طائر معروف يعتبر سيد الطيور .

أضخم من العقبان وإن كانت أقل منها قوة وبطشا .

وقد جرت العادة أن الطيارة تصغر حين تصعد فى الجو شيئا فشيئا ، فمن المعقول أن تبدو بادىء ذى بدء فى نظر العين نسراً ثم عقابا لا العكس ، ولـكنه هنا يقول : إنها بدأت صغيرة ثم استحالت كبيرة وهو محال .

ولو تم لشوقى ذلك لـكان هذا البيت فى جمال ترتيبه وحسن تعاطفه وملاحة انسجامه كبيته المشهور :

نظرة فابتسامة فسلام فـكلام فموعد فلقاء

وقد زاد شوقى على هذا البيت بيتا آخر هو :

فلقاء يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

وشوقى على العموم من البارعين فى هذا الضرب .

ومن ذلك قوله — يصف غرق الطرادة الإنجليزية « هامشير » بفعل غواصة ألمانية فى الحرب العالمية الأولى[١] — :

ضربتها وهى سر فى الدجى ليس دون الله تحت الليل سر

وجفت قلبا وخارت جؤجؤا ونزت جنبا ونامت من أخَر

طُعنت فانبجست فاستصرخت فاتاها حينها فهى خبر [٢]

وهذا النوع قليل فى الأدب العربى ولا يتاح لغير المطبوعين .

وقد سأل ابن فرحون ابن حكم : هل نجد فى التنزيل ست فاءات ترتيبها كهذا البيت — وهو للشاب الظريف :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيلُه فقضى

(١) غرق بغرق هذه الطرادة اللورد كتشنر وزير الحربية الإنجليزية إذ ذاك .
(٢) استصرخت : استغاثت .

ففكر قليلا ثم قال : نعم : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون » الآيات .

ويقول النويرى : أكثر ماوجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط أوبدونه ؛ كقوله ـ تعالى ـ حكاية عن نوح ـ عليه السلام ـ « فعلى الله توكلت . . . . » الآيات .

وقد يحدث أن يراعى الشاعر جهة التشبيه ، ولكن تغيب عنه أشياء أخرى كان يجب عليه أن يلاحظها ؛ فيصاب التشبيه بالهُجنة ولا ينفعه مراعاة الجهة وحدها .

وذلك كقول ابن المعتز فى صفة كتاب :(١)

ودونكه موشّى نمنمتــــه وحاكته الأنامل أىَّ حوك
بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصانُ شوك

والسطور فى استوائها تشبه الشوك شبها تاما ، ولكن الكتاب لا يمدح بجعل سطوره شوكا لأنه بالذم أشبه .

وأين ذلك من قول ابن قرناص :

هو مالك قد أصبحت ألفاظه حلياً على جيد الزمان العاطل
وكأن أسطره خلال دُروجه ظل الغصون يلوح بين جداول(٢)

وكقول شاعر فى الخوخ :

فى الخوخ أعجوبة لناظره ما مثلها جاء فى الأحاديث
كأنها وجنة الحبيب وقد أثر فيها قرص البراغيث

فالخوخ قد يشبه الوجنة التى أدماها البرغوث بقرصه ، ولكن فى هذا التشبيه زراية على هذه الوجنة ، ولا سيما إذا كانت وجنة حبيب يستحق أن ينسب به الشاعر ويشيد بمحاسنه !

(١) نفح الطيب ٣ — ١٢٢ (٢) الدروج : جمع درج بالفتح (فرخ الورق)

فكيف ساغ لهذا المحب أن تهون عليه هذه الوجنة الرقيقة الناعمة ، فيجعلها نهبا لهذه الحشرات اللاذعة !

ثم إن هذا لا يتحقق إلا إذا افترضنا أن هذا المحبوب برىء من نظافة المكان والجسم والثياب ! ولا يهجى محبوب بأوجع من هذا ! ونعوذ بالله من جفاء الطبع وغلظ الذوق !

وقد عرض بعضهم لمثل ماعرض له الشاعر ، ولكنه سلك سبيلا آخر لا يضع من قدر المعشوق .

قال بعض الشعراء :

وكأن البنفسج الغض يحكى ... أثر اللطم فى خدود الغيد

ومن شأن النساء أن يلطمن الخدود فى المناحات فتزداد حمرة على حمرتها وذلك يزيد فى فتنتهن ، ولا يزرى عليهن إلا من حيث مخالفته للدين .

وقال أبو الحسن العقيلى :

اشرب على زهر البنفسج قهوة ... تنفى الأسى عن كل قلب مُكمَد
فكأنه قرص بخد خريدة ... أو أعين زرق كحلن بإثمد

وقال أبو الحسن الشاطى أو ابن الرومى[1] :

أشرب على زهر البنفسج م قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص فى الخدود

وقال أبو هلال العسكرى :

وبحافاتها البنفسج يحكى ... أثر القرص فى خدود العذارى

وقال الميكالى :

وريم على السكر خمشته . بقرص بعارضه أثرا
فأصبح نرجسه وردة ووردة خديه نيلوفرا

---

(١) نهاية الأرب — ١١ — ٢١٨

وقال يصف غلاما مخموراً خمش وجهه :

هبه تغير حائلا عن عهده ورمى فؤادى بالصدود فأزعجا
ما بال نرجسه تحول وردة والورد فى خديه عاد بنفسجا

وقال صاحب مصر :

والله لولا أن يقال تغـــيرا وصبا وإن كان التصابى أجدرا
لأعدت تفاح الخدود بنفسجا لثما وكافور الترائب عنبرا

ففى هذه الأبيات أراد الشعراء أن يبالغوا فى وصف الخدود بالحمرة فاتخذوا لذلك سببا من القرص أو اللثم أو التخميش ، وهى أشياء يتسع لها فن الغزل ولا تشمئز منها النفوس ، ولم ينزل بهم خيالهم إلى قرص البراغيث لأن فيه هجنة على العاشق والمعشوق .

على أن الصنوبرى جمع بين الخوخ والوجنة فى التشبيه وأتى بالمعنى المتقدم، وحماه ذوقه السليم أن يكون كصاحب البراغيث، وذلك حيث يقول:

أهـــدى إلينا الزمان خوخا منظره منظـــر أنيق
من كل مخصوصة بحسن معنـاه فى مثلها دقيق
صفراء حمراء مستفيد بهجتَهـا التبر والعقيق
ذات أديمـــين : ذا بَهـار لمجتليــــه وذا شقيق
كوجنة أُلبست خَلوقا فزال عن بعضها الخلوق

فهذا الشاعر المصور وصف الخوخ وصفا دقيقا شائقا ألم بجميع صفاته مع التفصيل البديع والتقسيم الجميل .

وبلغ ما أراد من وصفه بالحمرة القانية حين شبهه بالشقيق وهو أشد حمرة من الورد دون أن يحوجه سوء الذوق ونضوب الخيال إلى استعارة لذع الحشرات .

---

(١) البهار : الأقحوان الأصفر ، والشقيق : المعروف بشقائق النعمان .
(٢) الخلوق بالفتح : ضرب من الطيب مركب فيه زعفران كما قال الحافظ بن حجر .

الفصل الرابع عشر

التشبيه المجمل والمفصل

ينقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى قسمين :

١ — مجمل : وهو ما لم يذكر فيه وجه الشبه .

سمى بذلك لوقوعه مُجمَلاً ، أخذاً من الإجمال الذى هو عدم ذكر الشىء صريحاً ولو فُهِم معنى .

وهو إما ظاهر لا يخفى فهمه حتى على العامة لمعرفة المقصود منه بديهة السماع كتشبيه الجميلة بالقمر والدميمة بالقرد ؛ فوجه الشبه ظاهر لا يحتاج إلى تأمل لأن الجمال والدمامة أظهر أوصاف القمر والقرد .

وإما خفى لا يدركه إلا الخواص من الناس لمسيس الحاجة فيه إلى فضل النظر وكثرة التأمل ، وإمعان التفكير ، والتغلغل فى الغوص على استخراج وجه المقايسة ، كقول كعب الأشقرى يصف أولاد المهلب للحجاج : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » .

وقد كان سأله : أيهم كان أنجد !

فوصف الحلقة بأنها مفرغة غير معلومة الطرفين مشعر بوجه الشبه .

ومثل هذا لا يدركه إلا المثقف الفطن الأريب الذى يعرف أن الحلقة المفرغة متناسبة الأجزاء ، حتى ليستحيل التفاضل بين أجزائها فيمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وسطا وبعضها نهاية ، لأنه يصح أن تبدأ بأى جزء شئت لتساويها جميعا فى الرتبة ، فيقيس عليها حال هؤلاء الأبناء النجباء الذين تساووا

فى فضيلة النجدة والفروسة، وشرف البسالة والإقدام ، فيتعذر أن يرى بينهم تفاوتا فى هذه المنازل ، فيكون بعضهم فاضلا وبعضهم مفضولا .

فوجه الشبه : التناسب الذى يمتنع معه التفاوت ، لكنه فى « المشبه » فى المعنى ، وفى « المشبه به » فى الصورة .

ومن الصعب على عامى الذهن الغُفل من المعرفة أن يفطن إلى هذا الشبه الدقيق الخفى بين المشبه والمشبه به فينتقل من الأول إلى الثانى .

ويحضرنى بهذه المناسبة أن مراسلى الصحف فى ألمانيا سألوا الجنرال (إيزنهاور): كيف يمكن أن تعمّر براين ؟

فقال : والله لا ندرى من أى جزء نبدأ .

يريد أن الخراب عم جميع نواحيها وشمل كل أحيائها بنسبة واحدة ، فليس فيها جزء يعد أولى بالتعمير من آخر .

وقد وردت للعرب أمثال فى معنى قول الأشقرى منها :

١ — ركبتا البعير .

يضرب بهما المثل فى الشيئين المتساويين ، والرجلين المتكافئين الذين لا يفضّل أحدهما على الآخر .

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة العامريان إلى هرم بن قُطبة لم يرد أن ينفّر أحدهما على الآخر خوف حدوث فتنة ، فقال لهما ، أنتما كركبتى البعير الأدرم [١] تسقطان على الأرض معا ، وما منكما إلا سيد كريم .

فانصرفا راضيين .

٢ — حمارا العِبادى

يضرب بهما المثل فى الشيئين الرديئين ليس أحدهما بأمثل من الآخر ، فتقول : هما كحمارى العبادى .

(١) الأدرم : البعير ذهبت أسنانه ودنا وقوعها .

والعبادى : هو الذى قيل له : أى حماريك شر !
فقال : ذا ثم ذا !
فسار بذلك المثل .
وقد تحاكم نفر إلى الرقاشى فى أيهما أنذل وأسفل، الكناس أو الحجام؟
فأنشد قول الشاعر :

حمارا العبادى الذى سيل عنهما وكانا على حال من الشر واحد

٣ — عِكْمَا العَيْر .

تقول العرب وقعا كعكمى عَيْر : إذا وقعا متساويين .
وأصله : أن يحل العير حباله فيسقط عكماه معا .
ويقال : هما عكما عير مثلان؛ كما يقال : كركبتى البعير .
والعكم بكسر وسكون : العِدل .

٤ — جانبا هَرْشَى .

وهرشى كسكرى : أكمة بتهامة يسلكها الحاج .
وفى القاموس : ثنية قرب الجُحْفة .
ولها طريقان من جانبيها أيهما سُلك كانا صوابا ، فيضرب بهما المثل للأمر له بابان ، وأنشدوا فى ذلك :

خذوا حيث هرشى أو قفاها فإنما كلا جانبىْ هرشى لهن طريق

٥ — الفرقدان .

ويضرب بهما المثل فى طول الصحبة بالتساوى والتشاكل .
قال الشاعر :

كالفرقدين إذا تأمّل ناظر لم يعلُ موضع فرقد عن فرقد

وقول آخر :

شُغلى بمعتدل القوا م ظلوم لحظ المقلتين

أفنيته عضا وتقبيلا م وإنى بين ذين
وكأننى وكأن من أهوى اجتماع الفرقدين

ومما يتصل بذلك أن الغريض وابن سريج حين غنيا :

عوجى علينا ربّة الهودج

قالت سكينة تحكم بينهما : والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندى إلا كمثل اللؤلؤ والياقوت فى أعناق الجوارى الحسان لا يدرى أى ذلك أحسن !
وفى رواية : ما أشبهكما إلا بالجديين : الحار والبارد لا يدرى أيهما أطيب [1] .

وقول أبى تمام :

طَغام لئام بل كرام بزعمهم سواسية ما أشبه الحُول بالقُبل [2]

وقوله :

شريكا عِنان رضيعا لِبان عتيقا رهان حليفا صفاء

أقسام المجمل :

وينقسم المجمل إلى ثلاثة أقسام :

١ — ما لم يذكر فيه وصف المشبه ولا المشبه به .

والمراد بالوصف : الذى يكون فيه إيماء إلى وجه الشبه لا مطلق الوصف ، فالفاضل فى قولك : زيد الفاضل : أسد ، ليس مما نحن فيه ، لأن الفاضل لا يشعر بالشجاعة ، مثال ذلك قول التنوخى :

خداه ورد والنواظر نرجس والثغر سوسن والرضاب عقار

وقول العسكرى :

كأنك فى خد الزمان تورد وفى فمه ضحك وفى وجهه بشر

---

(١) الاغانى — ٢ — ٣٦١ — ٣٦٥ «طبع دار الكتب»
(٢) الحول : جمع أحول ، والقبل : جمع أقبل ، والقبل أحسن من الحول .

وقول آخر .

كفاه عاج والحَباب لآلىء والراح تبر والزجاج زبرجد

وقول البارودى :

والوعةَ القلب من غزلان أخبية تكاد تسكر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعا كلهـــا للحسن أوضاح
فالعين نرجسة والثغر سوسنة والنهد رمانة والخـــد تفاح

٢ — ذكر ما فيه وصف كل منهما كقول أبى تمام يمدح الحسن ابن سهل :

ستصبح العيس بى والليل عند فتى كثير ذكر الرضا فى ساعة الغضب
صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عنى وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريّقـــه وإن ترحّلت عنه لجّ فى الطلب

فقد وصف المشبه وهو الممدوح : بأن عطاياه فائضة عليه أعرض عنه أم لم يعرض ، ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يصيبه قدم عليه أوارتحل عنه. والوصفان مشعران بوجه الشبه : أعنى الإفاضة فى حالتى الطلب وعدمه ، وحالتى الإقبال عليه والإعراض عنه .

وقول أبى الأسود الدؤلى :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيـــا إنه لدميم

وقول الرعى :

والنذل لا يطلب العلاء ولا يعطيك شيئا إلا إذا رهبا[1]
مثل الحمار الموقّع السوء لا يحسن شيئا إلا إذا ضربا

وقول مسلم بن الوليد :

يلقى المنيةَ فى أمثـــال عدّتهـا كالسيل يقذف جُلمودا بجلمود

---

(١) الموقع : الذى كثرت آثار الدبر عليه .

وقول ابن الرومى — وهو من أظرف ما قيل فى هجاء أبناء الحرام —:

لك وجه كآخر الصك فيه لمحات كثيرة من رجال
كخطوط الشهود مشتبهات مُعلمات أن لست بابن حلال

وقول ابن المعتز :

كأن الشمس يوم الغيم لحظ مريض مدنف من خلف ستر

وقوله فى الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الربا نرجسا

وقول أبى هفان :

لعمرى لئن بيعت فى دار غربة ثيابىَ إذ ضاقت على المآكل
فما أنا إلا السيف يأكل جفنه له حلية من نفسه وهو عاطل

وقول آخر :

إذا ما جئت أحمد مستميحا فلا يغررك منظره الأنيق
له خَلْق وليس عليه خُلق كبارقة تروق ولا تريق

وقول آخر :

وزارة العباس منكوسة تقتلع الدولة من اسها
كأنه حين غدا راكبا فى خِلعة يعجز عن لُبسها
جارية السوء إذا قدّرت ثيابَ مولاها على نفسها

وقول آخر :

أَضيع فى معشر وكم بلد يُعد عودُ الكِباء من حطبه [1]

وقول آخر :

وتزكيتى مالا جمعت من الربا خَسارٌ وبعض الجود أخزى من البخل
كسارقة الرمان من كَرم جارها تعود به المرضى وتطمع فى الفضل [2]

(١) الكباء كالكساء : عود البخور أو ضرب منه . (٢) الفضل : الزيادة .

وقول الشهاب الخفاجي :

جيوش مالها فى الملك نفع حكت صورا تُصوَّرُ فى كتاب
رأيت قتالهم من غير قتل كمثل الضرب فى كتب الحساب

وقول محمد بن الشامى :

لايحسُن الشعر إلا فى مدائحه كالدر أحسن مايبدو على الجيد

وقول ابن المطران :

المودات ما خلت من تمـــاد مُزوَّرهْ
كطبيخ خلا من اللحم م يدعى مُزوَّرة (١)

٣ — ما ذكر فيه وصف المشبه به ، كقول بعض الشعراء :

الناس مثل ظروف حشوها صَبر وفوق أفواهها شيء من العسل
تغر ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل

وقول الأخطل :

وأنت كالدهر مبثوثا حبائلهُ والدهر لاملجأ منه ولاهرب

وقول أبى تمام فى المعتصم :

هو البحر من أى النواحى أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

وقول البحترى :

هو العارض الثَّجاج أخضل جودُه وطارت حواشى برقه فتلهبا

وقول المتنبي :

غمام علينا ممطر ليس يُقشع ولا البرق فيه خلَّبا حين يلمع

وقوله :

كأنها الشمس يُعيي كف قابضه شعاعُها ويراه الطرف مقتربا

(١) المزورة بصيغة اسم المفعول : مرقة يطعمها المريض وهى كلمة مولدة ، وقال الفقهاء : هى مايطبخ خاليا من الأدهان .

وقول العسكرى :

هل أنت إلا البدرُ تمَّ تمامُه والغيث باكرَ وَبله وبِجَامُه
والسيف أرهف للمضاء غِراره والرمح قُوِّم للقــاء قَوامه

وقول السرى الرفاء :

والشعر كالروض ذا ظام وذا خَضِل وكالصوارم ذا ناب وذا خَذِم
أو كالعرانين هذا حظه خَنَس مُزرٍ عليه وهــذا حظه شمم

ومن النثر البليغ قول الحجاج لأهل الشام : إنما أنا لكم كالظليم الرائح عن فراخه ، ينفى عنها القذر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكُنها من المطر ، ويَحميها من الضِّباب ، ويحرُسها من الذئاب .

وقال حكماء العرب والعجم : مثل مضار السلطان فى جنب منافعه مثل الغيث الذى هو سقيا الله ـ تعالى ـ وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ، وقد يتأذّى به المسافر ، ويتداعى له البناء ، وتكون فيه الصواعق ، وتدر سيوله فتهلك الناس والدواب والذخائر .

ومثل موج البحر تشتد بليته على أهله . ولا يمنع ذلك الخلق إذا نظروا إلى آثار رحمته ـ تعالى ـ فى الأرض التى أحيا ، والنبات الذى أخرج ، والرزق الذى بسط ، والرحمة التى نشر ، أن يعظموا رحمة ربهم ويشكروها ، ويلغوا ذكر خواص الأذية التى دخلت على خواص الخلق (١) .

وقد سمى الأستاذ جبر ضومط هذا الضرب : ترشيح التشبيه ، وهو أن يبدأ الكاتب أو الشاعر بذكر طرفى التشبيه ، ثم يوهم تناسى أحدهما — وأكثر مايكون المشبه — ويأخذ فى ذكر أحوال المشبه به كأنه ليس فى الكلام غيره ، إلا أن هذه الأحوال يلحظ العقل عند ذكرها أن لها ما يقابلها فى المشبه .

(١) سراج الملوك للطرطوشى — ٤٨

وقد يكون من الكاتب فى أثناء كلامه هذا أن يعود فيذكر المشبه أو يلمح إليه .

ولا يخفى أن ترشيح التشبيه لا يحسن استعماله إلا إذا كان القارىء من تلقاء نفسه يرد هذه الأحوال إلى ما هو شبيه بها من أحوال المشبه وكلما سهل الرد لظهور وجوه المناسبة ووضوحها كان الكلام أبلغ لأن الاقتصاد فيه أتم .

وقد غالى الفيلسوف «هربرت سبنسر» فى مدح هذا الضرب من الكلام لما فيه من الاختصار والاقتصاد على انتباه السامع ، وذكر أن من أحسن من أجاد هذا النوع من العبارة «أمرسون» الكاتب الأمريكى المشهور[1].

والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه :

١ — أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة ، كقولك : أنت الذى من شأنه كيت وكيت .

وكقوله — تعالى — : «كمثل الذى استوقد نارا . . . . . .» الآية .

٢ — أن يكون المشبه به نكرة فتقع الجملة صفة له كقولنا : أنت رجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبى — صلى الله عليه وسلم — : «الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة» .

وأشباه ذلك .

٣ — أن تجىء الجملة مبتدأة مستأنفة ، وذلك إذا كان المشبه به معرفة ولم يكن هناك «الذى» كقوله — تعالى — : «كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . . .» الآية .[2]

٤ — ماذكر فيه وصف المشبه .

ويلاحظ أنهم لم يمثلوا له ، وقد قيل فى تعليل ذلك : إنهم تركوه لعدم الظفر له بمثال ! وهو تعليل مضحك .

(١) فلسفة البلاغة — ١ — ٧٨ (٢) أسرار البلاغة — ٨٥ — ٨٦

وقيل : إنهم تركوه لعدم إمكانه ، لأن وصف المشبه يقتضى أن يكون وجه الشبه فيه أتم منه فى المشبه به وهو ممنوع .

وقد رد على ذلك ابن السبكى : بأن ذكر : بأن وصف المشبه لا يستدعى أن يكون فيه وجه الشبه أتم ، فقد يكون طوى ذكره فى المشبه به لأنه فيه أشهر وأتم [١] .

ولا خلاف أن وصف المشبه وحده فى التشبيه نادر جداً ، ومن الصعوبة المضنية أن تعثر له على مثال فى ديوان شعرى كامل .

وأحسب أن منه قول أبى تمام :

هى البدر يُغنيها تودّد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تَوَدّد

وقول المخبل السعدى :

وتريك وجها كالصحيفة لا ظمآن مُختَلَج ولا جَهْم [٢]

وقول مانىّ الموسوس :

أهيَفُ كالغصن لو أن ريحا حركت هُدبَ ثوبه لتثَنى

٢ — مفصل . كقول أبى تمام :

كالخوط فى القد والغزالة فى البهجة م وابن الغزال فى غَيده

وما حكاه — ولا نعيم له — فى جيده بل حكاه فى جيَده

وقوله فى مدح مالك بن طوق :

قل لابن طوق رحى سعد إذا خَبطت نوائبُ الدهر أعلاها وأسفلها

أصبحت حاتمها جودا وأحنفها حلما وأكثمها علما ودَغفلها [٣]

وقول البحترى :

فهى الشمس بهجة والقضيب اللد ن لينا والرئم طَرفا وجيدا

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٤٤٦

(٢) المختلج بالبناء للمفعول : قليل اللحم ، والجهم : الغليظ المجتمع السمج .

(٣) دغفل : نسابة عربى مشهور .

وقول مفضل العسكرى :

أغر أروع يحكى الغيث مكرمة   والنجم منزلة والطود أحلاما

وقول السرى الرفاء :

كالغيث والليث والهلال إذا أقر م بأسا وبهجة وندى

وقول أبى الحسن بن اليسع الأندلسى :

هى الظبى جيداً والغزالة مقلة   وروض الربا عرفا وغصن النقا قدا

وقول المطرانى :

مهفهفة لها نصف قضيف   كخوط البان فى نصف رداح[1]

حكت لونا ولينا واعتدالا   ولحظا قاتلا سمر الرماح

وقول البارودى :

كالورد خدا والبنفسج طرة   والغصن قدا والغزالة ملفتا

وقوله شوقى :

وخميلة فوق الجزيرة مسها   ذهب الأصيل حواشيا ومتونا

كالتبر أفقا والزبرجد ربوة   والمسك تربا واللجين معينا

ويفرق المغربى[2] بين تفصيل وتفصيل ، فالمراد بالتفصيل فى وجه الشبه المحكوم بإيجابه حسن التشبيه : أن يوجد متعددا انفصلت حقيقة بعضه عن بعض فى نفس الأمر وإن اعتبر المجموع شيئا واحدا .

وهو يعنى بذلك تشبيه التمثيل فى نحو قول الشاعر :

خلتها فى المعصفرات القوانى   وردة فى شقائق النعمان

فالحسناء تقابل الوردة ، والمعصفرات تقابل شقائق النعمان ، ولكن ليس المراد تشبيه هذه الأشياء بعضها ببعض على انفراد ، بل المراد الصورة المنتزعة من كل أولئك ، وهو شىء أبيض تشوبه حمرة معتدلة فى ضمن شىء قانىء الحمرة

(١) القضيف : النحيل ، والرداح : العظيمة الأوراك .

(٢) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٥٣

الفصل الخامس عشر

أدوات التشبيه

يدخل فى أدوات التشبيه كل ما أفاد شبها ، كالكاف وكأنّ وياء النسب، ومثل ومثيل وشبه وشبيه ونحو وضريب وشكل، ومضاه ومساو ومحاك، وأخ ونظير وعدل وعديل وكفء ومشاكل ومُوازن ومضارع ونِدّ وصنو وما كان بمعناها أو كان مشتقا منها من فعل أو اسم .

والمصدر بتقدير الأداة ، كقوله ـ تعالى ـ : « وهى تمر مرّ السحاب »[1]
فالأداة تعم الحرف كالكاف وكأن ، والاسم كمثل وشبه — كما تقدم — والفعل ؛ كشابه وماثل وحاكى وما إلى ذلك .

ويقول التَّنوخي : ولا بد فى التشبيه من أداته ، وهى الكاف وكأن ، أو إرادتها أو إرادة معناها ، ومتى خلا من ذلك فهو الاستعارة ، فإن المستعير قصد نقل اسم المستعار منه إلى المستعار له ؛ أى هو هو ، ولزمه التشبيه من غير قصد[2] .

أشهر أدوات التشبيه .

وأشهر هذه الأدوات وأكثرها استعمالا :

١ — الكاف :

ومرد ذلك إلى بساطتها إذ هى حرف واحد ، والأصل فيها وفيما أشبهها مما يدخل على المفرد كمثل أن يليها المشبه به ، لأن المشبه مخبر عنه بلحوق غيره ، محكوم عليه ، فلو دخلت عليه الكاف لامتنع الإخبار عنه[3].

---

(١) خزانة الأدب للحموى — ٢١٦ (٢) الأقصى القريب — ٤٢

(٣) عروس الأفراح — ٣ — ٣٨٧

بخلاف ما يدخل على الجملة مثل كأن ؛ أو يكون جملة بنفسه كيشابه ويماثل ويضاهى ، فإنه لا يليها المشبه به بل المشبه ، فإذا قيل : زيد يماثل عمراً كان الضمير المستتر فى الفعل هو المشبه ، والمشبه به « عمراً » المتأخر[١] .

وموالاة المشبه به للكاف ونحوها ، إما لفظا كقولك زيد كالأسد ، وإما تقديراً كقوله ـ تعالى ـ : «أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق» فالكاف فى « كصيب » لم تدخل على المشبه به لفظا بل تقديرا .

وأصل النظم : أو كمثل ذوى صيب ، فحذف « ذوى » لدلالة يجعلون أصابعهم فى آذانهم عليه .

وحذف « مثل » لما دل عليه عطفه على قوله : «كمثل الذى استوقد ناراً» إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوقدين — وهو صفتهم العجيبة الشأن — وبين ذوات ذوى الصيب ، وإنما التشبيه بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء[٢] .

وقد يلى الكاف غير المشبه به ، وذلك فيما إذا كان المشبه به مركبا لم يعبر عنه بمفرد لعدم اقتضاء المقام ذلك التعبير ، فيستغنى عن ذلك المفرد بأخذ الحال التركيبية من مجموع ما فى اللفظ المركب[٣] ، كقوله ـ تعالى ـ : « واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره ، بل المراد تشبيه حالها فى نضارتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارقا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن[٤] .

فالمراد أن قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضرة ، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيَّرة شيئاً واحدا فلا .

---

(١) حاشية الدسوقى ـ ٣ ـ ٣٨٧ (٢) المفتاح — ١٨٦

(٣) مواهب الفتاح — ٣ـ ٣٨٧ (٤) الإيضاح ـ ١٦٩

ومما هو بيّن قول لبيد :

وما الناس إلا كالديار وأهلها   بها يوم حلوها وغَدْواً بلاقع

لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم فى الدنيا وسرعة زوالهم وفنائهم بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية[1].

وليس مما نحن فيه قوله — تعالى — : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين مَن أنصارى إلى الله » .

لأن المعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى ، حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .

وصفوة القول : أن التشبيه إذا كان مركبا ، فإن عبر عنه بلفظ مفرد كلفظ المثل ، ولىّ المشبه به الكاف ، وإن لم يعبر عنه بمفرد ولا اقتضى الحال تقديره ، بل استغنى عنه بما فى ضمن الألفاظ فلا يلى المشبه به الكاف[2].

٢ — كأن :

وهى حرف كالكاف ، وقد اختلف فيها ، فقيل : إنها بسيطة وليست الكاف أصلا وهو مذهب بعض البصريين .

وقيل : إنها مركبة من الكاف وأن المشددة ، وهو اختيار أبى حيان ، ومذهب الخليل وسيبويه والجمهور .

والأقرب الأول لجمود الحروف ، مع وقوعها فيما لا يصلح فيه التأويل بالمصدر المناسب لأنَّ المفتوحة ، وإن كان الثانى أشبه بحسب ما يبدو من صور كأن .

وفى « كأن » بعد القول بالتركيب كلام لايخلو من الفائدة ، فالزمخشرى يذهب فى قولهم : كأن زيدا أسد ، إلى أن أصله : إن زيداً كالأسد .

فلما قدمت الكاف فتحت الهمزة لفظاً والمعنى على الكسر ، وتحريره

(١) الكشاف للزمخشرى ١ — ٣٣   (٢) حاشية الدسوقى ٣ — ٣٨٧

أن قولك : إن زيداً كالأسد : تحقيق لإثبات إلحاق الناقص بالكامل .

وقولك : كأن زيداً أسد : إعلام بأن تحقيق الأسدية على زيد إنما هو بطريق التشبيه لا غيره .

وقال ابن جنى فى سر الصناعة : أصل كأن زيداً عمرو : إن زيداً كعمرو . ثم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذى عقدوا عليه الجملة ، فأزالوا الكاف من وسطها وقدموها إلى أولها لفرط عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على « إن » وجب فتحها ، لأن « إن » المكسورة لا يتقدمها حرف الجر ، ولا تقع إلا أولا وبقى معنى التشبيه الذى كان فيها . . . . وليست زائدة لأن معنى التشبيه موجود فيها .

وبهذا علمت أن مقصوده : أن « كأن » : مركبة من إن المكسورة والكاف ، وأنها فتحت وصارت بعد الفتح على حالها من الدلالة على تأكيد الجملة غير منحلة مع ما بعدها إلى مصدر ، وأن هذه المفتوحة المتصلة بالكاف غير أن المفتوحة فى قولك : عجبت من أنك قائم ، وقد قدمت الكاف ووضعت فى غير محلها مسارعة إلى تبادر ذهن السامع للتشبيه(١) .

وتفيد كأن التشبيه سواء أخففت نونها أم لا ، أو اتصلت بما الكافة أم لا .

والمشهور : أنها للتشبيه على الإطلاق ، وذهب الكوفيون والزجاج وابن الطراوة وابن السيد : إلى أنه : إن كان خبرها اسماً جامداً فهى للتشبيه نحو قولك : كأن زيداً أسد ، وإن كان جملة أو مشتقا ، فعلا أو صفة ، فهى للشك بمنزلة ظننت وتوهمت ، نحو : كأن زيداً قائم ، فمثل هذا لا يكون تشبيها ، لأن خبرها المشبه به فى المعنى هو المشبه ، والشىء لا يشبه بنفسه .

ومن ذهب إلى أنها لا تقع لغير التشبيه أوّل ذلك على حذف الموصوف أى كأن زيداً شخص قائم : أى من أفراده : كما تقول : زيد أسد أى من

---

(١) عروس الأفراح ــ ٣ ــ ٣٩١

أفراده ، فلما حذف الموصوف وجعل الاسم بسبب التشبيه كأنه الخبر بعينه صار الضمير يعود إلى الاسم لا إلى الموصوف المقدر .

وقد وصفه ابن يعقوب بالتكلف .[١]

وقال ابن ولاد : معناه تشبيه هيئته حال عدم القيام، بهيئته حال القيام.

ومن ذلك قول ابن الأنبارى : كأنك بالشتاء مقبل .

معناه : أظن .

وجعله الكوفيون للتقريب ؛ كقول الحسن البصرى : كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل .

والجمهور يؤولون هذا إلى ما يرجع إلى التشبيه كما تقدم .

وقد تفيد كأن التحقيق عند بعضهم .

وذهب الكوفيون والزجّاج إلى أنها للتحقيق فى قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعِرّا كأن الأرض ليس بها هشام[٢]

وقول ابن أبى ربيعه :

كأننى حين أمسى لا تكلمنى متيم يشتهى ماليس موجودا

والجمهور يؤولون ذلك .[٣]

والمتتبع لكلام الشعراء ـ وهم الحجة فى مثل هذه الصور البيانية ـ يقطع بصحة رأى الجمهور فى أنها تقع للتشبيه دائما .

فقد عد العسكرى قول امرىء القيس :

ألم تسأل الربيع القديم بعسعسا كأنى أنادى ـ إذ أكلم ـ أخرسا

من التشبيه الفاسد .

وعد قول كثير عزة :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلت

(١) مواهب الفتاح ـ ٣ ـ ٣٨٩

(٢) اقشعرت الأرض : أمحلت . (٣) حاشية الدسوقى ـ ٣ ـ ٣٨٥

من التشبيه الجيد .(١)

وقال : ومن أحسن تشبيه جاء فى الهيبة قولهم : كأن على رءوسهم الطير . وذلك أن الهائب تسكن جوارحه ، فكأن على رأسه طائرا يخاف طيرانه(٢)

وأورد فى باب التشبيه قول مسلم بن الوليد :

أجدّك ماتدرين أن رُبّ ليلة　　كأن دجاها من قرونك تُنشَر

وقول ابن المعتز (٣) :

وكأن عقرب صدغه وقفت　　لما دنت من نار وجنته

وقول ابن نباته فى فرس أبلق أغر(٤) :

وكأنما لطم الصبـــاح جبينه　　فاقتص منه فخاض فى أحشائه

وذكر ابن المعتز فى باب ما اختاره من التشبيه (٥) قول البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها　　فى الكف قائمة بغير إناء

وقال ابن الأثير فى قول البحترى يصف السيف :

وكأنما سود النمال وحمرها　　دبّت بأيد فى قواه وأرجل

شبه فرند السيف بدبيب النمال سودها وحمرها ، وذلك من التشبيه الحسن.(٦)

ودفع الآمدى تهمة السرقة عن البحترى فى قوله :

بأبيض وضاح كأن قميصه　　يُزَر على الشيخين زيد وحاتم

فقال : أفترى البحترى ماسمع بذكر زيد الخيل ولا حاتم الطائى اللذين تفخر بهما اليمن كلها ، فيشبه ممدوحه بهما إلا من بيت أبى تمام .

وأنت ترى أن هذه الأبيات التى مرت عليك جميعها وقع فيها المشبه به غير جامد ، وذكرت على أنها أمثلة من التشبيه .

والشواهد على ذلك كثيرة .

---

(١) الصناعتين — ٦٨
(٢) ديوان المعانى — ١ — ١٤٤
(٣) الصناعتين — ٢٤٤
(٤) المصدر السابق — ٢٤٠
(٥) البديع — ١٢٩
(٦) المثل السائر — ١٦٢

والكاف يليها المشبه به ، كقول صفية الباهلية :

كنا كأنجم ليل بيننا قمر   يجلو الدجى فهوى من بيننا القمر

وكأن بالعكس كقول عبيد بن الأبرص :

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت   من ماء أدكن فى الحانوت نضاح

والتحقيق فى ذلك — كما قال ابن السبكى — : أن يقال : أداة التشبيه إن كان لها معمولات قُدم ما تقضى العربية بتقديمه مشبهاً كان أم مشبها به، فتقول: كأن زيدا أسد، فيليها المشبه لأنه مخبر عنه ، والمخبر عنه هو اسم كأن لا خبرها ، فليس تقديمه لكونه مشبها بل لكونه اسماً لها ومخبراً عنه ، وتقول : شابه زيد الأسد وماثله ، فوليها المشبه لأنه فاعل ووضعه التقدم على المفعول ، وتقول : زيد يشبه الأسد ، فوليها المشبه لأنه ضمير متصل . وإن كان لها معمول واحد وليها فى اللفظ المشبه به ؛ تقول : زيد كعمرو ، أو مثل عمرو ، أو شبه عمرو .[1]

بين الكاف وكأن :

المتبادر إلى الذهن أن التشبيه بكأن أبلغ من الكاف ، وقد صرح به الرازى فى نهاية الإيجاز ، وحازم فى منهاج البلغاء ، يقول : وهى إنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائى يشك فى أن المشبه هو المشبه به أو غيره ولذلك قالت بلقيس : «كأنه هو»[2] .

ولم تقل هكذا هو لحكمة ، وهى : «كأنه هو» : عبارةُ من قرُب عنده الشبه حتى شكك نفسه فى التغاير بين الأمرين فكاد يقول : هو هو وتلك حال بلقيس ، وأما هكذا هو فعبارةُ جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة فى التلاوة لمطابقتها لحالها.[3]

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣٩١

(٢) تريد عرشها الذى أتى به سليمان — عليه السلام — من اليمن وأمر أن ينكر لها كما جاء فى سورة «النمل»

(٣) الانتصاف لابن المنير — ٢ — ١٤٦

ومن ذلك ما أنشده ابن الأنبارى عن أبيه :[١]

لما تبدت من الأستار قلت لها سبحان سبحان ربى خالق الصور
ما كنت أحسب شمساً غير واحدة حتى رأيت لها أختاً من البشر
كأنها هى إلا أن يفضلها حسن الدلال وطرف فاتر النظر

فهى تستعمل — كما رأيت — فى مقام تشاهد فيه الصفة وتتصور الحالة كأنها محسوسة لإفادتها التحقيق فى التشبيه .

ويرى ابن السبكى : أنه إن قلنا: بأنها — أى كأن — بسيطة صح ذلك فإن كثرة الحروف غالباً دليل على المبالغة فى المعنى ، وإن قلنا : بأنها مركبة فلا ؛ لأن أداة التشبيه فى الحقيقة هى الكاف، وأن : تأكيد للجملة ، وتأكيد الجملة المخبر فيها بالتشبيه لا يدل على المبالغة فيه ، والاعتناء بالتشبيه فى تقديم الكاف المشعرة بالتشبيه من أول وهلة، ليس فيه ما يدل على أن المشابهة أبلغ بل فيه تأكيد الدلالة على مطلق التشبيه والاعتناء به ، سواء أكان هو أبلغ أم لا فيكون مساويا[٢] .

أدوات أخرى للتشبيه :

١ — لعل .

قال — تعالى — « وتتخذون مصانع لعلكم تخلُدون »

جاء فى البخارى عن ابن عباس : معناه : كأنكم تخلدون .

وفى الكشاف : معناه : ترجون الخلود فى الدنيا، أو تشبيه بحالكم حال من يخلد .

وفى مصحف « أُبىّ » : « كأنكم تخلدون » .

وقال الطيبى : لعل هذا وارد على الاستعارة التمثيلية .[٣]

---

(١) عروس الأفراح —٣— ٣٩٤ .
(٢) المصدر المتقدم —٣— ٣٩٢—٣٩٣ .

٢ — سواء .

جعلها عبد اللطيف البغدادى من أدوات التشبيه ، كقولهم : رأيت رجلا هو والعدم سواء .[٤]

ويقول البحترى :

وسواء مَقاوم الحلم منه ورعان الرَّيان أرست هضابه

وقول مضرى الفقعسى :

وليل تقول العين من ظلماته سواء صحيحات العيون وعورها
كأن لنا منه بيوتا حصينة مُسوح أعاليها وساج كسورها

وقول آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعَير فى الفلاة سواء

٣ — مثلك لا يفعل كذا .

يرى بعضهم أنه يستثنى من « مثل » أنها أداة تشبيه ، نحو قولك : مثلك لا يفعل كذا .

والحقيقة أنها تشبيه ، لأن المراد : من هو على مثل صفتك لا يفعله . فليست مثل هنا زائدة مقحمة — كما قيل — بل هى نفى للفعل عن المخاطب بطريق برهانى .[١]

وقد جاءت فى قول المتنبى يمدح بدر بن عمار :

مثلك يا بدر لا يكون ولا تصلح م إلا لمثلك الدول

٤ — مثل بفتح الثاء .

وهى فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير ؛ يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، وقد يكون المثل بمعنى الصفة ، من ذلك قوله تعالى : « مثل

---

(١) عروس الأفراح ـ٣ـ٣٩٣ . (٢) المصدر المتقدم ٣ـ٣٩٤

الجنة التي وعد المتقون» : أي صفة الجنة، وقوله ـ تعالى : ـ «ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه» : أي صفتهم .

قال الطيبي[١] : ولا تستعمل إلا في حال أو صفة لها شأن ، وفيها غرابة[٢] كقوله ـ تعالى ـ : «مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ...» «فمثله كمثل الكلب ...» ، «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ...» «مثل الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ...»

٥ — ما .

وقد استعملها المتنبي في قوله :

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه   فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

يريد : بما وكأنه : ما أشبهه بكذا ، وكأنه كذا .

وقد اعترض عليه بأنه يُشَبَّه من الأسماء بمثل وشبه ونحوها ، ومن الأدوات بالكاف ، ثم تدخل على أن ، فيقال : كأنه الأسد .

وقد تقرب العرب التشبيه بأن تجعل أحد الشيئين هو الآخر ، فتقول : زيد الأسد عاديا والسيف مسلولا ، فأما «ما» فلها مواقع معروفة ، وليس للتشبيه في أبوابها مدخل .

وقد سئل أبو الطيب عنه ، فذكر : أن «ما» تأتي لتحقيق التشبيه ؛ تقول: عبد الله الأسد ، وما عبد الله إلا الأسد ، وإلا كالأسد ؛ تنفي أن يشبه بغيره ؛ قال الشاعر :

وما هند إلا مهرة عربية   سليلة أفراس تجللها بغل

وقال لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه   يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

---

(١) العمدة ـ ١ ـ ١٨٩   (٢) الطراز ـ ٣ ـ ٣٢٧

فكأن قائلا قال : ما هو إلا كذا ، وآخر قال : كأنه كذا ، فقال :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه

قال القاضى الجرجانى : وأقول : إن التشبيه «بما» محال، وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع التى ذكرها بحروفه ؛ فإذا قال : ما المرء إلا كالشهاب .

فإنما المفيد للتشبيه الكاف ودخلت ما للنفى ، فنفت أن يكون المرء إلا كالشهاب ، فهى لم تتعد موضعها من النفى لكنها نفت الاشتباه سوى المستثنى منها .

وإذا قال : ما هند إلا مهرة عربية .

فإن ما دخلت على المبتدا والخبر ، وكأن الأصل : هند مهرة ، وهو فى تحقيق المعنى عائد إلى تقريب الشبه وإن كان اللفظ مبيانا ثم نفى أن يكون كذلك فأدخل حرف النفى والاستثناء ، فليس بمنكر أن ينسب التشبيه إلى « ما » إذ كان له هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله.[1]

٦ — أفعل التفضيل .

جعل الطيبى من أدوات التشبيه أفعل التفضيل ، مثل زيد أفضل من عمرو[2] .

ويقول ابن السبكى : وفيه بعد وإن كان يشهد له ما سيأتى من كلام ابن الشجرى .

فمن ذلك قول المتنبى فى الفخر :

وأبصر من زرقاء جَوٍّ لأننى متى نظرت عيناى ساواهما علمى[3]

وقول السرى الرفاء فى الاستدعاء :

نفسى فداؤك كيف تصبر طائعا عن فتية مثل البدور صِباح

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه ــ ٣٣١ (٢) عروس الأفراح ــ ٣ ــ ٣٩٢

(٣) جو : اليمامة وهى قطر عربى معروف، والزرقاء: هى حذام المضروب بها المثل فى حدة النظر .

نهضوا لراحتهم وذكرك بينهم　　أذكى وأطيب من نسيم الراح

وقوله يمدح أبا الهيجاء بن حمدان :

لا أقول الغمام مثل أياديك　م ولا السيف مثل عزمك حدا

أنت أمضى من الحسام وأصفى　　من حيا المزن في المحول وأندى

وقول يامين البصري في وصف صمصامة الزبيدي :

نصل كأن المنايا جند طاعته　　في طوله قصر إلا عن القصر[١]

أمضى من الأجل الماضي وأنفذ من　　جاري القضاء وأضوا من سنا القمر

وقول بعض الرجاز يمدح المأمون :

مأمون ياذا المنن الشريفهْ　　والعلم والمنزلة المنيفهْ

هل لك في أرجوزة ظريفه　　أظرف من فقه أبي حنيفه

وقول ابن عمار الأندلسي يمدح المعتمد بن عباد :

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد　　ونحاه لا يردون حتى يصدرا[٢]

أندى على الأكباد من قطر الندى　　وألذ في الأجفان من سنة الكرى

وقول ابن حجاج في الخمر :

عادية السن بطشُ سورتها　　أجهل في الرأس من أبي جهل

وقول البستي في هجاء أبي علي بن سمجور :

ألم تر ما ارتآه أبو علي　　وكنت أراه ذا لب وكيس

عصى السلطان فابتدرت إليه　　جيوش يقلقون أبا قبيس

وصيّر طوس معقله فأضحت　　عليه طوس أشأم من طويس[٣]

وقول الثعالبي في هجاء صديق :

صديق لنا مذ ذقت طعم إخائه　　غصصت وقد أربى على المر شهده

---

(١) القصر بفتح القاف والصاد : أصول الأعناق جمع قصرة　　(٢) نحاه : قصده.

(٣) طويس بالتصغير : من مخنثي المدينة كان يضرب به المثل في الشؤم .

فأضعف من نسج العناكب عهده وأضيع من نار الحباحب وده[١]

وقول آخر في معناه :

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير المراء قليل الصواب

أشد لجاجا من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

وقول بعض العصريين في ثقيل[٢] :

ألذ من الراح المشعشع بُعدُه وأشهى إلى الأجفان من غفوة السحر

وآنق من وصل الكواعب هجره وأندى على الأكباد من رنة الوتر

وأبشع من ضحك القرود حديثه وأقبح من فقر ألم على الكبر

ومن مختارات الغزل قول شاعر :

جارية أطيب من طيبها والطيب فيها المسك والعنبر

ووجهها أحسن من حَلْيها والحلى فيها الدر والجوهر

وفيه يقول العسكرى : ولو قيل : إن هذا أحسن ما قاله محدث لم يكن بعيداً[٣] .

وقول عبد الغفار المصرى :

ورد الخدود أرقُّ من ورد الرياض وأنعم

هذا تَنَشَّقُه الأنو ف وذا يقبِّله الفم

فإذا عدلت فأفضل الـ وردين ورد يُلثَم

فلم يكفه أن يفضل ورد الخدود على ورد الرياض حتى عقد بينهما موازنة خرج منها بالبرهان المحسوس المتعارف على أن ما يلثم خير مما يُشم.

ومن البديع قول الشاب الظريف :

بلا غِيبة للبدر وجهك أجمل وما أنا فيما قلتــه مُتجمِّل

---

(١) المراد بها : النار الضعيفة (٢) ألحان الاصيل ـ ٣١٦ (٣) ديوان المعانى ـ ١ ـ ٢٦١

ذلك أن البدر لا يغتاب ، لأن الغيبة ذكر الناس بما يكرهون . لكنه هنا نزّل البدر منزلة مليح جميل إذا فضل عليه غيره كره ذلك وعده غيبة ، ثم ادعى أن ذلك المليح الذى هو البدر لا يأنف ولا يغضب من تفضيل المحبوب عليه فى الحسن ، لأن ذلك من الأشياء المسلم بها التى لا يكابر فيها ، فانتهى الكلام — كما يقول الشهاب الخفاجى — : إلى هذه المبالغة المليحة [1] .

ومن الطريف البليغ وصف النَّظام لعبد الوهاب الثقفى — وكان من أجمل فتيان العرب وأنبلهم — : هو أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، وخصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر ، وطاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصل الدائم ، مع الشباب الناعم .[2]

٢٧ — أفعال تنبىء عن التشبيه .

يؤتى فى التشبيه القريب بنحو : علمت زيدا أسدا ، الدال على التحقيق .

وفى البعيد أدنى بعد بنحو : حسبت زيدا أسدا، الدال على الظن وعدم التحقيق :

وهذا رأى الخطيب فى التلخيص والإيضاح تبعا للسكاكى ، وخالفه جماعه منهم الطيبى ، فقالوا : الأظهر : أن الفعل ينبىء عن حال التشبيه فى القرب والبعد ، وأن الأداة محذوفة مقدرة لعدم استقامة المعنى بدونها .

وذلك كقول المتنبى :

رأت وجه من أهوى بليل عواذلى ... فقلن نرى شمسا وما طلع الفجر

* * *

وعجاجة ترك الحديد سوادها ... زنجا تَبسَّم أو قذالا شائبا

* * *

(١) طراز المجالس — ٢١٠

(٢) أمالى المرتضى — ١ — ١٣٢

ذُكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

* * *

قوم إذا أمطرت موتا سيوفُهم حسبتها سحبا جادت على بلد

* * *

متعوِّد لبس الدروع يخالها في البرد خزا والهواجر لاذا[١]

* * *

سقيته عبرات ظنها مطرا سوائلا من جفون ظنها سحبا

* * *

ما زلت أعرفه قردا بلا ذنَب خلوا من البأس مملوءا من النزَق[٢]

* * *

بياض وجه يريك الشمس حالكة ولفظ در يريك الدر مَخشلبا

وقول السرّى الرفاء :

رأت أسدا يلقى المنية حاسرا إذ اختال في قُمص الحديد أسودها

* * *

وكل مسفرة الألفاظ تحسبها صفيحة بين إشراق وإسفار[٢]

* * *

تريك في الظل عقيانا فإن نظرت شمس النهار إليها خلتها لهبا

* * *

وروضة آزريون قد ذر وسطها نوافج مسك هيَّجت قلب مُهتاج
تراها عيونا بالنهار روانيا وعند غروب الشمس أزرار ديباج

(١) اللاذ : جمع لاذة ، ثوب حرير أحمر صيني .
(٢) الصفيحة : السيف العريض . (٣) يصف ثمار النخل .

وقول بعضهم :

ولقد علمتك فى الكريهة ضيغما أظفاره بيض السلاح وسمره

ولابن وضاح وقد قطع عنه ممدوحه إحسانه ، فقابله بقطع مدحه مدلاً عليه ، فعاتبه فقال :

هل كنت إلا طائرا بثنائكم فى دوح مجدكم أقوم وأقعد

إن تسلبونى ريشكم وتقلصوا عنى ظلالكم فكيف أغرد

٨ — هكذا .

يقصد من التشبيه بها : الاستمرار على معنى أنه عادته ودأبه ، لأن نوع الشىء يبقى ببقاء أمثاله .

والعادة تشعر بالاستمرار ، فيراد لازم المعنى ويقطع النظر عن التشبيه ، كقولهم : هكذا أعاتب وأعاقب ، وكذا أنعم على من أنادم وأصاحب .

وعدل عمر فى قضية كذا ، وهكذا .

أى استمر على عدله .

وقال الحماسى :

وهكذا يذهب الزمان ويفنى م العلم فيه ويدرس الأثر

قال التبريزى : أى استمر على ذلك .

وكذلك قوله :

وما من ذلة غلبوا ولكن كذاك الأسد تفرسها الأسود

وأمثاله أكثر من أن تحصى .

وذكر الصولى : أن كذا تفيد التعظيم فى قول أبى تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

حيث قال : عاب قوم هذا ، وقالوا : لا يقال . فليكن كذا إلا للسرور ، نحو : كذا فليكن الفرح .

وما علمت أن شيئا يقال فى تعظيم الفرح إلا قيل فى تعظيم الحزن .
وقد جرت البشارة بما يسوء ، نحو « فبشرهم بعذاب أليم » .
ومن غريب معانى « كذا » : أنها تكون اسم فعل بمعنى دع واترك فتنصب مفعولا .
قال المرادى : حكى النصب بها أهل اللغة وأنشد لجرير :

يقلن وقد تلاحقت المطايا كذاك القولَ إن عليك عينا

أى : دع القول .
وهى مركبة من كاف التشبيه واسم الإشارة وكاف الخطاب ، وزال معناها التركيبي وضمنت معنى دع .
وقال ابن الأثير فى قول عمر — ض — : كذاك لا تذعر : أى حسبك.
وتقديره : دع فعلك وأمرك كذاك .
واستعملت الكلمة استعمال الاسم الواحد فى غير هذا المعنى ، يقال : رجل كذاك : أى خسيس .
واشتر لى غلاما ولا تشتر كذاك : أى دنيئاً .
وقيل حقيقة كذاك : مثل ذاك .
ومعناه : إلزم ما أنت عليه ولا تجاوزه[1] .

توالى أداة التشبيه :

قد يقتضى المقام تكرر أداة التشبيه أو تعددها توسعاً فى الوصف وافتناناً فى الكلام ؛ وذلك حينما يكون المشبه جوانب عدة تستدعى ما يناسبها من المشبه به ، فيؤتى بالمشبه ثم يكرر المشبه به مع أداة التشبيه .
أو تكون الصورة التى يريد الواصف رسمها واسعة الرقعة كثيرة الألوان فيكرر أداة التشبيه وطرفيه : المشبه والمشبه به مع كل جزء من أجزائها

(١) طراز المجالس — ٤٧ — ٤٩ — ٥٠

ولاءً حتى يأتى عليها ، ليستوعب بذلك جميع مناحيها حين لم يتيسر له أن يصوغها جملة .

فمن الأول قول البحترى يصف إيوان كسرى :

فكأنى أرى المراتب والقو ... م إذا ما بلغتُ آخر حسى
وكأن الوفود ضاحين حسرى ... من وقوف خلف الزحام وخُنس
وكأن القيان وسط المقاصـ ... ـير م يُرجِّعن بين حُوّ ولُعس (١)
وكأن اللقاء أول من أمس م ... ووشك الفراق أول أمس
وكأن الذى يريد اتباعا ... طامع فى لحوقهم صُبح خمس

وقول المتنبي يمدح على بن منصور الحاجب :

هذا الذى أبصرت منه حاضراً ... مثل الذى أبصرت منه غائباً
كالبدر من حيث التفت رأيته ... يُهدى إلى عينيك نوراً ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا ... جوداً ويبعث للبعيد سحائبا
كالشمس فى كبد السماء وضوءها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغاربا

وقول السرى الرفاء يمدح سلامة بن فهد الأزدى :

وأغر ما طلعت أسرّة وجهه ... إلا استسرَّ البدر قبل سراره
مثل الشهاب محرِّقا أو كاسفاً ... ظُلَمَ الخطوب بنوره أو ناره
أو كالحسام إذا مضَى فى مشهد ... شهدت مضاربه بعتق نجاره
أو كالربيع الطلق واجه قطره ... وجه الثرى فاخضرَّ من أقطاره

وقول شوقى فى أهرام مصر :

كأن أهرام مصر حائط نهضت ... به يدُ الدهـر لا بنيان بانينا

---

(١) الحو : جمع حواء ، وهى ما كانت شفتها حمراء إلى السواد ، واللعس : جمع لعساء ما كان فى لونها أدنى سواد يضرب إلى الحمرة .

كأنها ورمالا حولها التطمت سفينةٌ غرِقت إلا أساطينا
كأنها تحت لألاء الضحا ذهباً كنوزُ فرعون غطَّيْن الموازينا

وقول بعض العصريين فى وصف القرآن الكريم :

كأنه الروض لا تنفك جدّته يَبهَى على العين منها الوشى والحِبَر
كأنه الشمس لاتفنى أشعتها مدى القرون ولا تبلَى لها صور
كأنه القمــــر المرموق منظَره لكل يوم جمال فيه مدخر

ومن الثانى قول البديع الهمذانى :

لك الله من ليل أجوب جيوبه كأنىَ فى عين الدجى أبدا كحل
كأن الثرى ساق كأن الكرى طلا كأنا له شُرب كأن المنى نَقل
كأنا جياع والمطىُّ لنا فَمٌ كأن الفلا زاد كأن الثرى أكل
كأن ينابيع الثرى ثدى مرضع وفى حجرها منى ومن ناقتى طفل
كأنا على أرجوحة فى مسيرنا لغور بنا يهوى ونجد بنا يعلو

وقول القاضى التنوخى :

وليلة مشتاق كأن نجومها قد اغتصبت عين الكرى وهى نوَّم
كأن عيون الساهرين لطولها إذا شخصت للأنجم الزهر أنجم
كأن سواد الليل والفجر ضاحك يلوح ويخفى أسود يتبسم

وقول ابن هانىء الأندلسى من قصيدة بارعة :(١)

كأن السماكين اللذين تراهما على لبدتيه ضامنان له حتفا(٢)
كأن سهيلا فى مطالع أفقه مُفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن رقيب الصبح أجدل مرقبَ يقلب تحتَ الليل فى ريشه طرفا

(١) نفح الطيب ـ ٢ ـ ٣٦٥ ـ سر الفصاحة ـ ٢٣٨ ـ ٢٣٩
(٢) الضمير فى لبدتيه لأسد السماء .

كأن بنى نعش ونعشاً مَطافل ... بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا[١]
كأن سهاها عاشق بين عُوَّد ... فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن معلّى قطبها فارس له ... لواءان مركوزان قد كرِها الزحفا
كأن قُدامى النسر والنسر واقع ... قُصِصن فلم تَسم الخوافى له ضَعفا
كأن أخاه حين دوَّم طائر ... أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن الهزيع الآبنوسى وهنة ... سرى بالفسيح الخسروانى ملتفا
كأن ظلام الليل إذ مال ميلة ... صريع مدام بات يشربها صِرفا
كأن عمود الصبح خاقان معشر ... من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى
كأن لواء الشمس غرة جعفر ... رأى القِرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد أعجب بها المقرى حتى قال عنه : إنه خرق فيها المعتاد .

وقول عفيف الدين التلمسانى فى وصف الرياض[٢] :

رياض بكاها المُزن فهى بواسم ... وناحت لغير الحزن فيها الحمائم
كأن الأقاحى والشقيق تقابلا ... خدود جلاهن الصِّبا ومباسم
كأن بها للنرجس الغضِّ أعينا ... تنبَّه منها البعض والبعض نائم
كأن ظلال القُضب فوق غديرها ... إذا اضطربت تحت الرياح أراقم
كأن غناء الوُرق ألحان معبَد ... إذا رقصت تلك القدود النواعم[٣]
كأن نثار الشمس تحت غصونها ... دنانير فى وقت ووقت دراهم
كأن ثماراً فى غصون توسوست ... لعارض خفاق النسيم تمائم
كأن القطوف الدانيات مواهب ... ففى كل غصن ماس فى الدوح حاتم

(١) المطافل : ذوات الطفل من الإنس والوحش ، والخشف : الظبى الصغير
(٢) وفات الوفيات للصلاح الكتبي ـ ١ ـ ٣٦٢
(٣) معبد : مغن مشهور فى الدولة الأموية .

وقول العسكري :

لبس الماءُ والهواء صفاء   واكتسى الروض بهجة ورُواء
وكأن النِّهاء صرن رياضا   وكأن الرياض عُدن نهاء(١)
وكأن الهواء صار رحيقا   وكأن الرحيق صار هواء
وتَخال السماء بالليل أرضا   وترى الأرض بالنهار سماء

وقول ابن برد يصف مكاناً — وقد أبدع أيما إبداع — :

كأن ترنُّم الأطيار فيه   أغانٍ فوق أوتار فصاح
كأن تثنِّيَ الأشجار فيه   عذارى قد شربن سلاف راح
كأن الجدول المنساب نصل   صقيل المتن ُهز إلى كفاح
كأن رياضه أبراد وشي   تَعطف فوق أعطاف ملاح

وقول المتنبي يصف طول الليل :

كأن الفجر حِب مُستَزار   يُراعي من دُجُنَّته رقيبا
كأن نجومه حلي عليه   وقد حُذيت قوائمه الجَبوبا(٢)
كأن الجو قاسي ما أقاسي   فصار سواده فيه شحوبا
كأن دجاه يجذبها سهادي   فليس تغيب إلا أن يغيبا

وقول علي بن محمد الكوفي — وقد تخلص منه إلى المدح — :

نجوم أُراعي طول ليليَ بُرَّجها   وهنّ لبُعد السير ذات لُغوب
كأن التي حول المجرة أُوردت   لتكرعَ في ماء هناك صبيب
كأن رسول الصبح يخلط في الدجى   شجاعة مِقدام بجبن هَيوب
كأن اخضرار الفجر صرح مُمَرَّد   وفيه لآلٍ لم تُشن بثقوب

---

(١) النهاء بالكسر : جمع نهى بالكسر والفتح وتخفيف الياء وهو الغدير .
(٢) الجبوب بالفتح : الأرض .

كأن سواد الليل فى ضوء صبحه سواد شباب فى بياض مشيب
كأن نذير الشمس يحكى بنشره عليَّ بن داود أخى ونسيبى

وقول الخفاجي — وقد عارض بها قصيدة ابن هانىء المتقدمة — وقد تخلص فيها إلى المدح أيضاً :

كأن الدجى لما تولَّت نجومه مُدبِّر حرب قد هزمنا له صفا
كأن عليه للمجرة روضة مفتحة الأنوار أو نَثرة زَغْفا [١]
كأنا وقد ألقى إلينا هلاله سلبناه جاما أوقصمنا له وَقفا [٢]
كأن السها إنسان عين غريقة من الدمع يبدو كلما ذرفت ذرفا
كأن سهيلا فارس عاين الوغى ففر ولم يشهد طراداً ولا زحفا
كأن سنا المريخ شُعلة قابس تخطفها عجلان يقذفها قذفا
كأن أفول النسر طرف تعلقت به سِنة ما هبَّ منها ولا أغفى
كأن نصير الملك سل حسامه على الليل فانصاعت كواكبه كَشْفا

ولحازم صاحب المقصورة :

كأن الثريا كاعب أزمعت نوى وأمَّت بأقصى الغرب منزلةً شَحْطا
كأن نجوم الهقعة الزُّهر هودج لها عن ذُرا الحَرف المناخة قد حُطَّا [٣]
كأن رشاء الدلو رشوة خاطب لها جعل الأشراط فى مهرها شرطا [٤]
كأن السها قد دَقَّ من فرط شوقه إليها كما قد دقق الكاتب النَّقطا
كأن سهيلا إذ تناءت وأنجدت غدا يائساً منها فأتهم وانحطَّا
كأن خفوق البرق قلب متيم تعدَّى عليه الدهر فى البين واشتطا

---

(١) النثرة : الدرع اللينة الواسعة . (٢) الوقف : السوار .
(٣) الهقعة : ثلاثة كواكب فوق منكب الجوزاء كالأثافي ، والحرف : الناقة القوية .
(٤) الأشراط : ثلاثة كواكب اثنان منهما قرنا الحمل .

كأن الذى ضم القوادم منهما هوى واقعا للأرض أو قُصَّ أو قُطا
كأن أخاه رام فوتاً أمامه فلم يَعدُ أن مداالجناحين وارتطا(١)

وقول الحلبي الدمشقي الحنبلي :

وكم ليلة سامرت فيها نجومها كأنىَ راع ضلَّ عنه سوامها
كأن نجوما فى المجرة خُرَّدٌ سواقٍ رماها فى غدير زحامها
كأن سنا الجوزاء إكليل جوهر أضاءت لياليه فراق انتظامها
كأن سهيلا - والنجومُ وراءه - صفوفُ صلاة قام فيها إمامها
كأن الدجى هيجاءحرب نجومُه أسنَّتُها والبرق فيها حسامها
كأن النجوم الهاديات فوارس تَساقط ما بين الأسنة هامها
كأن سنا المريخ شُعلة قابس تلوح على بعد ويخفَى ضِرامها
كأن السها صبٌّ سها نحو إلفه يُراعى الليالى جفنُه لا ينامها
كأن ثرياً أفقهِ فى انبساطها يمينُ كريم لا يُخاف انضمامها

وقول شوقى فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية ، ولعلها أطول ما جاء من هذا النوع ؛ فقد تكررت فيها أداة التشبيه ست عشرة مرة :

كأنا أسود رابضات ، كأنهم قطيع بأقصى السهل حيران مُذئب(٢)
كأن خيام الجيش فى السهل أينق نواشز فوضى فى دجى الليل شُزَّب(٣)
كأن السرايا ساكنات موائجا قطائع تُعطى الأمن طوراً وتُسلب
كأن القنا دون الخيام نوازلا جداول يُجريها الظلام ويسكب

(١) ارتطا : لم يبرح مكانه . (٢) مذئب : فزع من الذئب .
(٣) نواشز : مرتفعة ، وشزب متفرقة .

كأن الدجى بحر إلى النجم صاعد كأن السرايا موجه المتضرب
كأن المنايا فى ضمير ظلامه هموم بها فاض الضمير المحجب
كأن صهيل الخيل ناع مبشر تراهن فيه ضحكا وهى نحب
كأن وجوه الخيل غرا وسيمة درارى ليل طلع فيه ثقب
كأن أنوف الخيل حرا من الوغى مجامر فى الظلماء تهدا وتلهب
كأن صدور الخيل غدر على الدجى كأن بقايا النضح فيهن طحلب
كأن سنا الأبواق فى الليل برقه كأن صداها الرعد للبرق يصحب
كأن نداء الجيش من كل جانب دوى رياح فى الدجى تتذأب(١)
كأن عيون الجيش فى كل مذهب من السهل جن جول فيه جوب
كأن الوغى نار ، كأن جنودنا مجوس إذا ما يمموا النار قربوا (٢)
كأن الوغى نار ، كأن الردى قرى كأن وراء النار حاتم يأدب(٣)
كأن الوغى نار ، كأن بنى الوغى فراش له فى ملمس النار مأرب

ولا خلاف أن الشعراء المفلقين يستطيعون أن يكرروا التشبيهات دون أن يفتروا أو يسفوا كما رأينا فى بعض القطع المتقدمة ، ولكن من الخير أن يهمل الشاعر الجزئيات القليلة القيمة ويصرف همه إلى النواحى البارزة فيصوغها فى صور تركيبية ، فإن توالى التشبيهات المفردة على هذا النمط يجعل الشعر ناضباً شاحباً ، ويسوق إلى التكلف ، ويوقع القارىء فى الضجر

---

(١) تتذأب : تجىء مرة كذا ومرة كذا . (٢) قربوا : قدموا القربان .
(٣) يأدب : يقيم المآدب .

والسآمة ، ومن خصائص الشعر الأصيلة الجنوح إلى التجميع والتركيز والنفور من السرد والتقصى .

التشبيه باعتبار الأداة .

والتشبيه باعتبار الأداة يرد على وجهين :

١ — على جهة الإنشاء ، كقوله - تعالى - : «كأنهن الياقوت والمرجان».

والغرض من كونه إنشاء : أنه لا يحتمل صدقا ولا كذبا .

٢ — أن يرد على جهة الإخبار ، كقوله - تعالى - « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث [1]» .

(١) الطراز — ٣ — ٣٢٧ .

الفصل السادس عشر

الغرض من التشبيه

الغرض من التشبيه عند البيانيين : هو الأمر الحامل على إيجاده .

ولا بد فى كل تشبيه من غرض يرمى إليه ، وإلا كان وقوعه ضرباً من العبث ، لأنه يكون ـ إذ ذاك ـ كلاما ملقى على عواهنه لايجرى إلى هدف ، ولا يسعى وراء غاية ، ومثل ذلك يعد خلفاً من القول وشُعبة من الهذر والهذيان ، وهو أشبه بكلام المجانين والمعتوهين والسكارى ، لأن العقلاء يصونون أقوالهم من السخف والفضول .

وهـــذا الغرض يعود إلى المشبه إلا فى حال قلب التشبيه فإنه يعود إلى المشبه به .

وذلك بحكم الاستقراء ، بل بقضاء العقل ، إذ المشبه أصل فى الكلام وغيره تبع له ، لأنه بمنزلة المحكوم عليه ، أو بمنزلة الموصوف ، أو بمنزلة المقيس بالنسبة إلى المقيس عليه ، وكل ذلك يقتضى عودة الغرض إليه .

وفى عودة الغرض إلى المشبه مقاصد بلاغية مختلفة منها :

١ ــ بيان حال المشبه .

وذلك حينما تكون صفة المشبه به معلومة ، ووصفه المشبه مجهولة أو فى حكم المجهولة ، فيساق التشبيه تمكيناً للذهن من إدراك المشبه وتصوره ، كما فى تشبيه وجه بوجه فى البياض إذا علم لون المشبه به دون المشبه .

وكقولك : الورس : نبات كالسمسم .

وأبو براقش : طائر صغير برى كالقنفذ .

والبُراق : دابة نحو البغل تركبه الرسل عند العروج إلى السماء[1] .

أما إذا كان حال المشبه معلوما قبل التشبيه ، فإن ذلك لا يكون بياناً لحال المشبه ، لأنها معروفة من قبل ، وتعريف المعروف عبث .

وهذا النوع يرد كثيراً فى المسائل العلمية للإفهام والتوضيح ، فهو جزيل الفائدة عظيم النفع ، كما أنه يقع بكثرة فى كلام الناس لصلته القوية بالفطرة ، لأن الإنسان بطبيعته يستظهر بمعارفه المختزنة على الإحاطة بما يجهله ، وحواسنا دائبة العمل فى هذا المضمار . ولا تفتأ تحمل إلينا ألواناً من المعارف الثمينة تزيد فى رصيدنا الثقافى على مدى الزمن ، وهو مايسمى بالعقل المكتسب . مثاله من النثر البليغ قول الرسول ـ صلوات الله عليه ـ :

« مثل المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيباً ولا تُطعم إلا طيبا » .

« أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضا » .

« الحياء من الإيمان كالرأس من الجسد » .

« الناس كأسنان المشط فى الاستواء » .

« أمتى كالمطر لايدرى أوله خير أم آخره » .

« مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأُتْرجّة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مرٌّ ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها » .

ومن الشعر قول طفيل الغنوى :

إن النساء كأشجار نبتن معا منهن مرٌّ وبعض المر مأكول

---

(١) المصباح المنير .

وقول آخر :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهى شم الرياحين

وقول بشار :

كأن الناس حين تغيب عنهم نبات الأرض أخطأه القِطار (١)

وقول المتنبي :

وما الموت إلا سارق دقّ شخصُه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

وقوله :

وما أنا إلا سمهريٌّ حملتَه فزيّن معروضا وراع مسدَّدا (٢)

٢ — بيان مقداره فى القوة والضعف والزيادة والنقص وما إليها .

ولا بد أن يكون المشبه معروف الصفة بوجه عام . ويأتى التشبيه بعد ذلك لتحديدها ، فإن كانت مجهولة أصالة كانت لبيان الحال لا لبيان المقدار، وهذا هو الفرق بينهما .

مثاله من النثر قوله — تعالى — : « وما أمر الساعة إلا كلَمْح البصر أو هو أقرب » .

وقول ابن المقفع : الدنيا نوم نائم ، وحلم حالم .

وقول شوقى : هل دولة الحسن إلا كدولة الزهر ، وهل عمر الصبا إلا أصيل أو سحَر .

ومن الموجز الرائع : أن أعرابيا سئل : كم تشرب من النبيذ ؟ فقال : على قدر النديم .

وقول الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريْث ولا عجَل

---

(١) القطار : جمع قطرة .

(٢) يخاطب سيف الدولة .

وتشبَّه المرأة بالسحابة لتهادبها وسهولة مرها ، وهذا ماتلحقه العين منها ، فأما الخفة فهى كأسرع مار وإن خفى ذلك على البصر ، قال الله ـعز وجلـ: « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .

وقد انتقد الأصمعى على الأعشى هذا البيت وقال : جعلها خرَّاجة ولَّاجة ! هلا قال كما قال الآخر :

ويكرمها جاراتها فيزرنها   وتَعتلُّ عن إتيانهن فتُعذر

والنقد موجه إلى الخروج من البيت لا إلى التشبيه .

وقول عمر بن أبى ربيعة :

قال لى صاحبى ليعلم ما بى   أتحب القتول أخت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالما   ء إذا ما فقدت برد الشراب

وقول أبى تمام :

وفتكتَ بالمال الجزيل وبالعدا   فتك الصبابة بالمحب المغرم

وقول العظامى :

ألا إنما نيران قيس إذا شتوا   لطارق ليل مثل نار الحُباحب[1]

وقول المعتز :

ألا إنما الدنيا كظل غمامة   إذا مارجاها المستظل اضمحلت

وقول المتنبى :

والغنى فى يد اللئيم قبيح   قدرَ قبح الكريم فى الإملاق

وقول شاعر :

يا ليلة لم تبن من القصر   كأنها قبلة على حذر

---

(١) نار الحباحب ونار أبى حباحب : تضرب مثلا للشىء يروق ولا طائل تحته .

لم تك إلا «كلا» و«لا» ومضت تدفع فى صدرها يدُ السَّحَر[1]

والتشبيه هنا يفيد فى الجملة ما يفيده ذكر الخاص بعد العام ؛ فإن مشية الحبيبة التى شبهها الأعشى بمر السحابة ، يمكن أن تشبه بأشياء كثيرة يصعب حصرها ويعز تكييفها ، وتوقع فى البلبلة والاضطراب ، لكثرة مايتوارد على الذهن من المعانى المتماثلة .

ولكنه حين ذكر مر السحاب نصَّ على مشية معينة يحيط الذهن بصورتها ، فتمثلت لها فى النفس هيئة خاصة تجعلها متميزة من بين المشيات جميعاً ، وبهذا بدت الصورة واضحة وزال ما يكتنفها من الغموض واللَّبس ، بعد أن كانت شيئاً يُلمح فى جملة أشياء تُنازعه الوجود .

٣ — تقرير حاله .

وهو نوع من بيان الحال ، ولكنه بيان على وجه التمكين بتوضيح حال المشبه فى ذهن السامع ، وتقوية شأنها ، وتحقيقها فى نفسه ، وتأكيدها فى خاطره .

ويتم ذلك بإبرازها فى صورة أقوى وأظهر وأبهر حين تشبَّه المعنويات المجردة الموهومة بالحسيات المشاهدة أو المتخيلة ، وهو الغالب الكثير ، كقول ابن المعتز :

ويجرح أحشائى بعين مريضة كما لان متن السيف والحد قاطع

فجرح الأحشاء بالعين المريضة معنى دقيق يلطف على بعض الأذهان ، حتى ليُتعجب من حقيقته ، أو يشك فيها ، لأن المرض ضعف ، والضعف لا يُقوى معه على شىء .

(١) كلا ولا : يشبه به الزمن القصير .

ثم إن الصورة — على تبيُّنها للمثقف الخبير بأساليب الغزل — عليها ظلال من الخفاء ، لأنها تتخيل ولا تحس ، وتلمح بالفكر لا البصر ، فإذا جاء التشبيه وصبها فى قالب حسى وضحت معالمها فارتسمت فى شبكة العين ، ونقشت فى صحيفة الذهن ، وأصبح مقبولا معقولا مسلّما أن تجرح العين بجفنها الفاتر وطرفها الناعس ، لأن السيف لا يمنعه لين متنه أن يقد الأجسام ويحز الرقاب بنصله المرهف الحاد .

ومثل ذلك تجده فى قول الصنوبرى :

يحن الفتى يُخبرن عن أخلاقه ... كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقول المظفر الآمدى :

قل للذين جفونى إذ لهجت بهم ... دون الأنام وخيرُ القول أصدقه
أحبكم وهلاكى فى محبتكم ... كعابد النار يهواها وتحرقه

وقول ابن رشيق :

أحب أخى وإن أعرضت عنه ... وقلَّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض ... كما قطِّبت فى وجه المدام

وقوله :

فى الناس من لا يُرتجى نفعه ... إلا إذا مُسَّ بأضرار
كالعود لا يُطمع فى طيبه ... إلا إذا أحرق بالنار

وقول ابن العميد :

ذو مَلَّة يأتيك أثبتُ عهدِه ... كالخط يرسم فى بسيط الماء [١]

وقول أبى الصلت الأندلسى فى صديق ثقيل — وقد أجاد — :

(١) الملة : اسم مرة من الملال .

لى جليس عجبت كيف استطاعت   هذه الأرض والجبال تقلُّه
أنا أرعاه مكرها وبقلبي   منه ما يُقلق الجبالَ أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ   ه ولكن أصونه وأُجِله

ومن روائع أبي نواس :

سخُنت من شدة البرودة حتى   صرت عندى كأنك النار
لا يعجَب السامعون من صفتى   كذلك الثلج بارد حار

فهذا كلام فلسفى ، وفيه المذهب الكلامى [١] :

وهو يدل على نظره فى علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشىء إذا أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذياً .

ووجدت فى بعض كتبهم لا ينبغى للعاقل أن يغتر باحتمال السلطان وإمساكه ، فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وُطئت فلم تلسع لم يغتر بها فيعود لوطئها ، أو سجيح الطبع بمنزلة الصندل الأبيض البارد إن أفرط فى حكه عاد حاراً مؤذيا [٢].

ومن النثر الآية الكريمة : « والذين كفروا أعمالُهم كسراب بقِيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا ووجد اللهَ عنده فوفاه حسابَه والله سريع الحساب » .

« وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .

والحديث الشريف : « مثل الذى يعلِّم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه » .

ويروى : « مثل الفتيلة تضىء للناس وتحرق نفسها [٣] » .

---

(١) العمدة ــ ٢ ــ ٦٥ .   (٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ــ ٥٠٧
(٣) أسرار البلاغة ــ ٩٤ .

وقولهم : « التعليم فى الصغر ، كالنقش فى الحجر ، والتعليم فى الكبر ، كالنقش فى الماء .

وكما يأتى فى تشبيه المعقول بالمحسوس ـ كما مر ـ يأتى فى تشبيه المحسوس بالمحسوس إن كان أحدهما أقوى فى ظهور الحجة ، ولكن هذا النوع أقل من سابقه .

مثاله قول شوقى :

وكم صيَد بدا لك من ذليل كما مالت من المصلوب عُنُق

وقول الشاعر القروى :

أبكى وأضحك للعذاب كرضع شد الوليد بشعرها المسترسل

وقول بعض العصريين :

بَسمات تحت الدموع كما افترّ م عن البرق مُزنة وطفاء

وقد ذكر البلغاء العلة فى استرواح النفس إلى هذا النوع من التشبيه ، وأشادوا بقيمته البيانية فى إسهاب عليه طابع علم النفس ، فقالوا : إن المعانى العقلية وإن كانت ثابتة مقطوعا بها متيقنة ، خلا أن التمسك بالمحسوسات والتعويل عليها فى المشابهة أولى وأحق ، لكونها تفيد زيادة قوة ومزيد إيضاح ، لما يحصل لها من الوثاقة واطمئنان النفس إليها ، وانشراح الصدر بها .

وقد أشار الأصمعى إلى ذلك حين استقرضه صديق له من أخلص أصدقائه ، فقال : نعم وكرامة ! ولكن سكن قلبى برهن يساوى ضعف ما تلتمسه .

فقال له : يا أبا سعيد ، ألست واثقا بى ؟

قال : بلى ! ولكن هذا خليل الله كان واثقا بربه حين قال : « رب أرنى كيف تحيي الموتى ، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى [1] » .

---

(١) ثمار القلوب ــ ١٥ .

وبخاصة أن الأمور العقلية متأخرة فى الحصول لدى النفس عن الإدراكات الحسية فى الزمن ؛ لأن النفس فى مبدأ الفطرة خالية من العلوم فلا جرَم أن إلف النفس بالحسيات أتم من إلفها بالعقليات[1]، فإذا ذكرت المعنى العقلى الجلى ثم عقبته بالتمثيل الحسى ، فكأنك نقلت النفس من المعنى الغريب إلى المعنى القريب .

ولو كان الرجل مثلا على طرف نهر فى وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له : بأنه لا يحصل من سعيه على شىء ، فأدخل يده فى الماء وقال : انظر هل حصل فى كفى من الماء شىء ، فكذلك أنت فى أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول ، والنطق بذلك دون الفعل .

ولو أن رجلا أراد أن يضرب لك مثلا فى تنافى الشيئين ؛ فقال : هذا وذاك لا يجتمعان ، وأشار إلى ماء ونار حاضرين ، وجدت لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول ، فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ !
أو تمثل بقول الشاعر :

ومكلِّف الأيامِ ضد طباعها ‏ ‏ ‏ متطلِّب فى الماء جَذوة نار

وإنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التى تؤديه ، وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع فى النفوس منزعا ، كقول حُندج بن حندج المرى :

فى ليل صول تَناهى العرض والطول ‏ ‏ ‏ كأنما ليـله بالليل موصول

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقول بشرمة بن الطفيل :

ويوم كظل الرمح قصَّر طوله ‏ ‏ ‏ دم الزِّق عنا واصطفاق المزاهر[2]

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى فى المبالغة من هذا ، فظل الرمح

---

(١) قال الجاحظ : ليس يريدون به الطول فقط ، ولكنهم يريدون مع الطول : أنه ضيق غير واسع . الحيوان ــ ٥ ــ ٥٥ .

على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم : كأنه لا آخر له .

وكذلك تقول : يوم كأقصر ما يتصور ، وكأنه ساعة ، وكلمح البصر ، وكلا ولا ، فتجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهيم القطا [1] .

وقول جرير :

ويوم كإبهام القطاة محبب ... إلى هواه غالب لىَ باطله

وقول ابن المعتز :

بُدلت من يوم كظل حَصاة ... ليلا كظل الرمح غير مُوات

وقول آخر :

كأنهمُ كُلى غنم الأضاحى ... إذا قاموا حسبتهم قعودا

وقول آخر :

ظللنا عنــــد باب أبي نعيم ... بيوم مثل سالفة الذباب

وكذلك تقول : فلان إذا هم لم يزُل عن ذكره وقلبه ، وقصَر خواطره على إمضاء عزمه ولم يشغَله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لا ترى فى نفسك له هزة ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثا ساذجا وخبراً غفلا ، حتى إذا قلت :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طربة ، لا تملك دفعها عنك ، ولا تقل

(١) والشعراء يشبهون الشىء الصغير القصير بإبهام القطا ، والحبارى وأظفور العصفور . ثم أراد الفتح بن العميد أن يتبدع عليهم فى اللفظ والمعنى ، فكتب إلى أبى الحسين بن فارس رقعة صدرها : وصلت رقعة الشيخ فكانت أصغر من أنمل النمل .

ذاك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئاً منه ، فليس الأصل له ، بل لأنه أراك العزم واقفا بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين [١] .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن اللغة آلة لنقل الفكر ، وهى من هذا القبيل عائق يعوق نقله مع أنها من ضرورياته .

ويظهر ذلك جليا من تصور الفرق بين نقل المعانى البسيطة بواسطة اللغة وبواسطة الأصوات والإشارات الطبيعية ، فإن المعنى المنقول إلى أذهاننا بواسطة هذه الأخيرة أفعل جداً بنا منه إذا ترجم إلى الألفاظ .

فمثلا ضع إصبعك على أنفك وزمّ شفتيك قليلا إلى الأمام ، أو قل : لا تتكلم .

ثم تصور شدة الفرق فى التأثير بين هذين التعبيرين .

ومثل هذا ، قولك : لا أدرى ، وإشارتك بهز كتفيك مع رفع الشفة السفلى قليلا إلى الأعلى ، بحيث يظهر تغضّن أطرافها ، بل ما من إشارة كلامية تساوى إشارة فتح العينين ، ورفع الحاجبين دلالة على التعجب . [٢]

ولأمر ما قالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة ، ولسان الحال أفصح من لسان المقال .

وجعلوا للعيون لغة تعرب عن مكنونات النفس .

ومن ذلك قول بعض العصريين :

دعى عيونك تلقانا بلا حجب — فللعيون مناجاة وأسرار

---

(١) أسرار البلاغة ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٢) نهاية الإيجاز ـ ٧٥ ـ مواهب الفتاح ـ ٣ ـ ٣٩٧ ـ الطراز ـ ١ ـ ٣٥١ ـ فلسفة البلاغة لجبر جومط ـ ١٤ .

وقوله :

هـــــــذه النظرة تنبي منك عن سر دفين
هو — فى ظنىّ — حب حقق الله ظنـــــــونى

وكثيراً ما رأينا المعارك الدامية تثور بين الدهماء والأغفال ، لإشارة بإصبع ، أو غمزة بعين ، أو كسر حاجب ، أو إخراج لسان ، لأن ذلك يفعل فى نفوسهم من تهييج الحفيظة ، وإلهاب الغيظ والحنق ما لا تفعله الشتائم الصريحة .

ومن هنا عظمت الحاجة إلى وسائل الإيضاح فى المحاضرات العامة والدروس العلمية ؛ كالسينما والفانوس السحرى والرسوم والصور والنماذج المجسمة وعمل التجارب ؛ لإدخال السرور على النفوس ، واسترعاء الانتباه ، وشرح الغامض ، وتجلية الخفى .

وما من شك فى أن لهذه الأشياء أثر كبير فى إدراك الحقائق ، وتحصيل المعارف ، وتثبيت المعلومات فى النفس ، وصدق «جورج ديهامل» فى قوله : ومن الممكن أن تكون للصورة فى بعض الأحوال قدرة على العبارة تفوق أدق حيل التدليل العقلى ، وهى لا غنى عنها فى بعض فروع العلم .[1]

ولهذا يرى ابن الأثير : أن هذا الضرب من أغراض التشبيه أبلغ من سابقيه « بيان الحال وبيان المقدار » لتمثيله المعانى الموهومة بالصـــور المشاهدة .[2]

ويجب أن يفطن إلى دقة الفرق بين ما جاء لتقرير حال المشبه ، وبيان مقداره .

---

(١) دفاع عن الأدب — ٣٦ « ترجمة الدكتور مندور » .
(٢) المثل السائر — ١٥٧ .

فما فيه بيان المقدار إن قصد من حيث التقرير ؛ لما فيه من قوة الظهور والتمام ، كان من التقرير .

وإن قصد من حيث مجرد فهم الكيفية ، كان من بيان المقدار .[1]

فمثلا قول الحسن بن وهب :

مداد مثل خافية الغراب   وأقلام كرهفة الحراب

يصح أن ينظر فيه إلى مبلغ السواد ، والرهافة فقط ؛ فيكون لبيان مقدار الحال .

ويصح أن ينظر فيه إلى ما خلعه المشبه به على المشبه : من توكيد ووضوح فيكون للتقرير .

---

(١) مواهب الفتاح ـ ٣ ـ ٣٩٩ .

الفصل السابع عشر

٤ — بيان إمكان المشبه

هذا الضرب داخل فى بيان الحال ، والمقصود : بيان أن المشبه أمر جائز الوقوع على صفة مخصوصة .

وذلك فى كل أمر غريب لا يظهر وجه إمكانه ، فيسهل أن يُمارى فى صدقه ، وتدعى استحالته ، فيؤتى بالتشبيه دليلا على إثباته ، بأن تلحق الحال الممتنعة بحال مسلّمة الإمكان لوقوعها ، كقول المتنبي :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدِن الذهب الرغام

فقد ادّعى أنه أمة وحده ، وجنس آخر متميز من الناس ، لا يعد منهم فى قليل ولا كثير ، وإن لابسهم فى عيشهم ، وشاركهم فى حياتهم .

ولما كان من السهل أن يسفّه رأيه ويفنّد قوله ، ويرد عليه مدّعاه ، لأن الناس يرونه رأى العين بشراً سوياً كسائر الخلق ، ولأن من الأعاجيب أن يسمو بعض أفراد الجنس فى مدارج الكمال الخاصة به ، حتى يصير شيئاً لا تكاد تربطه رابطة بأصله الذى تفرع عنه ، احتاج أن يقيم على ذلك دليلا لا يتأتّى إبطاله حتى يبرأ من مذمة الكذب ، ويخرج من نقيصة الإحالة والتهجم على الدعاوى الغريبة من غير سلطان مبين .

وكان دليله أن الذهب النفيس يسكن جوف التراب ، ولكن العقول تسلم تسليما مطلقاً بأنه يخالفه مخالفة تامة ، ولا يمت إليه بنسب ولا سبب .

فالأمر — كما ترى — لا يعدو أن يكون قضية وردت فى صدر البيت ،

يظهر بطلانها بادىء النظر ، فيأتى التشبيه فى العجز برهاناً على صدقها ، وجواز وقوعها .

والفرق بين هذا الغرض وغيره من أغراض التشبيه : أن المشبه فيه يقابل بالإنكار ابتداء ، ويعد وجوده مستحيلا .

أما فى غيره فلا يَرد عليه الإنكار ، بل يقابل بالتسليم المحض .

ومن أمثلته البارعة قول أبى تمام :

يأيها الملك النائى بغــــرته ... وجودُه لمرجى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

وقول أبى فراس الحمدانى :

ولو سدَّ غيرى ما سددت اكتفوا به ... وما كان يغلو التبر لو نفَق الصُّفر(١)

وقول ابن الرومى — وقد مثل به السكاكى — :

قالوا أبو الصقر من شيبان َقلت لهم ... كلا لعمرى ولـكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن ذُرا شرف ... كما علت برسول الله عدنان

وقول أبى الفتح البستى :

فالحر حر عزيز النفس حيث ثوى ... والشمس فى كل برج ذات أنوار

وقول الحصرى :

أبا بكرٍ إن أصبحت بعض ملوكهم ... فإن الليالى بعضُها ليـلة القدر

وقول ابن مسعويه الخالدى :

لا يعجبنَّك حسن القصر تنزله ... فضيلةُ الشمس ليست فى منازلها

وقول عبد الصمد بن بابَك :

تقاعس عنك الفاخرون فأحجموا ... وخيل المعالى غير خيلُ المواكب

---

(١) نفق : راج ، والصفر : النحاس الأصفر .

فإن زعم الأملاك أنك منهم ... فخاراً فإن الشمس بعض الكواكب

وقول مهيار — بعد إسلامه يخاطب قومه — :

لئن كنت منكم فإن الهجينِ ... يخرج فى الفلتات النجيبا (١)

وقوله :

يُطربه البيت وهو يحزُنه ... ومن أنين الحمامة الطرب

وقول صَرَّدُر :

إطراقه يُخشى ويُرهب صمته ... والسيف محذور وإن لم يُشهر

وقوله :

من الورى هو لكن فاتهم كرما ... كذلك الدر والحصباء أحجار

وقول أبى الفتح البستى :

أبوك حوى العليا وأنت مبرِّز ... عليه إذا نازعته قَصب المجد

وفى الخمر معنى ليس للكرم مثله ... وفى النار نور ليس يوجد فى الزَّنْد

وخير من القول المقدم ـ فاعترف ـ ... نتيجتُه والنحل يُكرم للشهد

وقوله :

أبوك كريم غير أنك سابق ... مداه بلا ضيم عليه ولا ذَيْم (٢)

فلا يعجبنَّ الناس مما أقوله ... وأقضى به فالغيث أندى من الغيم

وقول البارودى :

فلا عجب إن لم يصُرنىَ منزل ... فليس لعِقبان الهواء وكور

وقد كثر هذا النوع فى شعر المتنبى ؛ لولوعه بالحكمة وضرب المثل ، وجريه وراء المعانى الدقيقة .

---

(١) الهجين : غير الأصيل ، وأصله : من كان أبوه من العرب وأمه من العجم .

(٢) الذيم : العيب . (٢) يصوره : يضمه .

ومن ذلك قوله :

ماكل ما يتمنى المرء يُدركه   تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

من يهُن يسهل الهوان عليه   ما لجُرح بميّت إيلام

ومن الخير بُطء سيبك عنى   أسرعُ السحب فى المسير الجَهام

لا تحسبوا من قتلتم كان ذارمق   فليس تأكل إلا الميْتَةَ الضَّبُع

لا يُعجبنّ مَضيما حسنُ بِزته   وهل تروق دفيناً جودةُ الكفن

إن السلاح جميعُ الناس تحمله   وليس كل ذواتِ المخلب السَّبُع

وله البيت المشهور فى مدح سيف الدولة من قصيدة يرثى بها والدته — وهو من قلائده — :

فإن تفقِ الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

يريد أن يقول : إن الممدوح قد فاق الناس جميعاً بحيث لم يبق بينه وبينهم مشابهة بوجه ، بل صار أصلا برأسه ، وجنساً بمفرده ، وهذا فى الظاهر كالممتنع ؛ لاستبعاد أن تتناهى بعض آحاد النوع فى الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس منها ، فاحتيج لهذه الدعوى وبيّن إمكانها : بأن شبه حاله بحال المسك الذى هو من الدماء ، ثم لا يعد منها لما فيه من الأوصاف التى لا توجد فى الدم [١] .

وهذا معنى قد اخترعه المتنبى [٢] ، وكرره فى تفضيل البعض على الكل فأحسن غاية الإحسان حيث قال :

فإن يك سَيّارُ بن مُكرَم انقضى   فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

---

(١) نهاية الإيجاز — ٧٤   (٢) يتيمة الدهر للثعالبى — ١ — ١٠٨

وقال :

وإن تكن تغلب الغلباءُ عنصرها   فإن في الخمر معنى ليس في العنب[١]

غير أن ابن وكيع يقول : لا أعرفه منظوما[٢] لكن وجدته في منثور ؛ وهو أنه قيل : الناس يتفاضلون تفاضل الدماء ؛ فمنها مسك يباع ، وعلَق يضاع[٣] .

وعلى ذلك لا يكون المعنى من اختراع المتنبي .

وقبل بيت المتنبي السابق :

فإن تفق الأنام وأنت منهم . . . .

قوله يخاطب به سيف الدولة :

رأيتك في الذين أرى ملوكا   كأنك مستقيم في محال

وروى أن بعض من حضر مجلس سيف الدولة اعترض على المتنبي في قوله : « مستقيم في محال » : بأن المستقيم لا يضاد المحال ، وإنما يضاد المعوج .

فقال له سيف الدولة : هب أن القصيدة جيمية فما كنت تصنع بالبيت الثاني ؟

فقال المعترض :

فإن البيض بعض دم الدجاج

فقال سيف الدولة ارتجالا : حسن ! إلا أنه يصلح أن يباع في سوق الطير ، لا أن يمدح به الملوك[٤] .

---

(١) تغلب : قبيلة سيف الدولة والضمير في عنصرها لأخته التي يرثيها المتنبي .

(٢) يريد معنى قول المتنبي :

فإن تفق الانام . . . . . .

(٣) العلق : بفتح العين واللام : الدم عامة أو الشديد الحمرة أو الغليظ أو الجامد .

(٤) عروس الأفراح — ٣ — ٣٩٦

وقد أعجب الشعراء ببيت المتنبي كل الإعجاب فأخذوه على جهة التضمين .

فمن ذلك قول السراج الوراق :

وأصيدُ ظلّ يدرك يوم صيد … طرائدَه بجُرد كالسَّعالى
فإن عبقت لنا بمناه مسكا … فإن المسك بعض دم الغزال

وقول الشهاب بن بنت الأعز :

وقالوا بالعذار تسلّ عنه … وما أنا عن غزال الحسن سالى
وإن أبدى لنا خداه مسكا … فإن المسك بعض دم الغزال

وأخذ أبو بكر الخوارزمى معنى البيت :

فإن تفق الأنام وأنت منهم . . . .

ومعنى البيت الآخر :

وما أنا منهم بالعيش فيهم . . . .

فقال :

فديتك ما بدا لى قصد حُرّ … سواك من الورى إلا بدالى[1]
وإنك منهم وكذاك أيضا … من الماء الفرائد واللآلى
وتسكن دارهم وكذاك سُكْنى م الحجارة والزمرد فى الجبال

والفرق بين صياغة الشعرين كالفرق بين شاعرية المتنبي والخوارزمى .

وأشار شوقى إلى البيت الأول إشارة بارعة فى قوله من قصيدة يمجّد بها استقلال سوريا :

رسولُ الصابرين أَلمّ وهنا … وبلّغنى التحيةَ والسؤالا

(١) بدالى الثانية معناها : ندم . هكذا يستعمل كثيراً بدون فاعل ، وكذايقال فيمن تغير رأيه وفاعله ضمير المصدر الذى فى ضمنه ، لأنهم قد صرحوا به ، قال فى المجمل : يقال : بدا له فى هذا الأمر بداء : أى تغير رأيه عما كان عليه .

دنا مني فناولني كتابا أحست راحتاي له جلالا
وجدت دم الأسود عليه مسكا وكان الأصل في المسك الغزالا

والتشبيه المسوق لبيان الإمكان: تشبيه ضمني مكني عنه كما جاء في المطول، لأنه لم يذكر صراحة بل كناية بذكر لازم التشبيه وهو وجه الشبه — أي فوقانه الأصل — وإرادة الملزوم وهو التشبيه.

فكأنه شبه هذه الحال — وهي فوقانه جميع الأنام — بحال المسك وفوقانه سائر الدماء، والجامع الفوقان في كل منهما.

ولا يخفى ما في ذلك من التكلف.

وقد ذكر بعض البلغاء تعليقا على قول المطول: «ويسمى هذا التشبيه ضمنيا ومكنيا عنه»: أي إنه إنما سمي ضمنيا لأنه يفهم من الكلام ضمنا، وسمي مكنيا عنه لأنه خفي ومستتر.

وهذا التعليل أحسن من سابقه [1].

ومهما يكن فهو تشبيه لا يرد على صور التشبيهات المعروفة غالبا[2]، بل يلحظ في تضاعيف الكلام، وفيه يقع المشبه به دائما دليلا على إمكان المشبه.

وإنما قلنا غالبا لأنه قد يأتي على صورة الصريح كما أشار إليه الثعالبي في قول المتنبي المتقدم:

فإن يك سيار بن مكرّم انقضى فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

وكذا في قول خلف بن عبد العزيز النحوي:

ما أنت بعض الناس إلا مثلما بعض الحصى الياقوتة الحمراء

وجه الشبه في الأغراض الأربعة:

يرى الخطيب: أن هذه الأغراض الأربعة المتقدمة، تقتضي أن يكون وجه الشبه في المشبه به أتم: أي أوفى وأقوى وأكمل وأحكم.

---

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣٩٨

وأن يكون المشبه به بوجه الشبه أشهر: أى أعرف وأسير ، وذلك عند المخاطب بالتشبيه وإن لم يكن أشهر فى الواقع ، لأن الأمر - كما قال الفنرى - : بحسب الرسوم والعادات ، فقلما يوجد وصف لأمر يعم اشتهاره عند كل الناس [١] .

وسر اقتضاء أشهرية المشبه به بوجه الشبه جلى واضح .

ذلك أن المشبه به كالمبيّن المعرف المشبه ، فيجب أن يكون أوضح لأن التعريف يكون بالأوضح؛حتى يتحقق الغرض منه وهو الكشف والبيان . ولو لم يكن كذلك للزم أن يكون فى التشبيه تعريف مجهول بمجهول ، وهو ينافى حقيقة البلاغة .

ولهذا ضُعف قول البحترى :

على باب قِنّسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد

فإنه رب مداد فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى .

ولهذا قال ابن الرومى :

حبر أبى حفص لعاب الليل يسيل للإخوان أى سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل [٢] .

ويقول العسكرى : إن البحترى أخذ بيته المتقدم من قول ذى الرمة ، — وقصر فى الأخذ — :

ودوِّية مثل السماء عسفتها وقد صبغ الليل الحصى بسواد[٤]

وليس البيت عنده على السكة المختارة .

ويقول فى قوله : «لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد» : من بعيد الاستعارة[٥].

(١) حاشية الدسوقى ـ ٣ ـ ٣٩٣ (٢) الإيضاح — ١٧٠

(٣) ديوان المعانى ـ ١ ـ ٣٤٤ (٤) دوية : الفلاة الواسعة .

(٥) الحق أن البيت تشبيه لا استعارة لذكر الطرفين فيه ، والتقدير : لاطخ جوانبه بمداد من ظلمة .

ويقول الحصرى[٤] : إن الأصل فى هذا قول أعرابى :

والليل قد صبغ الحصى بمداد

وقد أخذه أبو نواس أيضاً فقال :

قد اغتدى والليـــل كالمداد والصبح ينفيه عن البـــلاد
طرد المشيب حالك السواد

ويظهر من توافر عدة شعراء على تشبيه الليل بالمداد ، أنه تشبيه صائب وأنه لا معنى لنقده ، فربما كان الحبر فى عهدهم شديد الحلوكة أكثر من الليل ، بحيث يمكن أن يعتبر أصلا له .

وقد رأينا الميكالى يتابعهم على ذلك فى وصفه للشمعة فيقول :

وليل كلون الهجر أو ظلمة الحبر نصبت لراعيه عموداً من التبر
يشق جلابيب الدجى فكأنما بدا بين أيدينا عمود من الفجر

ومن الصعب أن نعتقد أن هؤلاء الشعراء جميعهم قد وقعوا فى الخطأ تقليداً للسابق .

وكذلك عابوا — للسبب المتقدم — قول ابن قلاقس :

أما ترى الصبح يخفى فى دجنته كأنما هو سقط بين أحشاء

فإن بهجة الصبح فى أواخر الليل أبهج من السقط بين الأحشاء ، والمشبه أعلى وأغلى من المشبه به[١] .

ورأيى أيضاً : أن هذا التشبيه غير معيب إذ المراد منه مطلق الاستتار وحده ، لا إرادة شىء آخر كالبهجة والإشراق ، فهو يعنى أن الصبح جنين لمّا تتمخض عنه الظلماء كالسقط فى غيابة الرحم .

وفى معناه يقول السرى الرفاء :

قدأغتدى نشوان من خمر الكرى أسحب بردىَّ على بُرد الثرى
والصبح حمل بين أحشاء الدجى

(١) زهر الآداب — ٣ — ١٨ — ١٩ (٢) خزانة الأدب للحموى — ٢٢٥

وبديهى أن اعتراضنا على الشعر الذى مثلوا به ، لا على القاعدة المتعلقة « بالأتمية » و « والأعرفية » فى وجه الشبه بالنسبة للمشبه به .

ويرى بعضهم : أن تقرير المشبه فقط هو الذى يقتضى ذلك ، لأن المراد تمكين ذلك الوجه فى النفس وتقريره عندها حتى تطمئن إليه ، وتثبت عليه ، وتدفع ما يساورها من الأوهام والوساوس والشكوك بشأن الفائدة الحاصلة منه .

فالأتم والأشهر أمكن عندالنفس من غيره لإلفهاله وميلها إليه ، وعدم إمكان دفعه بالوهم والتساهل والغفلة ، فالتشبيه بالوجه الذى يكون كذلك أجدر وأحق بالزيادة التى هى تقرير المقصود .

وأما ما عداه فلا يقتضى الأتمية وبخاصة بيان المقدار ، لأن المخاطب قد عرف الحال فى المشبه ، وهو طالب أو كالطالب لمقدار تلك الحال ، فلا بد أن يكون الوجه الذى هو الحال المطلوب مقدارها فى المشبه به على قدره فى المشبه من غير زيادة ولا نقصان، وإلا لزم الكذب والخلل فى الكلام[1].

والتحقيق عند التفتازانى : أن بيان الإمكان والحال لا يقتضيان إلا « الأشهرية » فقط ليصح القياس والاحتجاج فى الأول ، ويعلم الحال فى الثانى .

ومعنى ذلك : أن بيان المقدار والتقرير يقتضيان « الأتمية » فوق « الأشهرية » .

وهذا مشكل بالنسبة إلى بيان المقدار ، فقد تقرر — كما تقدم — أن تحقق الأتمية فيه يورثه الخلل[2] .

---

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٠١

(٢) انظر شروح التلخيص — ٣ — ٤٠٠

الفصل الثامن عشر

٥ — تحسين المشبه أو تقبيحه

وذلك للترغيب فيه أو للتنفير منه .

والطريق إلى هذا : ربطه بمشبه به حسن أو قبيح ، فتسرى إليه صفات الحسن أو القبح ؛ فتميل إليه النفوس أو تميل عنه عملا بالقاعدة المقررة فى الجبلّات ، وهى أن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، تحت تأثير البيان وخلابته مصداقا لقول ابن الرومى :

فى زُخرف القول ترويج لباطله — والحق قد يعتريه سوءُ تعبير

تقول هذا مُجَاج النحل تمدحه — وإن ذَمَمْت فقل قيءُ الزنابير

مدحا وذما وما جاوزت وصفَهما — حسنُ البيان يُرى الظلماءَ كالنور

ولله ابن سُكّرة الهاشمى حيث يقول :

والشعر نار بلا دخان — وللقوافى رُقًى لطيفهْ

لو هُجِيَ المسكُ وهو أهل — لكل مدح لصار جيفهْ

كم من معلًّى المقام سام — هوت به أحرف خفيفه

التحسين :

ويمكن تقسيم التحسين إلى ثلاثة أقسام :

١ — تحسين شيء حسن قصدَ المبالغة فى وصفه ، كقول البارودى يصف مكانا خصيباً :

فترابه نفَسُ العبير ونبته — سرَق الحرير وماؤه فَلَق الضحا

وقول ابن المنير فى الرفسة :

عِلِق الفؤاد بِرَفْسة شبّهتها ... بجزيرة ما بين بحر يزخَر
الزبد بحر والفطير حبابه ... والشهد موج والجبال السكر (١)

٢ — تحسين شيء تختلف فيه أهواء النفوس كسواد النساء وطولهن ، فإن بعض الناس يتعشقه ، أو لا ينفر منه على الأقل ، وكالشُّقرة والبَدانة إلى غير ذلك مما يعسر أن تجتمع عليه الطباع والأمزجة والأذواق .

فمن ذلك قول بن رشيق فى سوداء :

دعابك الحسن فاستجيبى ... يا مسك فى صِبغة وطيب
تيهى على البيض واستطيلى ... تيهَ شباب على مشيب
ولا يَرُعك اسودادُ لون ... كمقلة الشادن الربيب
فإنما النور عن سواد ... فى أعين الناس والقلوب

وقد أخذه ابن قَلاقس فقال :

رب سوداء وهى بيضاء معنًى ... نافس المسكَ فى اسمها الكافور
مثل حَبّ العيون يحسبه النا ... س سواداً وإنما هو نور

كما أخذه السيد توفيق البكرى فى وصف باريس ، فقال : يقْبل المرء على باريس فإذا حدائق وقصور ، وليل كسواد العين كله نور .

وكقول الزركشى فى دنانير البرمكية .

أشبهك المسكُ وأشبهتِه ... قائمةً فى لونه قاعدهْ
لا شك إذ لونكما واحد ... أنكما من طينة واحده

وقد أخذه ابن الرومى وأضاف إليه أشياء أخرى توسعاً واقتداراً ،

---

(١) الرفيس : طعام نفيس ويسمى رفسة ، وهو من لباب البر والزبد الطرى والسكر والفستق والزعفران وماء الورد والمسك . شفاء الغليل — ٩٥

فقال :

يُذكرك المسك والغوالِي والسُّك ... ذوات النسيم والعبَق [١]

فزاد على جميع من تعاطى مدح السواد ، لأن الأبيض الشديد البياض معيب [٢] وقد دل عليه بقوله :

وبعض ما فضَّل السواد به ... والحق ذو سلَّم وذو نفَق
ألا يعيب السوادَ حلكتُه ... وقد يعاب البياض بالبهق [٣]

ثم يقول :

ليست من العُبَّس الأكفِّ ولا ... الفُلح الشفاه الخبائث العرق

فوصفها بالكمال فى الصفة ، لأن من عيب السودان : أن أكفهم عابسة متشققة ، وأطرافهم ليست بناعمة لينة ، وكذلك لا يزال الفلَح فى شفاهم وهو الشقوق المذمومة الموجودة فى أوساط الشفاه :

وأيضاً فإن الأسود يهجى بخبث العرق ، فنفى هذه الصفات المذمومة فى أكثر السود عنها ، ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك الصفات المذمومة فقال :

فى لين سمّورة تخيرها الفرّاء ... أو لين جيد الدَّلق [٤]

ثم قال :

أكسبها الحبَّ أنها صُبغت ... صبغة حَب القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأبصار ... يُعنقن أيما عنق [٥]

فأبدع فى مدح السواد ، وأخبر أن القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التى بينها وبين حب القلوب وبين الأحداق من السواد .

(١) السك : نوع من الطيب متعب فى صنعه . انظر القاموس .
(٢) فى زهر الآداب — ١ — ٢٧٦ : أنها لأبى حفص الشطرنجي .
(٣) والحق ذوسلم إلخ : يريد أن الحق يتصرف فى جهات ، وضرب الصعود والنزول مثلا لذلك .
(٤) الداق : دويبة كالسمور . (٥) العنق : نوع من سير الإبل .

ثم يقول بعد هذه المقدمة البليغة :

يفتر ذاك السواد عن يقق ... من ثغرها كاللآلىء الفلق
كأنها والمزاح يضحكها ... ليل تفرّى دجاه عن فلق (١)

وقول الصابى :

لك وجه كأن يمناى خطته م بلفظ تمله آمالى
فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالى

وقول ابن برد الأصغر :

إن أزهرت ليلا نجوم السما ... بيضاً على أسودَ مُرخى الإزار
وأوجد العكس مثالا لها ... فالسود فى الأرض نجوم النهار

وقول المتنبى فى كافور :

فجاءت بنا إنسانَ عين زمانه ... وخلّت بياضا خلفها ومآقيا

وقد أخذه من قول الجاحظ :

وإن سواد العين فى العين نورها ... وما لبياض العين نور فيعلما

ويقول البهاء زهير فى سمراء طويلة :

وسمراء تحكى الرمح لونا وقامة ... لها مهجتى مبذولة وقيادى
لقد عابها الواشى فقال طويلة ... مقال حسود مظهر لعناد
فقلت له بشرت بالخير إنها ... حياتى وإن طالت فذاك مرادى
وما عابها القد الطويل وإنه ... لأول حسن للمليحة بادى
رأيت الحصون الشم تحرس أهلها ... فأعددتها حصناً لحفظ ودادى

ويقول سَلم الخاسر فى صفراء :

تبدت فقلت الشمسُ عند طلوعها ... بوجه غنىّ اللون عن أثر الورس (٢)

---

(١) تفرى : انشق .

(٢) الورس : نبات كالسمسم ينبت باليمن فقط .

فقلت لأصحابى وبى مثل ما بهم	على مرية ما ههنا مطلع الشمس

وقال مسعود الأصفهانى من شعراء الخريدة :

وقينـة	قال لها ناقص	كملت لولا صُفرة الحسن
قلت اتئد فالشمس مصفرة	وهى صلاح الأرض فى الكون

وفى الشقرة يقول ابن حزم[1] : إنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سواد الشعر ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه .

وفى ذلك يقول :

يعيبونها عندى بشقرة لونها	فقلت لهم هذا الذى زانها عندى
يعيبون لون النّوْر والتبر ضِلَّة	لرأى جهول فى الغَواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب	ولون النجوم الزاهرات على البعد
وأبعد خلق الله من كل حكمة	مفضِّل جِرم فاحم اللون مسود
بها وصفت ألوان أهل جهنم	ولبسة باك مُثكل الأهل محتد
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقَّنت	نفوس الورى ألّا سبيل إلى الرشد[2]

ومن طرائف هذا النوع[3] : أنه تحاكم إلى أبى أيوب سليمان البطليوسى المعروف بالمتلمس فتاتان جميلتان ؛ أيهما أحسن ؟

وكانت لإحداهما لمة شقراء ، وللأخرى لمة سوداء فقال :

وشادنين ألمَّا بى على . مِقة	تنازعا الحسن فى غايات مستبق
كأن لمـة ذا من نرجس خلقت	على بَهار وذا مسك على ورق
وحكَّما الصب فى التفضيل بينهما	ولم يخافا عليه رشـوة الحدق

---

(١) طوق الحمامة ـ ٢٧
(٢) الرايات السود : شعار بني العباس ، وكان ابن حزم أندلسيا فهواه مع الأمويين.
(٣) نفح الطيب — ٢ — ١٩٠

فقام يبدى إليه الريم حجته ... مبيِّناً بلسان منه منطلق
فقال وجهىَ بدر يستضاء به ... ولون شعرى مصبوغ من الغسق

فقالت صاحبة اللمة الشقراء أحسنت ؛ ولكن استمع لمقالى :

أنا على أُفُق شمس النهار ولم ... تغرب وحمرة شعرى حمرة الشفق
وفضل ماعيب فى عينىَّ من زرَق ... أن الأسنة قد تُعزى إلى الزرق
قضيت للمة الشقراء حيث حكت ... لونى كذا حبها يقضى على رمق
فقام ذو اللمة السوداء يرشقُنى ... سهامٌ أجفانه من شدة الحنق
وقال جُرت فقلت الجور منك على ... قلبى ولى شاهد من دمعى الغدِق
وقلت عفوك إذ أصبحت متهما ... فقال دونك هذا الحبلَ فاختنق

٣ — تحسين مالا ريبة فى قبحه أوكراهة النفوس له ، كقول دعبل فى الشيب :

أهلا وسهلا بالمشيب فإنه ... سِمة العفيف وحلية المتحرِّج
وكأن شيبى نظمُ درّ زاهر ... فى تاج ذى مُلك أغرَّ متوج

وقول على بن الجهم حين حبسه المتوكل :

قالوا حُبست فقلت ليس بضائرى ... حبسى وأى مهنــد لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيلَه ... كبرا وأوباش السباع تَردَّد
والنار فى أحجارها مخبوءة ... لا تُصطلى إن لم تُثرها الأزنُد
بيت يجدد للكريم كرامة ... ويزار فيه ولا يزور ويُقصد
والشمس لولا أنها محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وقول أبى الأسود الدؤلى فى عجوز :

يلومونى فى أم عمرو وحبِّها ... عجوزاً ومن يعشق عجوزاً يُفنَّد

كبرد اليمانى قد تقادم عهده ورُقعته ما شئت فى العين واليد

وقول أبى تمام فى صفرة المرض :

معدِن الحسن والملاحة قد أصبح م للسقم معــــدنا وقرارا

لم تشِن وجهَه الجميل ولكن جعلت ورد وجنتيه بَهارا[1]

وقول البحترى :

بدت صفرة فى وجهه إن حمدهم من الدر ما اصفرت نواحيه فى العقد

وقول أحمد بن إسحاق الطالقانى :

لقد حلَّت الحمى بساحة خده فأبدلت التفاح بالسوسن الغض[2]

* * *

وقول ابن الأنبارى فى ابن بقية الوزير ، وقد صلبه عضد الدولة بن بويه :[3]

علو فى الحياة وفى الممات لحق أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصِّلات

كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصَّـــلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات[4]

لعُظْمك فى النفوس تبيت ترعى بحراس وحُفَّـــاظ ثقات

وتُشعل عندك النيران ليلا كذلك كنت أيام الحياة

* * *

(١) البهار : زهر أصفر من أزهار البادية .

(٢) السوسن : بالفتح والضم زهر أحسنه الأبيض .

(٣) قيل : إن عضد الدولة تمنى أن يكون المصلوب وأنه قيلت فيه هذه القصيدة .

(٤) السافيات : الرياح .

وقول زين الدين بن الوردى فى أعور :

بأبى أعور عينٍ فاتن ... مثل بدر التم والبدر بعين (١)
طرفه الواحد عضب ذكر ... فله فى الحسن حظ الأنثيين

وقول البهاء زهير فى عمياء :

قالوا تعشقتها عميا فقلت لهم ... ما شانها ذاك فى عينى ولا قدحا
إن يجرح السيف مسلولا فلا عجب ... وإنما عجبى من مُغمد جرحا

وقول ابن سناء الملك فى مثلها :

شمس بغير الشمس لم تحتجب ... وفى سوى العينين لم تكسف
مغمدة المرهف لكنها ... تجرح بالجفن بلا مرهف
رأيت منها الجيد فى جؤذر ... ومقلتىْ يعقوب فى يوسف (٢)

وقد أساء ابن سناء الملك فى بيته الأخير ، فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ لم يكف بصره وإنما ابيضت عيناه من الحزن فلما رأى يوسف ارتد بصيراً !

وقول شاعر فى رمد بعض الأمراء :

قُضُب الهند والقنا أخدانُكْ ... والمقادير فى الورى أعوانك
أيها ذا الأمير ما رمدت عينك ... م حاشا لها ولا أجفانك
بل حكت فعلك الكريم لِيُضحى ... شأنها فى العلا سواءً وشانك
فهى تحمر مثل سيفك فى الرو ... ع وتصفو كما صفا إحسانك

وقول البهاء زهير فى أرمد :

حبيبى عينه قالوا تشكّت ... وذلك ـ لو دروا ـ عين المحال
أتشكو عينه ألما وفيها ... يقال أصح من عين الغزال
ولكن أشبهت لون الحُمَيَّا ... كما قد أشبهتها فى الفعال (٢)

---

(١) يزعم العامة : أن البدر بعين واحدة كما يتخيلونه . (٢) الحميا : الخمر .

وقول سيف الدين المشد :

وشادن همت فيه وجدا لما غدت مقلتاه رُمدا
لم ينتقص حسنه ولكن نرجس عينيه صار وردا

* * *

وقول الأسعد بن بليطة على لسان مجدر :

من رأى الورد تحت قطر نداه لم يعب فوق وجنتى جُدَريا
أنا شمس أردت فى الأرض مشيا فنثرت النجوم حليا عليّا

وقول ابن عبدوس القرطبي :

أكثر الحاسدون فيك فقالوا جُدَرِىّ بدا على وجنتيه
ويحهم ما دروا بأنك ورد نُثر الجوهر النفيس عليه

وقول أبى زيد القاضى :

عابه الحاسد الذى لام فيه أن رأى فوق خده جدريا
إنما شبهه هلال تمام جعلوا بُرقعا عليه الثريا

وقول أبى الهيثم فى أجرب :

قالوا به جرب فقلت لهم قفوا تلك الندوب موافع الأبصار
هو روضة والقد غصن ناعم أرأيتم غصنا بلا نُوَّار

ويقول البزاز الأندلسى فى قصر الشعر :

وقالوا قصير شعر من قد هويته فقلت دعونى لا أرى منه مخلصا
محياه شمس قد علت غصن قَده فلا عجب للظل أن يتقلَّصا

ويقول البحترى فى ابن المدبر ـ وقد ضربه الزنج بالأهواز ضربة فى وجهه ـ :

ووجه ضمان البشر فيه موقَّف على النجح والحاجات تترى عجالها
به من صفيح الهند وشم تبينه صحيفة وضاح يروق جمالها
متى ربّدتها عزة أو حفيظة أعيد إليها بالسؤال صِقالها

متى ترها يوما عليها دليلها تعجبت من شمس عليها هلالها

التقبيح أو التشويه .

١ — فمن تقبيح القبيح مبالغة فى الذم قول كشاجم فى كبر الأنف :

لقد مرعبد الله فى السوق راكبا له حاجب من أنفه وهو مطرق
رعيت له من جانب السوق مَخْطة توهمت أن السوق منها سيغرق
فأقذِرْ به أنفا وأقذر بربه على وجهه منه كنيف معلّق

وقول الخالدى فى رجل أبخر حلق سِباله [1] بعد أن أطاله :

حلقت سِبالك جهلا بما يُوارى من النكرات القِباح
فعذبت صحبك حتى المساء وعذبت عِرسك حتى الصباح[2]

وقول الناجم فى قينة قبيحة الصوت والخلقة :

وقينة شتمها قنوت أحسن أصواتها السكوت
مفقودة الكل غير بطن مثقّل فهى عنكبوت

٢ — تقبيح ما تختلف فيه الأهواء والأمزجة ، كزَغب السيقان :
فقد قال فيه ابن شرف القيروانى :

و « بِلقيْسية » زينت بشعر يسير مثلما يهب الشحيح[3]
رقيق فى خدلَّجة رَداح خفيف مثل جسم فيه روح[4]
حكى زغَب الخدود وكل خد به زغب فمعشوق مليح
فإن يك صرح بلقيس زجاجا فمن حدَق العيون لها صروح

---

(١) السبال : مقدم شعر اللحية جمع سبلة بفتح الباء .
(٢) العرس بالكسر : الزوجة .
(٣) نسبة إلى بلقيس زوج سليمان —عليه السلام— .
(٤) الخدلجة : الممتلئة الضخمة ؛ والرداح : العظيمة الأوراك .

وقال فيه ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا لها كما قدر أى من تلك مَن نصب الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحا كمثلما يزيد خدود الغيد تزغيبها ملحا[1]

والسبب فى إنشاء هذه الأبيات المتقدمة : أن المعز بن باديس الصنهاجى خلا بابن شرف وبابن رشيق يوما فقال لهما : أريد أن تصنعا شعراً تمدحان به الشعر الرقيق الخفيف الذى يكون على سوق بعض الناس فإنى أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر به بعضاً وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأؤسّى من عيب عليه .

وقد نقد المعز على ابن رشيق قوله : « يعيبونها » وقال : أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس قد عابه[2] .

وقد جاء مدحه فى وصف عصام الكندية للحارث بن عمرو ملك كندة ؛ أم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى : تحتهما ساقان خدلجتان كالبردىّ وشيتا بشعر أسود كأنه حلق الزرد . . .

٣ — تقبيح ما تواطأ الناس على استحسانه ، كقول ابن سناء الملك فى الشمس :

لا كانت الشمس فكم أصدأت صفحة خد كالحسام الصقيل
وكم وكم صدت بوادى الكرى طيف خيال جاءنى عن خليل
وأعدمتنى من نجوم الدجى ومنه روضاً بين ظل ظليل
تكذب فى الوعد وبرهانُه أن سراب القفر منها سليل
وهى إذا أبصرها مبصر حديد طرف راح عنها كليل
يا علة المهموم يا جلدة المحموم يا زفرة صب نحيـل
يا قَرحة المشرق عند الضحا وسَلحة المغرب عند الأصيل

---

(١) الملح : الملاحة . (٢) رسائل البلغاء « جمع الأستاذ كرد على — ٢٣٤

أنت عجوز لمْ تبرجت لى ... وقد بدا منك لعاب يسيل ؟

وقول ابن الرومى فى ذم القمر :

رُبَّ عرض منزه عن قبيح ... دنَّسته معرِّضات الهجاء
لو أراد الأديب أن يهجو البد ... ر رماه بالخُطَّة الشنعاء
قال يا بدر أنت تغدِر بالسَّا ... رى وتُزرى بزورة الحسناء
كلَف فى شحوب وجهك يحكى ... نُكَتا فوق وجنة برصاء
يعتريك المحاق ثم يخلّيـك ... م شبيه القلامة الجذاء[1]
ويليك النقصان فى آخر الشهر ... م فيمحوك من أديم السماء
فإذا البدر نيل بالهجو هل يأ ... من ذو الفضل ألسن الشعراء
لا لأجل المديح بل خيفة الهجو ... م أخذنا جوائز الخلفاء

وقال فيه ابن المعتز :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى ... يا مثكلى طيب الكرى ومنغِّصى
أما ضياء الشمس فيك فناقص ... وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل ... متسلِّخ بهقاً كلون الأبرص

وقول ابن الرومى فى ذم الورد :

يا مادح الورد لا تنفك عن غلط ... ألست تنظره فى كف ملتقطه
كأنه سرم بغل حين يخرجه ... عند البراز وباقى الروث فى وسطه

ويقول فى ذلك الحموى : الظاهر أنه كان « جُعَليا » وإلا فمثله لا يخالف الإجماع ويبالغ فى مثل هذه المغايرة ، ولعمرى إنه فى بابه من التشابيه البليغة مع نفور الطباع من صنعته[2] :

---

(١) الجذاء : المعوجة . (٢) خزانة الأدب ــ ٢١٦ .

يريد بقوله : «جعلى» أن الجعل يتأذى برائحة الورد .

وفى ذلك يقول المتنبى :

بذى الغباوة من إنشادها ضرر كما تضُر رياح الورد بالجُعَل

وقد رد عليه ابن المعتز بقوله :

يا هاجىَ الورد لاحيِّيت من رجل غلِطت والمرء قد يُؤتى على غلطه
هل تُنبت الأرض شيئاً من أزاهرها إذا تحلت يحاكى الوشىَ فى نمطه
أحلى وأشهر من ورد له أرج كأنما المسك مذورر على وسطه
كأنه خد حبى حين ملكنى وصاله بعد طول الهجر من سخَطه[1]

وقول أبى العلاء السرورى فى ذم النرجس ، وتشبيه أعلاه بأسفله :

كرائةٍ ركبت عليها صفرة بيض على رُقاقهْ

ويظهر أنه اقتدى بابن الرومى وبئست القدوة !

وقول أبى حيان فى ذم البيض ومدح السود :

لنا غرام شديد فى هوى السود نختارهن على بيض الطلى الغيد[2]
لون به أشرقت أنوارنا وحكى فى اللون والعرف نفح المسك والعود
لا تهو بيضاء لون الجص واسم إلى سوداء حسناء لون الأعين السود

ثم عاد ففند رأيه بقوله :

إذا مال للفتى للسود يوما فلا رأى لديه ولا رشاد

---

(١) أحدثنا فى البيت بعض التغيير تفاديا من كنية شائنة . انظر الأصل فى نهاية الأرب — ١١ـ١٩٢ (٢) الرائة : ما يخرج من بطن الدابة .
(٣) الطلى : الأعناق جمع طليه بالضم .

أتهوى خنفساءَ كأن زفِنا ... كسا جلداً لها وهو السواد
وما السوداء إلا قِدر فرن ... وكانون وفحم أو مداد
وما البيضاء إلا الشمس لاحت ... تنير العين منها والفؤاد
وجوه المؤمنين لها ابيضاض ... ووجه الكافرين به اسوداد

وقول ابن شرف القيروانى فى التين :

لا مرحباً بالتين لما أتى ... يسحب كالليل عليه وشاح
ممزق الجلباب يحكى لنا ... هامة زنجى عليها جراح

والأمثال على ذلك كثيرة .



الفصل التاسع عشر

التلطف

تحسين القبيح وتقبيح الحسن : نوع معروف فى البديع سماه العسكرى : التلطف .

وهو أن تتلطف بالمعنى الحسن حتى تهجّنه والمعنى الهجين حتى تحسِّنه .
وهو القياس الشعرى المذكور فى المنطق ، وقد ورد كثيراً فى كلام العرب .

فمن الأول قول الفرَّار السُّلمى فى تحسين الفرار :

وكتيبة لبَّستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدى
فتركتهم تقِص الرماحُ ظهورهم من بين منجدل وآخر مسند[1]
هل ينفعنِّى أن تقول نساؤهم وقُتلت دون رجالهم لا تبعد[2]

وقول الحارث بن هشام المخزومى فى معناه :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقرَ مزبد
فصرفت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

وفيه يقول أبو عبيدة : ما اعتذر أحد من الفرارين بأحسن مما اعتذر به الحارث .

وهذا الذى سمعه صاحب « رتبيل »[3] فقال : يا معشر العرب : حسنتم كل شىء فحسن حتى الفرار .

---

(١) الوقص : الكسر .
(٢) لا تبعد بضم العين من البعد ضد القرب ، أو بفتحها من البعد بفتح العين وهو الهلاك .
(٣) رتبيل : من بلاد التركستان ، والكلمة دعاء تقوله العرب للموتى .

ولما فر أمية بن عبد الله بن خالد يوم « مرداء هجر »[1] من أبي فديك الخارجي ، وفد عليه أهل البصرة ولم يدروا كيف يكلمونه ولا ما يلقونه به من القول : أيهنئونه أم يعزونه ؟ حتى دخل عبدالله بن الأهتم فاستشرف الناس له وقالوا : ما عسى أن يقال للمنهزم ، فسلم عبد الله ثم قال : مرحبا بالصابر المخذول الذى خذله قومه ! الحمد لله الذى نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا ، فقد تعرضت للشهادة جهدك ، ولكن علم الله حاجة أهل الإسلام إليك ، فأبقاك لهم بخذلان من معك لك .

فقال أمية : ما وجدت أحداً أخبرني من نفسي غيرك .[2]

وقول منصور الفقيه في مدح الموت :

قد قلت أن مدحوا الحياة فأسرفوا في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف

وقول شاعر في مدح إفشاء الأسرار :

وما أكتم الأسرار لكن أنمها ولا أدع الأسرار تَغلى على قلبي
فإن قليل العقل من بات ليلَه تقلِّبه الأسرار جنبا على جنب

وقول أبي العتاهية في مدح البخل :

جُزِىَ البخيل عليَّ صالحة عني لخفته على ظهري
أعلى وأكرمَ عن نداه يدى فعلَتْ ونزّه قدره قدري
ورُزقت من جدواه عافية ألا يضيق لشكره صدري
وظفرت منه بخير مكرمة من بخله من حيث لا يدري
ما فاتني خير امرىء وضعت عني يداه مئونة الشكر

---

(١) مرداء هجر : موضع بهجر ، وهجر قاعدة البحرين .
(٢) العقد الفريد — ١ — ٧٤

ومن اللطيف فى معناه قول الآخر :

أعتقنى سوء ما صنعت من الرق م فيا بردها على كبدى

فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوءٌ قبلى إلى أحد

وقول نهشل بن جرى فى مدح الجبن — وهو أحسن ما قيل فيه — :

فلو كان لى نفسان كنت مقاتلا بإحداهما حتى تموت وأسلما

وقول ابن الرومى فى الحلف الكاذب :

وإنى لذو حلف كاذب إذا ما اضطررت وفى الأمر ضيق

وما فى اليمين على امرىء يدافع بالله ما لا يطيق

وقوله فى مدح الإعراض :

ما ساءنى إعراضه عنى ولكن سرنى

سالفتاه عوض من كل شىء حسن

وقوله فى مدح الحقد :

وما الحقد إلا توءم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

فحيث ترى حقداً على ذى عداوة فثَم ترى شكراً على حسَن القرض

إذا الأرض أدت ريْع ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض

وقد أخذه من قول عبد الملك بن صالح الهاشمى — وقد قال له يحي البرمكى : أنت حقود — !

فاجابه : إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان .

فقال يحي : ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسنه غيرك .

وقد عاد ابن الرومى فذمه بقوله :

يا مادح الحقد محتالا له شبها لقد سلكت إليه مسلكا وعثا[1]

كم زخرف القولَ ذو زور ولبّسه على القلوب ولكن قلَّ ما لبثا

---

(١) الوعث : المكان السهل .

الحقد داء دوى لا دواء له   يَرِى الصدور إذا ما جمره حُرِثا[1]
فاستشف منه بصفح أو معاتبة   فإنما يبرىء المصدور ما نفثا

ويلاحظ أن ابن الرومى يذم ما يمدح ويمدح ما يذم كثيراً توسعاً واقتداراً .

وقد يكون ذلك لاعتلال مزاجه .

وفى مدح الشر ذكروا : أن المتوكل قال لأبى العيناء — حين دخل إليه — : بلغنى أن فيك شراً ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشر ذكر المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ، فقد زكَّى الله — عز وجل — وذم ، فقال فى التزكية : « نعم العبدُ إنه أوَّاب » .

وقال فى الذم : « هماز مَشَّاء بِنميم مناع للخير معتد أثيم عُتُلّ بعد ذلك زنيم » وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أُثن دائما   ولم أشتم الجبس اللئيم المذمَّا[2]
ففيم عرفت الخير والشر باسمه   وشقَّ لىَ الله المسامع والفما

ومن الثانى : أن الحسن رأى على رجل طيلسان صوف ، فقال له : أيعجبك طيلسانك هذا ؟

قال : نعم !

قال : إنه كان على شاة قبلك .

فهجَّنه من وجه قريب .

وقال شاعر فى حاجب اسمه « سعد » :

يا حاجب الوزراء إنك عندهم   سعد ولكن أنت سعد الذابح[3]

---

(١) يرى الصدور : يحرقها .   (٢) الجبس بالكسر : الجبان .
(٣) سعد الذابح : اسم كوكب .

ويقول العسكرى : سمعت والدى - رحمه الله - يقول : لعن الله الصبر فإن مضرته عاجلة ومنفعته آجلة ، وذلك أنك معجِّل بالصبر ألم القلب لتنال المنفعة فى العاقبة ، ولعلها تفوتك لعارض يعرض ، وكنت قد تعجلت الضرر من غير أن تصل إلى نفع .

وما سمعت هذا المعنى من غيره فنظمته بعد ذلك وهو :

الصبر عما تُجِنُّه صَبِر ونفع من لام فى الهوى ضرر[1]
من كان دون المرام مصطبراً فلست دون المرام أصطبر
منفعة الصبر غير عاجلة وربما حال دونها الغير
فقم بنا نلتمس مآربنا أقام أو لم يقم بنا القدر
وابغ من العيش ما تُسر به إن عذَل الناس فيه أو عذروا

وقد يظن أن الشعراء يركبون التناقض البغيض ، ويفزعون إلى الكذب الصراح حين يستحسنون ما يستقبح ، ويستقبحون مايستحسن ، ويمدحون ما يذم ، ويذمون ما يمدح .

والحقيقة أنهم لا يتناقضون ولا يكذبون ، وإنما هم يتناولون بعض الجوانب دون بعض فى ذلك ، كما فعل عمرو بن الأهتم حين مدح الزبرقان بن بدر بين يدى الرسول - صلوات الله عليه - بأكرم صفات المدح ، ثم ذمه بأدنئها ، فلما رأى الكراهة فى وجه الرسول حين اختلاف قوله ، قال : يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن من البيان لسحرا .. » وقد أشار إلى ذلك شوقى بقوله :

فامدح على الحق الرجال وذمهم أو خل عنك نصيحة النصاح

(١) الصبر : عصارة شجر مر .

وقد احتج لهم المرتضى فى ذلك بقوله[1] : من شأن الشعراء أن يتصرفوا فى المعانى بحسب أغراضهم وقصودهم ؛ إذا رأى أحدهم مدح شىء قصد إلى أحسن أوصافه فذكرها وأشار إليها حتى كأنه لا وصف له إلا ذلك الوصف الحسن ، فإذا أراد ذمه قصد إلى أقبح أحواله فذكرها حتى كأنه لا شىء فيه غير ذلك ، وكل مصيب بحسب قصده ؛ ولهذا ترى أحدهم يقصد إلى مدح الشيب فيذكر ما فيه من وقار وخشوع ، وأن العمر منه أطول وما أشبه ذلك ، ويقصد إلى ذمه فيصف ما فيه من الإدناء إلى الأجل ، وأنه أخمل الألوان وأبغضها إلى النساء وما أشبه ذلك .

وهذه سبيلهم فى كل شىء وصفوه ، ولمدحهم موضعه ولذمهم موضعه فمن ذم الوداع لما فيه من الإنذار بالفراق وبعد الدار ، قد ذهب مذهباً صحيحا كما أن من مدحه لما فيه من القرب للمحبوب والسرور بالنظر إليه وإن كان يسيراً ، قد ذهب أيضا مذهبا صحيحا .

يقول البحترى فى كراهة الوداع يعتذر لأبى جعفر بن سهل المروزى :

الله جارك فى انطلاقكْ ... تلقاء شامك أو عراقك
لا تعذلنِّى فى مسيرك ... م يوم سرت ولم ألاقك
إنى خشيت مواقفاً ... للبين تسفح غَرْب ماقك
وعلمت أن بكاءنا ... سبب اشتياقى واشتياقك
وذكرت ما يجد المود ... ع عند ضمك واعتناقك
فتركت ذاك تعمدا ... وخرجت أهرب من فراقك

ويقول فى مدحه :

إن للبين نعمة لا تُؤَدَّى ... ويداً فى تُماضر بيضاءَ
حجبوها حتى بدت لفراق ... كان داء لعاشق ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى ... كل ذى صبوة وسر وساء

(١) أمالى المرتضى — ٤ — ١٦٧

فجعلنا فيه الوداع سلاماً   وجعلنا الفراق فيه لقاء

وقال آخر :

جزى الله يوم البين خيراً فإنه   أرانا على عِلاته أم ثابت

ومهما يكن فهذا مذهب له أنصار من قديم الزمن .

وقد قيل للأصمعى : من أشعر الناس ؟ قال الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظة خسيساً(١) .

وقد قالوا : حسن البلاغة : أن يصور الحق فى صورة الباطل والباطل فى صورة الحق(٢) .

التربية بالتشبيه .

وباب التحسين والتقبيح مدخل واسع ممهد لتهذيب الطباع وصقل العواطف، وتصفية الأذواق ، وتربية النفوس على الفضيلة وقدعها عن الرذيلة ،وتحبيبها فى الخير وتكريهها فى الشر ، وحثها على كل عمل صالح نافع ، وملئها بالحماسة والإقدام ، وحب التضحية والفداء ، والوقوف فى وجه الظلم ، ومجابهة الموت بلا خوف ولا وجل .

انظر وقع هذا البيت على ضمير المرائى الذى يأمر بالخير ولا يعمل به :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوى الناس وهو مريض

أو قول أحمد بن يوسف :

وعامل بالفجور يأمر بالبر م   كهاد يقود بالظلم

أو كطبيب قد شفه سقم   وهو يداوى من ذلك السقم

يا واعظ الناس غير متعظ   ثوبك طهرْ أولا فلا تلم

وقدِّر أثر هذا الشعر فى نفس لاه غافل لا يجرى ذكر هاذم اللذات على لسانه ولا يخطر له على بال .

(١) العمدة ـ ٢ ـ ٤٦ ـ ٥٠   (٢) المصدر السابق ـ ١ ـ ١٦٥

الموت باب وكل الناس داخلُه ... يا ليت شعرىَ بعد الباب ما الدار
الدار جنة عدن إن عمِلت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنار

وهل تكسر من شرة الجشع الحريص إلى جمع المال من الحلال والحرام وتحسم مادة تكالبه على زهرة الدنيا بأحسن من هذا القول :

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها ... مغالياً ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها ... حتى إذا ماتَ خلَّاها وما فيها

وهل تكفكف شهوة النهم الرغيب ، الحوتى الالتقام ، الفيلى الالتهام بأفضل من هذا الشعر :

يا آكلا ما اشتهاه ... وشاتم الطب والطبيب
ثمارَ ما قد غرست تجنى ... فانتظر السقم عن قريب
يجتمع الداء كل يوم ... أغذية السوء كالذنوب

وهل كان الشاب المصرى يؤثر اللصوق بأرضه حتى ليكره التوظف فى غير مسقط رأسه ، ويعد غيرها من بلاد مصر ديار غربة ، فضلا عن الهجرة إلى أكناف الأرض الواسعة كالإنجليز واليونان أو أشقائه اللبنانيين لو أنه غذى من صغره بمثل قول ابن منير الطرابلسى :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله ... فى منزل فالحزم أن يترحَّلا
كالبدر لما أن تضاءل جدَّ فى ... طلب الكمال فحازه متنقلا
فارقْ تَرُق كالسيف سُلَّ فبان فى ... متنيه ما أخفى القِرابُ وأخملا

وهكذا يمكننا بتحسين المشبه أو تقبيحه أن نحمل النفوس على ما نريد بتهييج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجداناتها فتنطلق إلى الشأو المرسوم كالسهم المرسل لا يلوى على شىء .

الفصل العشرون

استطراف المشبه

فى اللغة : استطرف الشيء عَدَّه طريفا ، أو استحدثه :

والمراد هنا : المعنى الثانى : أى إنشاء مشبه يعد طُرفة ، لجدته وغرابته بغية التلذذ به ، لأن لكل جديد لذة فى الأعم الأغلب .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

لكل جديد لذة غير أننى　　وجدت جديد الموت غير لذيذ[1]

ويصح أن يكون بالظاء من الظرف بفتح فسكون ، والعامة تضمه وهو خطأ .

ولا مانع من إرادة ذلك المعنى ، لأن من معانىَ الظرف حسن الوجه والهيئة[2] ، فيكون استظراف المشبه : جعله حسناً جميلا يمتع السمع ويونق النفس .

وبعضهم يجعله من صفات اللسان فهو يتعلق بالمنطق خاصة[3] .

ومنه قول الحسن — ض — : إذا كان اللص ظريفا لا يقطع : أى إذا وقع دفع عن نفسه بطلاقة لسانه ومنطقه .[4]

فكلا معنيْ الظرف صالح لما نحن بسبيله .

---

(١) تمثل به الحطيئة عند احتضاره . الشعر والشعراء — ١٨١

(٢) القاموس المحيط .　　(٣) المثل السائر — ٧٠　　(٤) تزيين الأسواق — ٣٥

وسائل الاستطراف :

ومرد الاستطراف فى التشبيه إلى شيئين :

١ — إبرازه فى صورة الممتنع فى العادة وإن لم يكن ممتنعاً عقلا ، كتشبيههم الجمر الموقد فى الفحم ببحر من المسك موجه الذهب ، نقلا له عن صحة الوقوع إلى امتناعه [١] .

فالناس فى واقع حياتهم الطويلة الممتدة لم يروا ولن يروا مثل هذا البحر العجيب الغريب الذى لا يتحقق إلا فى سبحات الخيال وأضغاث الأحلام !

وكذلك قول السرى الرفاء يصف الشمعة :

كأنها نخلة بلا سعف تحمل أُتْرُجَّة من النار

فمثل هذه النخلة بهذا الوصف الطريف لا تبرزه العادة يوما ما .

وهذا الاستطراف — لما كان فيه وجه الشبه هيئة اعتبرت فى الممتنع عادة — لم يقتض أن يكون الوجه أظهر وأعرف .

ولكن لما كان المشبه به أخفى — ومعلوم أنه يلزم من خفائه خفاء وصفه — كان التشبيه أشد استطرافا على ما تقرر فى جميع الأشياء الغريبة .

فليس وجه الشبه هنا هو منشأ المنع عادة كما كان منشأ الاستغراب فى بيان الإمكان ، بل منشأ المنع ذات المشبه به .

٢ — أن يكون المشبه به نادر الحضور فى الذهن .

. إما مطلقا لبعد تصوره سواء أخطرت المشبه ببالك أم لا .

وذلك كالمثالين المتقدمين ، فإنه من المستصعب أن تتمثل فى خيالك صورة بحر من المسك موجه الذهب حين تنظر فحما فيه جمر موقد .

فإذا أُحضرت هذه الصورة استطرفت استطراف النوادر عند مشاهدتها واستلذت استلذاذ الفلتات لجدتها .

---

(١) المفتاح — ١٨٣

وإما أن تكون نُدرة الحضور ليست فى كل الأحوال ، بل عند حضور المشبه فى إبان الحديث عنه ، بأن يكون المشبه به مشاهداً معتاداً ، لكن مواطنه غير مواطن المشبه لأن كلا منهما من واد غير وادي الآخر ، فيبعد حضور أحدهما فى الذهن عند حضور الآخر لبعد نسبته إليه ، كقول ابن الرومى المشهور[1]:

ولازوردية تزهو بزرقتها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضُعفن بها أوائل النار فى أطراف كبريت

شبه نوار البنفسج بأوائل النار عند أخذها بأطراف الكبريت فى الهيئة الحاصلة — من تعلق أجرام صغيرة لطيفة على شكل مخصوص ولون الزرقة — بجرم صغير .

وصورة أوائل النار بأطراف الكبريت لا تندر فى الذهن ، إنما يندر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فإذا حضرت مع صحة التشبيه حدث الاستطراف .

ومثله قول النميرى :

بنفسج بذكى المسك مخصوص ما فى زمانك إن وافاك تنغيص
كأنما شُعَل الكبريت منظَره أو خدأغيد بالتخميش مقروص

ولا يخفى أن صورة اتصال النار بأطراف الكبريت ، لا يندر حضورها فى الذهن ندرة بحر من المسك موجه الذهب ، لكن يندر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فإذا أحضر المشبه به استطرف لمشاهدة عناق بين صورتين متباعدتين كل التباعد .

---

(١) هكذا في معاهد التنصيص ، وفى المطول نسب إلى أبى العتاهية ، وفى نهاية الأرب نسب إلى أبى القاسم بن هذيل الأندلسى وابن المعتز .

وهذا يذكرنا بما حدث لجرير مع ابن الرقاع العاملي ، فقد استمع إليه وهو ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توهما فاعتادها

قال جرير فحسدته على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية :

تُزجي أغنَّ كأن إبرة رَوْقه

فقلت في نفسي : وقع والله ! ما يقدر أن يقول أو يشبّه به .

فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها .

لم أقدر حسداً أن أقيم حتى انصرفت[1] :

وفي هذا الدليل الواضح على منزلة هـــذا التشبيه من الطرافة وندرة خطوره بكل بال .

وحسبنا أن جريرا — على علو كعبه في الشعر وقوة طبعه — لم يستطع أن يلمح الجامع بين طرفيه ، لدقة المسلك وبعد المأتى ، فلما وقف عليه استحالت رحمته للشاعر حسدا له لشعوره بالعجز عنه .

وذهب عبد القاهر مذهباً طريفا في بيان سر الاستطراف في بيتي « البنفسج والكبريت » فبناه على القاعدة النفسية « ظهور الشيء من معدنه لا يستغرب » .

وقد ظهر الشيء هنا من غير معدنه فعد غريبا .

يقول : ولذلك نجد تشبيه البنفسج في قوله

ولازوردية ..

أغرب وأعجب واحق بالولوع وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در

(١) الكامل للمبرد (شرح المرصفي) — ٧ — ٥٠

حشوهن عقيق[١] لأنه إذ ذاك مشبهٌ لنبات غضٍ يرف ، وأوراق رطبة ترى الماء فيها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف .

ومبنَى الطباع وموضوع الجبلّة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفس به أكثر وكان بالشغف أجدر .

ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبهاً فى شيء من المتلونات ، لم نجد له هذه الغرابة ولم ينل من الحسن هذا الحظ[٢] .

ويرى العسكرى : أن هذا الشعر فى الخُرَّم لا فى البنفسج ؛ لأن قوله : « فوق قامات ضعفن بها » يدل على أنه أراد الخرم ؛ لأن ساق البنفسجة لا يضعف عن حمل وردتها ، وهذا الوصف بالخرم أشبه منه بالبنفسج ، لكبر نوره ودقة ساقه فاعرف ذلك[٣].

ومما يزيد فى قيمة الاستطراف : أن يكون المشبه شيئاً حقيراً تافها أُبرز فى صورة شيء نفيس ثمين .

كقول السرى الرفاء يصف النار :

خفقت راية الصباح وللنا ... ر لهيب كالراية الصفراء
واستقرت تحت الرماد تخيلت ... ذهبا تحت فضة بيضاء

وقول ابن المعتز فيها :

كأن الشرار على نارنا ... وقد راق منظرها كل عين
سُحالة تبر إذا ما علا ... فإما هوى فُتات اللجين[٤]

---

(١) يشير إلى قول ابن المعتز :
وعجنا إلى الروض الذى طله الندي ... وللصبح فى ثوب الظلام حريق
كأن عيون النرجس الغض حولنا ... مداهن در حشوهن عقيق
(٢) أسرار البلاغة — ١٠٣ .
(٣) ديوان المعانى — ٢ — ٢٤
(٤) السحالة بالضم : ما يسقط من الذهب والفضة عند بردهما .

وقد أخذه العسكرى فقال :

أوقدت بعد الهدوّ ناراً لها على الطارقين عين
شرارها إن علا نضار لكنه إن هوى لجين

وقول ابن المعتز أيضا يصف الأترجة :

يا حبذا أترجة تحدث فى النفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

وقول السلامى فى دجلة :

وقد صار ياقوتاً حصاها وعنبرا ثراها وأمسى الماء وهو رحيق

ويتبين لنا مما تقدم من أقوالهم أن الطرافة فى التشبيهات تستوجب الحسن دائماً وأبداً ، كأن كل معنى مستحدث لا بد أن يكون جيداً .

وهذا يخالف مذهب قدامة الذى لا نمارى فى صحته واتفاقه مع الواقع ، حينما نطبقه على ما بين أيدينا من الآثار الأدبية .

فقدامة يقرر أن الغرابة والطرافة أن يكون المعنى مما لم يسبق إليه ، أو يكون فرداً قليلا ، فإذا كثر لم يسمَّ بذلك .

ثم يعود فيقرر : أن الغريب والطريف غير الحسن والجيد ، لأنه قد يجوز أن يكون الشىء حسنا جيداً وهو غير غريب ولا طريف ، مثل تشبيههم الدروع بحباب الماء الذى تسوقه الرياح ، فقد تعاوره الشعراء قديما وحديثا ، فهو جيد وليس بجديد .

وذلك كقول عمرو بن كلثوم التغلبى [1]:

علينا كل سابغة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا [2]
كأن غضونهن متون غُدر تصفّقها الرياح إذا جرينا

(١) التمثيل بالشعر للمؤلف .
(٢) الدلاص : الملساء اللينة .

وقول البحترى يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها

وقول ابن حمديس :

نثر الريح على الماء زرد أى درع لقتال لو جمد

وقول ابن العطار :

مررنا بشاطى النهر بين حدائق بها حدق الأزهار تستوقف الحدق

وقد نسجت كف النسيم مُفاضة عليه وما غير الحباب لها حلَق[1]

وقول الطغرائى:

وقد كسته الريح من نسجها درعا به يلقى نبال المطر

وقد يكون طريفا وغريبا لم يسبق إليه وهو قبيح بارد ، فملء الدنيا أشعار قوم من المحدثين سبقوا إلى البرد فيها .[2]

والإصابة واضحة فى هذا الكلام، إذ لو صح ما قالوه لكان قول بعضهم فى عيون نساء « المنصورة » من عيون الشعر :

عيون كلها فتن وأصداء من الفتن

أحِن لسُمرة فيها كسمرة مائها الفنى

فإن سمرة العين وسمرة مائها وفنيته مما لم يسبق به القائل[3] على حد تعبير زميلنا الأستاذ « عبد الوهاب حمودة » .

ولكان ابن سكرة الهاشمى وأبو الرقعمق من شعراء « الصفع » أعلى كعبا من أبى تمام والبحترى والمتنبي ، فليس لهؤلاء ما لهما من المعانى الأبكار فى ألوان الهذر والمجون !

بل لوجب أن يكون ابن حجاج أشعر الشعراء جميعاً غير مدافع ولا

---

(١) المفاضة : الدرع الواسعة . (٢) نقد الشعر ـ ٨٨

(٣) التجديد فى الأدب المصرى الحديث ـ ٥٦

منازع، فقد كان - كما يقول الثعالبى - : فرد زمانه فى فنه الذى شهر به، وأنه لم يسبق إلى طريقته ولم يلحق شأوه فى نمطه، ولم ير كاقتداره على ما يريده من المعانى التى تقع فى طرزه، وإن كانت مفصحة عن السخافة.

ويكفى أن يقول ابن نباتة منوها بابتكاره فى خطبة كتابه المسمى «تلطيف المزاج فى شعر ابن حجاج»: إنى رأيت نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض، وأما أشعارهم تبعث جميعا فى صعيد واحد من الأرض، إلا أشعار الأريب الفريد أبى عبد الله بن الحسين بن حجاج، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها، وذرية عجيبة تبلغ بإتقان اللهو واللعب رشدها، لم يحط خاطر أحد بمثلها خبرا، ولا استطاع على معارضة شهدها صبراً [١].

أمثال من التشبيهات الطريفة الغريبة.

ونختم هذا الفصل بفنون من التشبيهات الغريبة الطريفة استزادة للفائدة فمن ذلك قول المتنبى:

سقانا وحيّانا بك الله إنما   على العيس نور والخدور كمائمه

فقد جاء بأملح شىء وأوفاه من الطرافة والغرابة [٢].

وقول السرى الرفاء:

وحلّل من أزراره النبت فاغتدى   كلفظ جليب همَّ أن يتفصحا

وقوله فى انبثاق الصباح:

كراهب جُنّ للهوى طربا   فشق جلبابه من الطرب

وقول الخالدى فى وصف النجوم:

كأنما أنجم السماء لمن   يرمُقها والظلام منطبق
مال بخيل يظل يجمعه   من كل وجه فليس يفترق

(١) يتيمة الدهر — ٣ — ٢٥   (٢) العرف الطيب — ١ — ١٣٩

وقول ابن مكنسة فى الإبريق والقدح :

إبريقنا عاكف على قدح   كأنه الأم ترضع الولدا
أو عابد من بنى المجوس إذا   توهم الكأس شعلة سجدا

وقول ابن شرف فى النمام :

وناصب نحو أفواه الورى أذنا   كالقعب يلقط فيها كل ما سقطا
يظل يلتقط الأخبار مجتهداً   حتى إذا ما وعاها زقَّ ما لقطا

وقول ابن لنكك يهجو أبا الهندام كلاب بن حمزة الشاعر — وقد شبهه بدار البطيخ — :

أنت ابن كل البرايا لكن اقتصروا   على ابن حمزة وصفا غير تشميخ
« كدار بطيخ » تحوى كل فاكهة   وما اسمها الدهر إلا دار بطيخ

والمعنى جيد ولكن القافية ثقيلة ، لأنها بنيت على الخاء وهى ليست من الحروف الشعرية .

ودار البطيخ تباع فيها جميع الفواكه والرياحين وتنسب إلى البطيخ وحده
وقد سمى عبد الله بن طاهر قصيدة ابن الرومى التى أولها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن نوعان تفاح ورمان

« دار البطيخ » وهى كذلك لما فيها من ذكر الفواكه والرياحين[1].

وقول أسعد بن بليطة فى الأقاحى :

أحبب بنورْ الأَقاح نَوراً   عسجده فى لجينه حارا
أى عيون صُوِّرن من ذهب   رُكِّب فيها اللجين أشفارا
إذا رأى الناظرون بهجتها   قالوا نجوم تُحف أقمارا
كأن ما اصفر من موسّطه   عليل قوم أتوه زُوّارا

---

(١) ثمار القلوب — ٤١١

كأن مبيضه صقالبة صاروا مجوساً فاستقبلوا النارا
كأنه ثغر من هويت وقد ألقيت فيه بنيَّ دينارا

وقول شاعر فى لوزة بقلبين :

ومهد إلينا لوزة قد تضمنت لبصرها قلبين فيها تلاصقا
كأنهما حِبان فازا بخلوة على رِقبة فى مجلس فتعانقا

وقول أبى هلال العسكرى فى الخوخ :

وخوخة ملء يد الجانية تملك لحظ الأعين الرانيه
مصفرة الوجنة محمرة كأنها عاشقة ساليه

وقول كشاجم فى العنب الأسود :

رحنا إلى حديقة بكل حسن محدقة
كأنما عنقودها زنج جنوا فى سرقه
فأصبحت رءوسهم على الذُّرا معلَّقة

وقول ابن منقذ فى التين :

أما ترى التين فى الغصون بدا ممزَّق الجلد مائل العنق
كأنه رب نعمة سُلبت أصبح بعد الجديد فى خلَق
أو كأخى شِرَّة أُغيظ وقد مزّق جلبابه من الحنق

وقول ابن سعيد الأصفهانى فى طاقة آس[1] :

ومشمومة مخضرة اللون غضة حوت منظراً للناظرين أنيقا
إذا شمها المعشوق خلت اخضرارها ووجنته فيروزجا وعقيقا

وقول ابن وكيع فيه أيضاً :

خليلىَّ ما للآس يعبق نشره إذا هب أنفاسُ الرياح المواطر

---

(١) الآس : هو ماتسميه العامة ريحان القبور .

حكى لونه أصداغ ريم معذِّر وصورته آذان خيل نوافر[1]

وقول العباس الخياط فى مغن اسمه نصر :

رأيت نصراً شاديا يضرب فقمت من مجلسنا أهرُب
لأنه ينبح فى عوده عليك من أوتاره أكلُب
كأنما تسمع فى حلقه دجاجة يخنقها ثعلب

وقول المصيصى فى هجاء عوّاد :

وإذا تربّع ـ لا تربع بعدها ـ وغدا يحرك عوده متقاعسا
فكأن جِرذان المدينة كلها فى عوده يَقرضن خبزاً يابسا

وقول بعضهم فى وصف الماء الصافى :

وتحدث الماء الزلال مع الحصى فجرى النسيم عليه يسمع ماجرى
فكأن فوق الماء وشيا ظاهراً وكأن تحت الماء دراً مضمرا

وقد قال فيه الحموى : إن تشبيه هذا الدر المضمر هنا أغلى قيمة من الدر الظاهر فى عقود الأجياد[2].

وقول آخر فى مدح زامر :

وزامر يبعث فى زمره إلى قلوب الناس أفراحا
كأن إسرافيل فى نايه ينفخ فى الأموات أرواحا

وقول آخر فى وصف الرقيب :

ورقيب عدمته من رقيب أسود الوجه والقفا والصفات
هو كالليل فى الظلام وعندى هو كالصبح قاطع اللذات

وقول ابن الدهان فى الصبا الفائت :

وعهدى بالصبا زمنا وقدى حكى ألف ابن مقلة فى الكتاب

---

(١) المعذر بتشديد الذال المكسورة : من نبت شعر عذاره .

(٢) خزانة الأدب — ٢١٨

فصرت الآن منحنيا كأنى أفتش فى التراب على شبابى

وقول ابن منير الدمشقى فى الحبيب المعرض :

ويلى من المعرض الغضبان إذ نقل م الواشى إليه حديثا كله زور
سلمت فازور يثنى قوس حاجبه كأننى كأس خمر وهو مخمور

وقد سمعهما السلطان عمادالدين زنكى فاستحسنهما واتخذ ابن منير نديماً له .[١]

وقول الصاحب فيمن لا يشبه أباه فى أخلاقه :

أبوك أبوعلى ذو المعالى إذا عد الكرام وأنت نجله
وإن أباك إذا تعزى إليه كالطاوس تقبح منه رجله

وقول آخر فى معناه :

أبوك أبى والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخروع

وقول أبى الصلت الأندلسى فى أهرام مصر :

بعيشك هل أبصرت أحسن منظراً على طول ماعاينت من هرمى مصر
أنافا بأكناف السماء وأشرفا على الجو إشراف السماك على النسر[٢]
وقد وافيا نشزاً من الأرض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر[٣]

وقول القاشانى فى الدموع :

عينى مذ شطت الديار بكم تحكى سماء والدمع أنجمها
كأن فى وجنتى أبالسة تسترق الدمع وهى ترجمها

وقول ابن صارة الأندلسى فى الشهاب :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا للسمع فانقض يدنى خلفه لهبه
كفارس حل إعصار عمامته فجرها كلها من خلفه عذبه

(١) ديوان الصبابة ـ ١٣٣
(٢) النسر . أحد كوكبين فى السماء بهذا الاسم .
(٣) النشز : المكان المرتفع .

وقول ابن خفاجة فى أسود يسبح فى لجة :

وأسود يسبح فى لجـــة لا تـكتم الحصباءَ غُدرانها

كأنها فى شـكلها مقلة وذلك الأسـود إنسانها

وقول ظافر الحداد فى كرسى النسخ :

انظر بعينك فى بديع صنائعى وعجيب تركيبي وحكمة صانعى

فـكأننى كفا محب شبَّكت يوم الفراق أصابعا بأصابع

وقول الشنتريني فى الوراقة :

أما الوراقة فهى أنـكد حرفة أوراقُها وثمارها الحـــرمان

شبهت صاحبها بصاحب إبرة تـكسو العراة وجسمها عريان

وقوله فى ذم صديق :

وصاحب لى كداء البطن صحبته يودُّنى كوداد الذئب للراعى

يُثنى علىَّ ـ جزاه الله صالحة ـ ثناء هند على رَوح بن زِنباع

يريد بهند : هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى ، وروح بن زنباع زوجها ، وكانت تـكرهه وفيه تقول : ،

وهل هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغـل

فإن نُتجت مهراً كريما فبالحَرى وإن يك إقراف فما أنجب الفحل

ويروى : فمن قبل الفحل ، وهو إقواء[١] .

وفى بعض الروايات : « تجللها نغل » بالنون ، والنغل : الخسيس من الناس والدواب ، وأصله نغل ككتف وسكن للضرورة .

وهذه الرواية خير من الأولى لأن البغل لا ينسل .

---

(١) وفيات الأعيان ـ ١ ـ ٤٧٣

وقول الصاحب فى هواء جرجان :

نحن والله من هوائك يا جُرجا　　ن فى حيرة وأمر شديد
حرها ينضج الجلود فإن هبت　　م شمال تكدرت بركود
كحبيب مواصل كلما همّ　　م بوصل أحاله لصدود

وقول ابن طباطبا فى التشبيه بالماء — وهو من محاسن التشبيه — :

يا قمراً ثوبُه ورامقه　　منه حذار البلى على حذر
يا من حكى الماءَ فرط رقته　　وقلبه فى قساوة الحجر
ياليت حظى كحظ ثوبك من　　جسمك ياواحدى من البشر
لا تعجبوا من بلى غِلالته　　قد زر كَتانَه على القمر

ويروى أزراره[1] بدل كتانه .

وقد ذكروا فى «زر أزراره»: أنه استعارة لاتشبيه وإن كان ذكر الطرفين بطريق الحمل أو غيره ينافيها على التحقيق ، لكن شرطه أن يكون على وجه ينبىء عن التشبيه وهنا ليس كذلك .

ومنه أخذه ناصر الدولة أبو المطاع فقال :

ترى الثياب من الكتان يلمَحها　　نور من البدر أحيانا فيبليها
فكيف تنكر أن تبلَى معاجرُها　　والبدر فى كل يوم طالع فيها[2]

وكذلك أخذه الشريف الرضى فقال :

كيف لا تبلى غِلالتُه　　وهو بدر وهى كَتان

ومن أغرب ماعرف فى التشبيه وصف لون الهواء لأبى القاسم أسعد بن على الكاتب المترسل فى قوله :

كأن شكل الهلال قرط　　أو عَطفة النون أو قلامه

---

(١) طراز المجالس — ٩　　(٢) المعاجر : ثياب تغطى بها المرأة رأسها .

كأن لون الهواء ماء أو سندس رقَّ أو غمامه

وقد ذكر الغرولى : أنه لم ير أحداً وصف الريح غيره .[١]

ومن طرائف هذا النوع ما حكاه ابن شهيد[٢] ، قال : تناول بعض أصحابنا ترجسة فركبها فى وردة ثم دفعها إلى وإلى صاعد اللغوى ، وقال : قولا قولا .

فأبهمت دوننا أبواب القول .

ثم دخل الزبير — وكان أميا لا يذكر من الكلام إلا ما علق بنفسه فى المجالس — فأُشعر بأمرنا فجعل يقول دون روية :

ما للأديبين قد أعيتهما مليحة من ملح الجنه

نرجسة فى وردة ركبت كمقلة تطرف فى وجنه[٣]

ويجب أن يلاحظ : أنه إذا كان الغرض من التشبيه نفس المحاكاة بين الشيئين ، فلا يكفى فيه مجرد الادعاء ، بل يجب لحصول هذا الغرض أن يتحقق وجه الشبه فى الطرفين بحسب الواقع ، كقول مجير الدين بن تميم :

كأنما النار فى تلهبها والفحم من فوقها يغطيها

زنجية شبكت أناملها من فوق نارنجة لتخفيها

---

(١) مطالع البدور فى منازل السرور — ١ — ٥٤

(٢) نفح الطيب — ٢ — ٣٢٨ (٣) تطرف : تنظر .

الفصل الحادي والعشرون

التشبيه المقلوب

ذكرنا فيما سبق أن الغرض من التشبيه يعود إلى المشبه إلا فى حال قلب التشبيه فإنه يعود إلى المشبه به .

كما قدمنا أن التشبيه الجارى على السنن المألوف لا يخلو من المبالغة .

ونحب أن نقول هنا : إن المتفننين فى طرق الأداء من أرباب الصناعة البيانية لم يقفوا عندالتشبيه العادى ؛ لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة أقل من أن تشبع رغبتهم فيما يتوخونه من أغراض الكلام فى الغزل والمديح والرثاء وما إليها ، فكان أن سلكوا لذلك طريق القلب فى التشبيه توصلا لهذه الغاية المنشودة .

على أنه من الحق أن نصرح أن التشبيه من حيث هو لم يُرض نزعة بعض الشعراء المحبين للإغراق .

١ — فبعضهم ازدرى التشبيه أصالة ؛ كقول المتنبي يفخر بنفسه :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه ... فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

وقوله يمدح عمر بن سليمان الشرابى :

يجل عن التشبيه لا الكف لجة ... ولا هو ضرغام ولا الرأى مخذم (١)

أنقصه من حظه وهو زائد ... ونبخسه والبخس شىء محرم

وقول المهلهل بن يموت بن المزرع :

جلّت محاسنه عن كل تشبيه ... وجلّ عن واصف فى الناس يُطريه

---

(١) المخذم : السيف القاطع .

النرجس الغضّ والورد الجنيّ له والأقحوان النديّ النضر فى فيه
انظر إلى حسنه واستغن عن صفتى سبحان خالقه سبحان باريه
دعا بألحاظه قلبي إلى عطبي فجاءه مسرعا طوعا يلبيـــه
مثل الفراشة إذ تأتى ترى لهباً إلى السراج فتلقى نفسها فيه

والشاهد فى البيت الأول .

وقول بعض الجوارى العاشقات (١) :

يا من شكا ألمـا للحب شبَّهه بالنار فى القلب من حزن وتذكار
إنى لأُعظم ما بي أن أشبهه شيئاً يقاس إلى مثل ومقدار
لو أن قلبيّ فى نار لأحرقها لأن أحزانه أذكى من النار

٢ — أو طلب التشبيه فعزّ وصوله إليه ؛ كقول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ دد والمجد والمـكارم مِثلا

وقول المتنبى يصف قرية « كفرديس » :

خضراء حمـــراء الترا ب كأنها فى خد أغيد
أحببت تشبيهاً لهـــا فوجدته ما ليس يوجد

وقوله :

فـكن كما شئت يا من لا شبيه له وكيف شئت فما خَلق يدانيكا

وقول الأمير تميم بن المعز الفاطمى :

وساق يملأ العينين حسـنا رخيم دلّه يَصبو ويُصبى
شقائق خده للحظ تَسبى ولحظ جفونه بالسحر يَسبى
تبارك من براه بلا شبيه وسلّطه على قتـــــل المحب

٣ — أو وجد السبيل إلى التشبيه ولـكن عفّ عنه ارتفاعا بقدر المشبه عما يشبه به فى العادة ؛ كقول قيس لبنى :

---

(١) مصارع العشاق للسراج — ٢٦

إذا عبتَها شبَّهتها البدر طالعاً　　وحسبُك من عيب لها شبَه البدر
لقد فُضِّلت لبنى على الناس مثلما　　على ألف شهر فُضلت ليلة القدر

وقول المتنبي يمدح الأمير الحسن بن طُغج وآله :

ولولا احتقار الأسد شبّهتهم بها　　ولكنها معدودة فى البهائم

ويروى : شبهتها بهم فيكون مقلوباً .
والرواية الأولى أظهر [1].
وقوله فى مدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى :

أكبر العيب عنده البخل والطعن　　م عليه التشبيه بالرئبال

وقوله فى مدح الأمير فاتك المصرى الملقب بالمجنون :

لا يدرك المجدَ إلا سيد فطن　　لما يُشق على السادات فعال
كفاتك ودخول الكاف منقصة　　كالشمس قلت وهل للشمس أمثال

وقوله فى الغزل :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت　　بيتاً من القلب لم تمدُد له طُنُبا
مظلومة القد فى تشبيهه غُصُنا　　مظلومة الريق فى تشبيهه ضَربا [2]

وقول أبى عبد الرحمن العطوى :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمين　　م شمس الضحا وبدر التمام
فوحق البيان يعضُده البرهان　　م فى مأقِط ألدّ الخصام [3]
ما رأينا سوى المليحة شيئا　　جمع الحسن كله فى نظام

وقول ابن الصلت الأندلسى :

غزالة أخجلت سَمِيتها　　فلم تُشبَّه بها وحاشاها

(١) وفيات الأعيان فى ترجمة الإخشيد — ٢ — ٥٦
(٢) الضرب بالفتح : الشهد .　(٣) المأقط : المأزق .

هبها لها حسنها وبهجتها　　فهل لها جيدها وعيناها

وقول البهاء زهير :

يا بدر إن رمت به　　تشبّها رمت شططا

ودعه يا غصن النقـا　　ما أنت من ذاك النَّمط

وقول أبي الفرج المحمدى يمدح ابن قلاقس — وكان المادح قد انكسرت به سفينة فى البحر الأحمر فكاد يغرق — :

والثم بنان يمينـــه　　وقل السلام عليك بحرا

وغلطت فى تشبيهه　　بالبحر فاللهم غفرا

أو ليس نلت بذا غنى　　جمًّا ونلت بذاك فقرا

وعهدت هـذا لم يزل　　مداً وذاك يعود جزرا

وقول شاعر :

وغزال كل من شبهه　　بغزال أو ببدر ظلمه

قال إذ قبلت وهما فمه　　قد تعدّيت وأسرفت مه (١)

وقول آخر :

ما أنت مادحها يامن تشبهها　　بالشمس والبدر لا بل أنت هاجيها

من أين للشمس خال فوق وجنتها　　أو أين للشمس طعم الشهد فى فيها

وقول شاعر عصرى فى الأميرة « سميحة حسين » — وقد تبرعت بجملة من حليها النفيس « لجمعية الهلال الأحمر » — :

لقد شبهوك بنيل البلاد　　وأين السحاب من الأبحر

تباريتما فسخا بالمياه　　وبالدر — جدت — وبالجوهر

ومن النثر البليغ قول ابن العميد يصف رسالة لأبي محمد خلاد الرامهرمزى القاضى :

---

(١) مه : اسم فعل بمعنى انكفف .

وتأملت النظم فملكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن أجرى على العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنى وحلل وحلى ، وشذور الفرائد فى نحور القلائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض م وقد رحن فى الخطوط السود

فلم أره لشىء عِدلا ، ولا أرضى ما عددته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه .

وقد يجرى الشاعر الأنفة من التشبيه على لسان المحبوب إدلالا بجماله وازدهاء بحسنه ، كقول العباس بن الأحنف :

قالت ظلوم وما جارت وما ظلمت   إن الذى قاسنى بالبدر قد ظلما
البدر ليس له عين مكحّلة   ولا محاسن لحظ يبعث السّقَما

وقول على بن المنجم :

شبهتها بالبدر فاستضحكت   وقابلت قولىَ بالنكر
وسفهت رأيى وقالت متى   سُمِجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما   أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يُميط المرط عن ناهد   ولا يشُدّ العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا   زال أسيراً فى يدىْ هجرى

وقول ابن الزيات فى جارية يهواها اسمها « عذر » :

يا عذر زُيِّن باسمك العذر   وأسا ولم يحسن بك الدهر
وهى التى قالت وقد جعلت   ينسلُّ من وَجَناتها الجمر
أكْمَدَ بدائك هل رأيت كذا   بدراً يلوح بخـــده البدر

وقول بعض الأندلسيين .

رأتنى وقد شبهت بالورد خدها   فتاهت وقالت قاس خدىَ بالورد

كما قال إن الأقحوان كمبسمي   وأن قضيب البان يشبه قدى
إذا كان هذا فى البساتين عنده   فقولوا له لِمْ جاء يطلبه عندى

ولابن مطروح :

من لى بغصن باللحاظ ممنطَق   حلو الشمائل واللمى والمنطق
مثرى الروادف مملق من خصره   أسمعت فى الدنيا بمثر مملق
وأقول يا أخت الغزال ملاحة   فتقول لا عاش الغزال ولا بقى

ومن الطريف أنه جرت فى البيت الأخير منازعة بين ابن مطروح وابن شمس الخلافة ، فقد ادعاه كل منهما لنفسه وعمل محضراً شهد له فيه جماعة بأن البيت له وأنه فى ديوانه :

قال ابن خلكان : وقد حلف لى ابن مطروح أن البيت له ، وكان محترزاً فى أقواله ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له ، والله المطلع على السرائر (١) .

وقول أبى القاسم بن هشام الأندلسى مرتجلا فى حسناء عضت وردة ثم رمت بها إليه (٢) .

ومعجز الأوصاف والوُصَّاف فى   بردىْ جمال طُرِّزاً بالتيه
سوسان أنمله تناول وردة   فغدا يمزِّقها أقاحى فيه
فكأننى شبهت وجنته بها   فرمى بها غضبا على التشبيه

وقد يُنطق الشاعر بذلك الأعضاء المشبهة من المحبوب ، أو الأشياء التى جرت العادة أن تجعل مشبها لها زيادة فى تقرير الوصف الذى يريده ، كقول ابن نباتة :

سألت النقا والبان أن يحكيا لنا   روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها   وقال قضيب البان ما أنا قدها

---

(١) وفيات الأعيان ــ ٢ ــ ٤٤٢

وقول شرف الدين الأصيلى المصرى :

تقول أعطافها لما نشبهها ... بالرمح من قال إن الرمح حاكانى
عطفاى حلوان مما أينعا ثمرا ... فكيف تحكيهما أعطاف مُران

وقول بعضهم :

وزائرة يحثها الشوق طارقه ... أتتنا من الفردوس لا شك آبقه
إذا ما تثنت قال للريح قدها ... كذا حركى الأغصان إن كنت صادقه

ومن هذا اللون قول ابن سناء الملك :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها ... لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الخيزرانة قدها ... فقولوا له إياك أن يسمع القد

من هذه الأمثلة الكثيرة التى أوردناها قصد الإيضاح والإفادة يتبين لنا كيف لم يرض الشعراء عن التشبيه مع افتنانهم فى تلوينه بمختلف الأصباغ . بل إن التشبيه المقلوب نفسه — مع ما يحويه من مبالغة واضحة — لم يجدوا فيه مقنعا .

فمجنون ليلى يقول :

أخذت محاسن كل ما ... ضنت محاسنه بحسنه
كاد الغزال يكونها ... لولا الشوى ونشوز قرنه[1]

فالغزال يقرب منها شبها لو لم تكن فيه هذه العيوب الطبيعية .

ويقول ابن المعتز :

لىَ مولى لا أسميه ... كل شىء حسن فيه
تصف الأغصانُ قامته ... بتثن كتثنيه
ويكاد البدر يشبهه ... وتكاد الشمس تحكيه
كيف لا يخضرّ شاربه ... ومياه الحسن تسقيه[2]

---

(١) الشوى : الأطراف .

(٢) هذا البيت أحسن ما قيل فى « ماء الحسن » طراز المجالس — ٧

فهو يصرح بأن البدر لا يشبهه بل يكاد فقط !

وأبلغ منه قول البديع الهمذانى :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسجما لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لولم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذُبا

فهو يشترط لقرب هذه المحاكاة هذه الشروط المستحيلة التحقق !

وابن سناء الملك يقطع بعدم المحاكاة فى قوله :

لا الغصن يحكيه ولا الجُؤذر حسنك ـ مما كثّروا ـ أكثر
يا باسما أبدى لنا ثغره عقداً ولكن كله جوهر

وآخر يقول بالمحاكاة ، ولكنه يتهكم بأنها محاكاة ناقصة فقدت أهم عناصرها :

إن تاه ثغر الأقاحى فى تشبهه بثغر حبك واستعلى به الطرب
فقل له عندما يحكيه مبتسما لقد حكيت ولكن فاتك الشنب[١]

فهذه التشبيهات المقلوبة المجردة ـ كما ترى ـ لم تحقق بغية الشعراء فى المبالغة فضموا إليها أشياء تزيدها مبالغة على مبالغتها وتخرج بها أحيانا إلى حد الغلو والإغراق .

ولعل لهم عذراً فى أن هذه المبالغة لا يعتد بها عند التأمل والرجوع إلى الحقيقة ، فليس الأسد فى الواقع أشجع من الرجل الشجاع وإن كان نصيبه أوفر من القوة البهيمية العمياء .

وقد قيل : إن امرأة عمران بن حِطّان قالت له : أما زعمت أنك لم تكذب فى شعر قط ؟

قال : أوفعلت ؟

---

(١) الشنب محركة : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان أو حدة فى الأنياب .

قالت : أنت القائل :

فهناك مَجزأة بن ثَوْ ر كان أشجعَ من أسامهْ

أفـيكون الرجل أشجع من الأسد ؟

قال : أنا رأيت مجزأة فتح مدينة ، والأسد لا يفتح مدينة[1].

والغزال موصوف بحسن الجِيد ، والمهاة معروفة بحلاوة العين ، فضى الشعراء على أن يشبهوا بهما النساء الحسان فى الجيد والكحَل حتى قال عمر بن أبى ربيعة :

منعّمة أهدى لها الجيد شادن وأهدت لها العين القتولَ بغوم

وقال يزيد بن أم الحكم :

كأن أحَور من غزلان ذى بقر أهدى لعائشةَ العينين والجيدا

والحق أنها سنة مرن عليها الشعراء تقليداً من الخالف للسالف ، وإلا فأين يقع جيد الغزال من جيد الحسناء الأتلع الناصع ! وأين تقع عين البقرة الوحشية من عين الجميلة الدعجاء النجلاء المكحولة بالسحر !

ولهذا يقول المبرد[2] : وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم — وعن أصل أخذوه — : أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبى أو البقرة الوحشية ... فهذا كلام جار على الألسنة .

ويقول : وعين الإنسان مشبهة بعين الظبى والبقرة فى كلامهم المنثور وشعرهم المنظوم من جارى ما تكلمت به العرب وكثر فى أشعارها .

قال مجنون ليلى :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولـكن عظم الساق منك دقيق

---

(١) الكامل للمبرد «شرح المرصفى» — ٧ — ٣٣ (٢) المصدر نفسه — ٣٨

وقال آخر :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولونك لولا حَمشة فى القوائم[1]

وقال هدبة بن الخشرم :

فلم تر عينى مثل سرب رأيته خرجن علينا من زقاق بن واقف

طلعن بأعناق الظباء وأعين م الجآذر وارتجت لهن الروادف[2]

وقد فطن بعض الأعراب إلى هذه الهجنة فى مثل هذا التشبيه فقال :

لقد وهبتنى للمنايا غريرة قريبة عهد بالصِّبا والتمائم

أأجعلها كالرئم حاشا لمثلها وللرُّخص من أطرافها والمعاصم

خلوت بها ليلا وثالثنا التقى ولست على هذا العفاف بنادم

وقال الواسطى فى هذا المعنى :

أين غِزلان عالج والمصلَّى من ظباء سكنّ نهر المعلى

ألتلك الكثبان أغصان بان وبدورٌ من أفقها تتجلى

أم لتلك الغزلان حسن وجوه لو تراءت للحَزن أصبح سهلا

ويذكرون : أن ذا الرمة أردف أخاه فعرضت له ظبية ، فقال :

أيا ظبية الوعساء بين جُلاجل وبين النقا آ أنت أم أم سالم[3]

فقال أخوه :

فلو تحسن التشبيه والوصف لم تقل لشاة النقا آ أنت أم أم سالم

جعلت لها قرنين فوق جبينها وظلفين مشقوقين تحت القوائم

---

(١) الحمشة : دقة الساقين . (٢) فى البيت إقواء .

(٣) جلاجل بضم الجيم : اسم بعينه ، ويروى حلاحل بالحاء . وأراد المبالغة فى شدة الشبه بين الظبية والمرأة حتى التبستا عليه فسأل سؤال شاك . شرح ابن يعيش على المفصل للزمخشرى ج ٩ ص ١١٩

فقال ذو الرمة :

هى الشبه إلا مِدْرِيها وأذنها   سواء وإلا مَشقة بالقوائم[1]

ومما يتصل بما نحن فيه : ما ذكره ابن خلكان ، من أنه حضر يوما حلقة ابن الصائغ النحوى ، وبعض الفقهاء يقرأ عليه « اللمع » لابن جنى ، فقرأ بيت ذى الرمة المتقدم فى باب النداء .

فقال ابن الصائغ : إن هذا الشاعر لشدة وله فى المحبة ، وعظم وجده بهذه المحبوبة « أم سالم » وكثرة مشابهتها للغزال كما جرت عادة الشعراء فى تشبيههم النساء الصباح الوجوه بالغزلان والمها ، اشتبه عليه الحال فلم يدر هل هى امرأة أم ظبية ؟ فقال : آأنت أم أم سالم ؟

وأطال ابن الصائغ القول فى ذلك وبسطه بأحسن عبارة ، بحيث يفهمه البليد البعيد الذهن ! وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكليته حتى يتوهم من يراه على تلك الصورة أنه قد تعقّل جميع ما قاله الشيخ من شرحه .

فلما فرغ ابن الصائغ من قوله ، قال له الفقيه : يامولانا وأيش[2] فى هذه المرأة الحسناء يشبه الظبية ؟

فقال ابن الصائغ قول منبسط : تشبهها فى ذنبها وقرونها ! فضحك الحاضرون وخجل الفقيه ، وانقطع عن مجلسه .[3]

ومثل هذا يقال فى البدر ، فهو فى جملة صفاته ليس بأجمل من الغادة الحسناء ولا أكثر منها فتنة وخلابة ، وإن أربى عليها فى الإشراق والضياء .

وقد ذكروا : أن الرشيد قال لزبيدة — فى ليلة مقمرة — : إن لم تكونى أحسن من هذا القمر فأنت طالق .

فأفتى علماء زمانه بالحنث إلا يحيى بن أكثم ، فإنه قال : لا يقع عليه الطلاق ! فقيل له : خالفت شيوخك ، فقال : الفتوى بالعلم ، ولقد أفتى به من هو أعلم

---

(١) المدريان : القرنان ، والمشقة : التفريج بين الرجلين .

(٢) أيش : أى شىء   (٣) وفيات الأعيان — ٢ — ٤٥ — ٤٥١

منا وهو الله — سبحانه وتعالى — حيث قال : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

أى فى أحسن تعديل لقامته وصورته وحسن شارته ، منتصبا يتناول مأكوله بيديه ، مزينا بالعقل لا كالبهائم[1] .

وإن صحت هذه الفتيا فلعلها دفعت بالشعراء فى هذا العصر إلى المغالاة فى التشبيهات ، وبخاصة فى هذا اللون المسمى « بالمقلوب » .

سبب تسميته بالمقلوب :

وقد سمى البيانيون هذا النوع من التشبيه : التشبيه المقلوب ، أو المعكوس أو تشبيه القلب والعكس .

وسماه ابن الأثير فى « المثل السائر » : الطرد والعكس ، وعده من مواضع علم البيان الحسنة الموقع ، اللطيفة المأخذ .[2]

وسماه ابن جنى فى « الخصائص » وابن الأثير فى « كنز البلاغة » : غلبة الفروع على الأصول[3] .

وقال عنه عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » : جعل الفرع أصلا والأصل فرعا[4] .

وهو فى اصطلاح البيان : أن يقصد الشاعر على عادة التخيل أن يوهم فى الشىء القاصر عن نظيره أنه زائد عليه[5] .

وحينئذ يجعل الفرع أصلا ، ويشبه الزائد بالناقص .

ويكون الغرض فى الحقيقة إعلاء شأن ذلك الناقص : أى هو بالغ إلى حيث صار أصلا للشىء الكامل فى ذلك الباب .

---

(١) ديوان الصبابة لابن حجلة المغربى — ٣٨

(٢) المثل السائر — ١٦٤

(٣) الخصائص — ١ — ٣٠٨ — عروس الأفراح — ٣ — ٤٠٧

(٤) أسرار البلاغة — ١٨٢ (٥) نهاية الأرب — ٧ — ٤٧

فمعنى كونه مقلوبا : أن يجعل ماالوجه فيه أتم: مشبها ؛ ليتوهم السامع أن المشبه بهالمقصود بالمبالغة أتم فى وجه الشبه من المشبه « الذىأصله مشبه به » . اعتماداً على القاعدة المقررة : من أن الوجه فى المشبه به أتم .

وقد مثلوا له بهذا البيت السائر ، وهو لمحمد بن وُهيب يمدح المأمون:[1]

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتـــدح

وقبله :

ما زال يلثمنى مراشفه ويعلنى الإبريق والقدح
حتى استرد الليل خِلعته وبدا خلال سواده وضـــح

وقد قال فيه على بن هارون المنجم عن أبيه : لم يتوصل أحد إلى مدح بمثل قول محمد بن وهيب[2] .

قصد إيهام أن وجه الخليفة أعرق وأشهر وأتم وأكمل فى الوضوح والضياء من الصباح فاستقام له ذلك بحسب النية .

وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح ، لأن تشبيه الوجه بالصباح أصل متفق عليه لا ينكر ولا يستنكر ، وإنما الذى يستنكر تشبيه الصباح بالوجه[3] .

تحليل دقيق للقلب :

وقد حلل الإمامان « عبد القاهر الجرجانى والرازى » هذا البيت تحليلا رائعاً يعبق بنفحات ذكية من علم النفس ، وهذا ماجعلنا نذكر هذا البيت هنا مع شهرته المستفيضة التى أدنته من الابتذال .

---

(١) معاهد التنصيص ـ ١ ـ ١٥٣
(٢) زهر الآداب ٣ — ١٨   (٣) حسن التوسل ـ ١٩

وفيما يأتى إجمال لما فصلاه [1]:

١ — إن هذا التشبيه دعوى ، وهى إن أشبهت قولهم : لايدرى أوجهه أنور أم الصبح ؟ وغرته أضوأ أم البدر ؟ وقولهم — إذا أفرطوا — :

نور الصبح يخفى فى ضوء جبينه ، أو نور الشمس مسروق من نور جبينه

إلى غير ذلك من وجوه ، فإن فى الطريقة الأولى خلابة ووشيا من السحر ، وهى كأنه يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد فى طلب تشبيه يفخم به أمره .

٢ — يوقع فى نفسك المبالغة من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاءها ، لأنه وضع كلامه موضع من يقيس على أصل متفق عليه وأمر مسلم به ، لا يقع فيه اختلاف ولا إنكار ، والمعانى إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها سرور خاص وفرح عجيب ، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة .

وإنك لتجد مصداق هذا القول حين توازن بين قول ذى الرمة [2]:

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس

وقول بعضهم :

تمشى فتثقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف

وقول المؤمل — وقد أفرط — :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تد خل أردافها غدا

فإن هذا الكلام الذى يهجم عليك بهذه الصفات المستغربة لا تشعر له بالأريحية ولا النداوة لخلوه من الخلابة وحسن التأتى الذى يفيدها التشبيه المقلوب فى البيت الأول .

---

(١) أسرار البلاغة — ١٨١ — ١٨٢ — نهاية الإيجاز — ٧٦ — ٧٧

(٢) التمثيل للمؤلف .

فإن من تمشى إلى خلف حين تحاول السير إلى الأمام ! ومن تبلغ بها الضخامة أن تخلف أردافها وراءها حين تلج بابا بمقدار يوم ، لا تعد شيئا مثيراً للضحك والسخرية فحسب ، بل تعد شيئا مخيفا مرعبا أكثر من الجان والغيلان !

ولكن انظر كيف جاء آخر بالسحر الحلال فى قوله :

آخرها متعب لأولها فبعضها جائر على بعض

٣ — فى هذا الموضع نكتة ، وهى أنك تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك وتجد الموجود من حيث تتوهم العدم ، وتحصل على الربح بعد أن تُغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

٤ — إن الممدوح يقف بين أمرين يصعب جمع بينهما وتوفية حقهما : معرفة حق المادح بالإصغاء والارتياح له ، جزاء ما قصد من تزيينه وتفخيم شأنه ، ثم امتلاك نفسه حتى لا يزدهيها السرور ويستخفها الطرب ، فيخرج بها إلى العجب المذموم ، وإلى أن يقول : «أنا» فيقع فى صفة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر ؛ لأن للمدح وقعا عميقا فى النفوس ولهذا يقول الشاعر :

بذا فاندبينى وامدحينى فإننى فتى تعتريه هزة حين يمدح

فإذا كان المدح على صورة وجه الخليفة خف عنه الشطر من تكاليف هذه الخصلة .

وقد وصف ابن جنى التشبيه المقلوب : بأنه فصل من فصول العربية طريف ، تجده فى معانى العرب كما تجده فى معانى الأعراب ، ومثل له فى كلام العرب بقول ذى الرمة المتقدم[1] :

---

(١) الخصائص — ١ — ٣٠٨

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد ألبسته المظلمات الحنادس[1]

فذو الرمة جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ، وذلك أن العادة والعرف في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الأنقاء ، وهو مطرد في بابه كقول ذى الرمة نفسه :

ترى خلفها نصفا قناة قويمة ونصفا نقا يرتج أو يتمرمر[2]

وقول الطائى الأكبر :

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة تهتز من قضب تهتز فى كثب

وقول البحترى :

أين الغزال المستعير من النقا كفلا ومن نور الأقاحى مبسما[3]

وقول آخر :

أيا من نصفه غصن يميل ، ونصفه كفل
صفاتك فى تباينها فمنفصل ومتصل
فنصفك موج عاصفة ونصفك شارب ثمل

وقول ابن حجاج :

ومدلل أما القضيب فقده شكلا وأما ردفه فكثيب
يمشى وقد فعل الصبا بقوامه فعل الصبا بالغصن وهو رطيب

فعكس ذو الرمة القصة فى ذلك ، فشبه كثب الأنقاء بأعجاز النساء ، وإنما فعل ذلك مبالغة : أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ، فصار كأنه الأصل حتى شبهت به كثبان الأنقاء .

(١) رواية المبرد : وقد جللته المظلمات الحنادس ، وألبسته بالبناء للفاعل : غطته . الكامل « شرح المرصفى » ج ٧ — ٢

(٢) تمرمر : اهتز وترجرج . (٣) الكفل بالفتح : العجز .

وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى :

في طلعة البدر شيء من محاسنها ... وللقضيب نصيب من تثنيها(١)

وعلى نحو هذا قالوا للناقة : جُمالية لأنهم شبهوها بالجمل في شدته وعلو خلقه .

قال الراعى :

على جُمالية كالفحل هِملاج

وهو كثير فلما شاع واطرد صار كأنه أصل فى بابه حتى عادوا فشبهوا الجمل بالناقة فى ذلك فقال :

وقربوا كل جُمالىّ عَضِـه(٢)

فهذا من حملهم الأصل على الفرع فيما كان الفرع أفاده من الأصل ، ونظائره فى هذه اللغة كثيرة .

وقد لاحظ ابن جنى : أن هذا المعنى عينه قد استعمله النحويون فى صناعتهم كما استعمله اللغويون توسعاً ، فشبهوا الأصل بالفرع فى المعنى الذى أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل ، ألا ترى أن سيبويه أجاز فى قولك هذا الحسن الوجه ، أن يكون الجر من موضعين : أحدهما : الإضافة ، والآخر تشبيه بالضارب الرجل ، الذى إنما جاز فيه الجر تشبيهاً له بالحسن الوجه على ما تقدم فى هذا الباب ، فعاد الأصل فاستفاد من النوع نفس الحكم الذى كان الأصل بدءاً أعطاه إياه ، حتى دل ذلك على تمكن الفروع وعلوها فى التقدير(٣) .

وقد عد ابن جنى هذا النوع من تدريج اللغة ، وعلل لتمكن هذه الفروع والتوسع فيها تعليلا دقيقا : بأنها فى حال استعمالها على فرعيتها تأتى مأتى الأصل

---

(١) الخصائص ٨ ٣٠ ـ المثل السائر ـ ١٦١

(٢) العضه : البعير يشتكي من أكل العضاه أو يرعاها ، والعضاه : أعظم الشجر أو الخمط أو كل ذوات شوك أو ما عظم منها وطال . (٣) الخصائص ج ـ ١ ـ ٣١٠

الحقيق لا الفرعى التشبيهى ، وذلك كقولهم : أنت الأسد، وكفك البحر ، فهذا لفظه لفظ الحقيقة ومعناه المجاز والاتساع ، ألا ترى أنه إنما يريد أنت كالأسد ، وكفك مثل البحر ، وهو واسع كثيراً ، فلما كثر استعمالهم إياه — وهو مجاز — استعمال الحقيقة واستمر واتلأب[1] تجاوزوا به ذاك إلى أن أصاروه كأنه هو الأصل والحقيقة ، فاستعادوا معناه لأصله[2].

هذه نظرة ابن جنى للتشبيه المقلوب ، وهى نظرة دقيقة عميقة ، وإن شابها مزاج اللغوى النحوى لا اللغوى البيانى .

ولكننا لا نستطيع إلا أن نتابع ابن الأثير فيما أخذه عليه من أنه أرسل هذا النوع مهملا[3] دون أن يقيده بما لا غنى عنه من الشروط .

فليس من الحق أن هذا الباب يحسن فيه القلب دائما ، فهو يرد على الندرة لطرافته ، والشرط فى استعماله ألا يرد إلا فيما كان متعارفا ، حتى تظهر فيه صورة الانعكاس ، لأنه لو ورد فى غير المتعارف لكان قبيحا ، لأن مطرد العادة فى البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى كما يقول العلوى[4].

وقد بسط عبد القاهر ما أجمله صاحب الطراز معللا ذلك تعليلا دقيقاً سائغا ، فذكر أنه يمنع من القلب أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله يشبه ، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ، ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك ، فإذا شبهت شيئاً بها ، كان طلب العكس فى ذاك عكساً لما يوجبه العقل ونقصاً للعادة ، لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف ، لا أن يتكلف فى المعروف تعريفه بقياسه على المجهول ،

---

(١) اتلأب : استقام وانتصب .　　(٢) الخصائص — ١ — ٥٦٨

(٣) المثل السائر — ١٦٤　　(٤) الطراز العلوى — ١ — ٣٠٩

وماليس بموجود على الحقيقة ، فأنت إذا قلت فى شيء : هو كخافية الغراب ، فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد فى جنسه ، وأن تصحح مجهوله ، وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب ، فليت شعرى ما الذى تريد من قياسه على غيره فيه [١] .

ومن ثَم نرى القلب يحسن فيما تعالمه الناس ، كتشبيه الشجاع بالأسد ، والجميل بالبدر والشمس ، والجواد بالبحر ، والرزين بالجبل ، والوديع بالحمل ، والماضى بالسهم والسيف ، والحقود بالجمل ، والأحمق بالنعامة ، والبخيل بالحجر ، والأكول بالفيل ، والرواغ بالثعلب ، والمزهو بالطاووس ، واللجوج بالخنفساء .

ومثل هذا يقال فى الأعضاء ، فقد تفنن الشعراء فى الغزل ، فتغزلوا فى المحبوب باسمه ، وكنوا عنه ، واستعاروا له ، ووصفوا أعضاءه وشبهوها بأشياء مشهورة ؛ فشبهوا العين بالنرجس ، وأفعالها بالخمر والسهام ، وشبهوا الحواجب بالقسى ، والجبين بالصباح ، والشعور بالليالى ، والسوالف بالغوالى والصوالج والعقارب ، وشبهوا الوجه بالشمس والقمر ، وشبهوا الخدود بالورد والتفاح ؛ وشبهوا الثغور بالأقحوان ، واللمى بالخمر ، والريق بالشهد ، والشفاه بالعقيق ، والأسنان باللؤلؤ ، وشبهوا النهود بالرمان ، والقوام بالغصون ، والأرداف بالكثبان . [٢]

إلى غير ذلك مما ألفته الأذواق ، وأنست به الأسماع ، أو مما تبتكره القرائح على مدى الأيام مما تسلم به الطباع وتستسيغه العقول ، ومن هنا كان كثير من تشبيهات العصريين الجامحة المغرقة فى الرمزية ، لايتأتى فيها القلب ، لأنها غير مفهومة على أصلها ، فكيف بها بعد أن تقلب ! واعتبر فى ذلك

(١) أسرار البلاغة ص ١٧٨ (٢) نهاية الأرب — ٢ — ١٩٧

بهذه التشبيهات التى أسوقها إليك ، وهى غيض من فيض مما نقرأه فى هذه الأيام للشعراء والكتاب المحدثين :

المرأة : أغنية غرام : فنظراتها كوتر الجيتار الناعم الحنون ، وقوامها كشعاع القمر عندما يتسلل من خلال أغصان الأشجار ، وشفتاها كزورق وحيد تائه على صفحة الماء بين أوراق الأشجار الجافة المتساقطة .(١)

وقد نبه الحصرى : إلى أن من المعانى مالا ينقلب ، ألا ترى أنك تقول : نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام .(١)

وقد أخذ على أبى نواس قوله يصف داراً وقف فيها :

كأنها إذ خرِست جارم   بين ذوى تفنيده مطرق

فقالوا : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وانقطعت حجته : بالدار الخالية التى لا تجيب ، ويشبه صممه بصمم الحجر ، ولا يقول أحد : سكت هذا الحجر كأنه إنسان صامت .(٢)

وأخذوا عليه قوله :

كان نيراننا فى جنب حصنهم   معصفرات على أرسان قَصّار

وقد تبعه أبو تمام الطائى ، فقال فى الأفشين(٣) :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه   حتى اصطلى سر الزناد الوارى
نار يساور جسمه من حرها   لهب كما عصفرت شق إزار(٢)

والشاهد فى البيت الثانى .

قالوا : وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار .

---

(١) أخبار اليوم ١١ ــ ٢ ــ ٥٠

(٢) زهر الآداب ــ ٢ ــ ٩٦ ــ الحيوان ــ ٤ ــ ١٤٦

(٣) الأفشين : بوزن فاسين : قائد تركى من قواد المعتصم ، أبلى فى الحروب بلاء حسنا ، ثم سخط عليه لاتهامه بالزندقة ، فصلبه وأحرقه بتحريض أحمد بن أبى دواد .

فهذا وماأشبهه لا يتوازن انعكاسه ، وتتضاد قضاياه ، وإنما يصح القلب فيما يتحقق تضاده أو يتقارب .

وقد يقال : ولكنهم يجيزون القلب فى تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة ، وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز :

وكأن الشمس المنيرة دينا ... ر جلته حدائد الضرّاب

مع عظم التفاوت بين الشمس والمرآة فى النور ، وبينها وبين الدينار فى النور والجرم .

والجواب : أن التشبيه هنا قصد به الجمع بين شيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون ، فهو لم يوضع على مجرد النور والائتلاق ، وإنما قصد إلى مستدير يتلألأ ويلمع ، ثم خصوص فى جنس اللون يوجد فى المرآة المجاورة والدينار المتخلص من حمى السكة كما يوجد فى الشمس .

فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، والجرم أعظيم هو أم صغير فلم يتعرض له .

ويستقيم لك العكس فى هذا كله ، نحو أن تشبه المرآة بالشمس . وكذلك لو قلت فى الدينار : كأنه شمس ، أو قلت : كأن الدنانير شموس صغار لم تتعد[1] .

بخلاف ما مر من قول أبى نواس ، فإنه لم يقصد به مجرد الجمع بين شيئين فى مطلق الصورة ، بل قصد به المبالغة فى إثبات الصفة .

وجملة القول : أنه متى لم يُقصد ضرب من المبالغة فى إثبات الصفة للشىء ولا القصد إلى إيهام فى الناقص أنه كالزائد ، واقتصر على الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة والشكل واللون ، أو جمع وصفين على وجه يوجد فى الفرع على حدة أو قريب منه فى الأصل فإن العكس يستقيم فى التشبيه ، كتشبيه

---

(١) أسرار البلاغة ــ ١٨٠ — نهاية الإيجاز ــ ٧٧

الصبح بغرة الفرس الأدهم ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم [١].

وبما قصد منه الجمع بين الشيئين فى مطلق الصورة ، هذا التشبيه البديع لابن المعتز :

وجاءنى فى قميص الليل مستتراً   يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء هــلال كاد يفضحنا   مثل القلامة قد قدت من الظفر

قال الحموى : وهذا التشبيه ذكروا : أنه من مخترعات ابن المعتز ، ولكن زاده القاضى الفاضل بهجة ، ونقله من الأعلى إلى الأدنى ، فإنْ رتبة الهلال وعلوها فى التشبيه على قلامة الظفر مابرحت مقررة فى الخواطر ، إلى أن نقلها القاضى الفاضل بطريقة بديعية اقتضتها الحال ، وهى قوله مبالغا «فى قلعة نجم» بالعلو : وأما قلعة نجم ، فهى نجم فى سحاب ، وعُقاب فى عِقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة .

وهذه غاية فاضلية لا تدرك [٢].

وأعجب بقول القاضى الفاضل أيضاً « علاء الدين الغرولى » وسمى القلعة « حصن كوكب » [٣].

وذكر ابن خلكان : أن القاضى الفاضل أخذ قوله هذا من قول ابن المعتز السابق :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا « البيت »

وأن ابن المعتز أخذه من قول عمرو بن قميئة [٤] :

كأن ابن مزنتها جانحاً   فسيط لدى الأفق من خنصر [٥]

---

(١) نهاية الأرب ــ ٧ ــ ٤٨   (٢) خزانة الأدب ــ ٢١٨
(٣) مطالع البدور ــ ٢ ــ ٢٦٤   (٤) وفيات الأعيان ــ ١ ــ ٥١٠
(٥) الفسيط بفتح الفاء : قلامة الظفر ، وابن مزنتها : كناية عن الهلال .

ولم يرق ابن الأثير ماراق « الحموى » و « الغرولى » فى تشبيه القاضى الفاضل ، فقال — ينقده — : إن من شرط بلاغة التشبيه : أن يشبه الشيء بما هو أكبر وأعظم منه ، ومن هنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر فى ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له ، فقال هامة لها الغمامة عمامة إلخ .

ثم مضى بقول : وهذا الكاتب حفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، فإنه أخطأ فى قوله : أنملة ، وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل ! وأصاب فى المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة وتشبيهها بالهلال .

ثم قال : إنه قد يقال : إن هذا الكاتب تأسى بقول الله — تعالى — : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فمثل نوره بطاقة فيها ذبالة .

وقوله — تعالى — : « والقمر قدرناه منازلَ حتى عاد كالعرْجون القديم » .

فمثل الهلال بأصل عِذق النخلة[1] .

وأجاب عن ذلك : بأن هذا مثال ضربه الله — تعالى — للنبي - صلى الله عليه وسلم - فالشجرة : ذات الرسول ، وقلبه : الزجاجة .

والمراد من إضاءة زيت هذه الزجاجة من غير نار : أن فطرته فطرة صافية من الأكدار[2] .

وأما الآية الأخرى « فإنه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم ، وذلك فى هيئة نحوله واستدارته لا فى مقداره ، فإن مقدار الهلال عظيم ، ولا نسبة للعرجون إليه ، لكنه فى مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقداراً .

وأما هذا الكاتب ، فإن تشبيهه ليس على هذا النسق ، لأنه شبه صورة

---

(١) العذق بالكسر : قنو النخله وبالفتح : النخله بأجمها .

(٢) فى هذه الآية مذاهب كثيرة فى تفسيرها .

الحصن بأنملة فى المقدار لا فى الهيئة والشكل ، وهذا غير حسن ولا مناسب وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الأنملة ، فأخطأ من جهة وأصاب من جهة لكن خطؤه غطى على صوابه[١].

والحق أن ابن الأثير قد تحامل فى نقده على القاضى الفاضل وبلغ الغاية فى تفنيده ظالماً له !

فقوله : إن من شروط بلاغة التشبيه : أن يشبه الشىء بما هو أكبر وأعظم منه ليس مطرداً وإنما يكون هذا فى التشبيه العادى ، وأما فى التشبيه المقلوب ، فيجعل الفرع أصلا والأصل فرعا ، ويشبه الزائد بالناقص على جهة التخييل والإيهام .

ثم كيف عرف أن الفاضل يريد تشبيه الحصن بالأنملة فى المقدار ! ولم لا يكون مراده التشبيه فى الهيئة والشكل كما فى الآية الكريمة ، وبخاصة إذا علمنا أنه يصف قلعة مفرطة فى العلو ذاهبة فى السماء لأنها مبنية فوق جبل ألا يدل ذلك على أنه يصفها فى مرأى العين لا من حيث الواقع ، ولهذا نراه ينعتها بأنها « نجم » وأنها « عقاب » والعقاب من دأبها التحليق .

ولعله مما يؤيد هذا التعصب على الفاضل أن ابن الأثير أغفل اسمه وكنى عنه « ببعض الكتاب من أهل مصر » .

وقد كنت رأيت هذا الرأى اعتماداً على تنافس المعاصرين ، ولا سيما إذا كانا متحدين فى الصنعة — والاشتراك فى الصنعة عداوة — حتى تحقق لدى ذلك بما ذكره ابن خلكان : من أن ابن الأثير كان يعارض القاضى الفاضل فى رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات ومجاوبات[٢] .

ولا شك أن إغفال ابن الأثير لاسم القاضى الفاضل — وهو علم على

---

(١) المثل السائر — ١٥٦ (٢) وفيات الأعيان — ٢ — ٢١١

رأسه نار — لا يدل على سمو فى الخلق ولا فى الذوق ، بل هو جفاء وغلظة لا يصح أن تصدر من كاتب ، ولكن شدة إعجاب ابن الأثير بنفسه واعتداده بمقدرته الإنشائية كثيراً ما يحيدان به عن أدب النفس ونزاهة النقد[1].

قدمنا أن القلب فى التشبيه لا يتأتى إلا فيما يكون متعارفا وأشبعنا القول فى ذلك موضحا بالأمثلة .

ونزيد على هذا شرطا آخر له أهميته ، وهو أنه لا بد من وجود قرينة تدل على مراد القائل من أنه يقصد جعل الادنى أعلى كقول الشاعر :

ولم أر مثل هالةَ فى مَعَدّ   يشابه حسنَها إلا الهلالا

لأن الأمر لا بد فيه من النية ، فإذا لم يكن من نية القائل القلب ، وجرى على أصل التشبيه من إلحاق الناقص بالزائد ، فهنا يمتنع العكس مع بقاء الغرض ؛ لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة فى الإثبات .[2]

والتشبيه المقلوب مبنى على المبالغة ، فلا يأتى شىء منه إلا والمقصود ذلك .

ومن ثم كان الغرض من التشبيه فيه يعود إلى المشبه [3] به حتما حتى تتم المبالغة فى شأنه ، بخلافه فى غير ذلك فإنه يعود إلى المشبه .

وهذه المبالغة من وجهين :

١ — وهو الغالب ، والكثير الشائع ، لإيهام أن المشبه به أتم فى وجه الشبه من المشبه : أى فى حال القلب كما مر فى الأمثلة مع أنه ليس كذلك فى الواقع ؛ لأنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع « القائل » اللفظ عليه ، إذ الإيهام إنما هو فى القلب ، وأما المشبه به فى الأصل فأتم حقيقة[4] .

(١) فن الأسجاع لعلى الجندى ١٣٦ — ١٣٧
(٢) الأقصى القريب ٤١ — نهاية الإيجاز — ٧٧ — نهاية الأرب — ٧ — ٤٨
(٣) الفوائد الغياثية — ٢٠٣ — (٤) المصدر السابق — ٢٠٥ — التجريد — ٤ — ٩٩

٢ — بيان الاهتمام بالمشبه به لفظاً ومعنى ، كما إذا شبه الجائع وجها جميلا يشبه البدر في الاستدارة والإشراق ، بالرغيف في الاستدارة واستلذاذ النفس به ، إظهاراً لاهتمامك بشأن الرغيف لا غير .

ويسمى هذا النوع إظهار المطلوب ، وذلك لإتيان صاحبه بما يدل على أنه جائع ، وأن الرغيف مطلوب عنده حتى لا يجد في خاطره عند قصد التشبيه غيره ، فإنه لما عدل عن تشبيه الوجه بالبدر الذي هو المناسب وعكس المعنى ، دل كلامه — بمصاحبة بعض القرائن الحالية أيضاً — على أنه جائع جوعا أوجب له أنه إذا التفت إلى مايشبه به هذا الوجه ، لم يجد أقرب من الرغيف لشدة الرغبة الموجبة لعدم زواله عن الخاطر [1].

على أنه يجب أن يكون معروفا أن العلاقة بين الوجه والرغيف ليست نابية ولا بعيدة ، ولا تستمد وجودها من حاسة الجوع فقط ، بل تعتمد على صلة وثيقة مستقلة ، ولولاها ما حسن التشبيه ولا كان دقيقا ، فالفرزدق الشاعر لقب بذلك لأن وجهه كان غليظاً جهما يشبه « الفرزدق » وهو الرغيف الذي يسقط في التنور ، أو الرغيف الضخم الذي يجففه النساء للفتوت .[2]

وقال مجير الدين بن تميم :

وكأن أرغفة الخوان وحولها بقل تهش إليه نفس الآكل
وجنات غيد صففت ، وجميعها يبدو بها خط العذار الباقل

وكما يشبه الرغيف بالوجه يشبه أيضاً بالقمر ، قال شاعر يهجو الحجاج بأنه كان معلم صبيان :

أينسى كُلَيب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر[3]

(١) شروح التلخيص — ٣ — ٤١١
(٢) خزانة الأدب للبغدادي — ١ — ٢٠٤ — الأغاني — ١٩ — ص ٢
(٣) كليب : اسم للحجاج وهو صغير .

رغيف له فَلكة ما تُرى وآخر كالقمر الأزهر[1]

يريد أن بعض الرغفان غير تام الاستدارة وبعضها تام ، لأن خبز المعلمين يأتى مختلفا ، لمجيئه من بيوت صبيان مختلفى الأحوال .

وقال ابن الحجاج :

يا صاحب البيت الذى قد مات ضيفاه جميعا
مالى أرى فلك الرغيف م لديك مشترفا رفيعا
كالبدر لا ترجو إلى وقت المساء له طلوعا

فشبه الرغيف بالبدر لعلتين : إحداهما الاستدارة ، والثانية طلوعه مساء[2] .

وقال أبو الحسين الجزار :

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة تجار
ورغائف منه تروقك وهى فى مرأى العيون كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الخدين م للشونيز فيه عذار[3]
وكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
كالفضة البيضاء لكن يغتدى ذهبا إذا قويت عليه النار

ويقول حافظ :

ويخال الرغيف فى البعد بدراً ويظن اللحوم صيداً حراما

فالعلاقة — كما ترى — بين هذه الثلاثة : الوجه والرغيف والقمر قوية مسلمة لم تغب عن نظر الشعراء .

وقد نص السكاكى على أن هذا النوع الأخير — وهو ما سمى « إظهار المطلوب » — لا يحسن المصير إليه إلا فى مقام الطمع فى تسنى المطلوب[4] .

---

(١) الفلكة بفتح فسكون : مستدار كل شىء .

(٢) أسرار البلاغة — ٢٣٧ (٣) الشونيز : بضم الشين وفتحها : الحبة السوداء .

(٤) مفتاح العلوم — ١٨٥ — شروح التلخيص — ٣ — ٤١١ .

وقد ذكروا : أن الصاحب بن عباد قصد مجلسه أحد القضاة ، فاستظرفه وأمر ندماءه أن يجيزوا قوله :

وعالم يعرف بالسَّجزى[١]

فنظموا على أسلوبه حتى انتهت النوبة إلى أحدهم من الأشراف العلويين — وكان جائعا — فقال :

أشهى إلى النفس من الخبز .

ففطن الصاحب إلى أنه جائع فأمر بإعداد مائدة له .

وليس هذا من قبيل التشبيه ، ولكنه إشارة إلى المثال بتشبيه الوجه الحسن بالرغيف .[٢]

على أن الطيبي — كما تقدم — جعل من أدوات التشبيه أفعل التفضيل مثل زيد أفضل من عمرو .

ومما جاء على نحو من قول الشريف العلوى فى القاضى السجزى قول الشاعر الأعرابى[٣]:

فما صحفة مأدومة بإهالة ... بأطيب من فيها ولا أَقِطٍ رطب[٤]

وقول آخر[٥]:

فإنك إن ترى عرَصات جُمْل ... بعاقبة فأنت إذا سعيد[٦]

لها عينان من أقط وتمر ... وسائر خلقها بعدُ الثريد

يريد بالإقط والتمر ما اجتمع فيهما من البياض والسواد ، وبالثريد : لين جسمها .

---

(١) السجزى : نسبة إلى سجستان ، وهى من شواذ النسب . وفيات الأعيان ١ـ٥٤٩ـ المزهر ـ ٢ ـ ٢٧٩ (٢) الفوائد الغيائية ـ ٢٠٥ (٣) ديوان الحماسة ـ ٢ ـ ٤٠٣
(٤) الإهالة : كل ما يؤتدم به ، والأقط : ما يتخذ من المخيض الغنمى « الرائب » .
(٥) المصدر نفسه وارقم . (٦) العرصات جمع عرصة : المكان المتسع ، ويعاقبة : أى عقب معرفتها .

فإننا لا نشك حين نسمع هذا الشعر أن صاحبيه فى حال إنشائه كانا فى شوق عارم إلى هذه الألوان من الأطعمة التى أشادا بها .

ومثل هذه التشبيهات يحسن أن ننظر إليها من ناحيتين :

الأولى : ناحية الذوق الجمالى ، وهنا لا يسعنا إلا أن نحكم على أصحابها بقلة نصيبهم من هذه الموهبة النفسية ، إلا أن يقال : إنها وردت على سبيل المفاكهة ، فهى إذاً لون من الهزل لا الجد ، فإنه إذا قال إنسان : إن أجمل ما فى الوجود هو شواء الضأن أو كثرة الشراب ، فينبغى أن نعرف أنه عاطل من تذوق الجمال ، وأنه يخلط الجمال بشىء آخر يحبه .[1] .

وليس شىء ألذ ولا أسر من عز الأمر والنهى ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن فى أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وثمرة السيادة ؛ لأن هذه الأمور هى نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس ، فأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمّ ، وكل ما كان من نصيب الحواس ، فقد علمنا أن كل ما كان أشد نهماً وأرغب كان أتم لوجدانه الطعم [2].

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير ذلك الشيخ الأعرابى الذى نزل به فتى عاشق أكول ا فقال فيه [3] :

وقد رابنى من جعفر أن جعفرا ... يُليح على قرصى ويبكى على جُمل [4]

فلو كنت عذرى العلاقة لم تبت ... بطينا وأنساك الهوى شدةَ الأكل

فأجابه الفتى :

إذا كان فى بطنى طعام ذكرتها ... وإن جعت يوما لم تكن لى على ذكر

---

(١) فلسفة الجمال ترجمة عبد الحميد يونس — ٨٨

(٢) الحيوان — ٢ — ٣٣ (٣) العقد الفريد — ٤ — ٢٤١ — ذيل الأمالى للقالى — ٢١٣

(٤) يليح : يشد .

ويزداد حبي إن شبعت تجدداً
وان جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

ولكنه فى مقابل هذا الفتى المغرم « بجَمل » وبالطعام ، وُجد أناس حلت اللذات المعنوية من نفوسهم المحل الأسمى .

فقد ذكر الشعبي : أنه كان يحدث عبد الملك بن مروان ـ وهو يأكل ـ فيحبس الخليفة اللقمة ، فيقول الشعبي : أجزها أصلحك الله ؛ فإن الحديث من ورائها ، فيقول : والله لحديثك أحب إلى منها [1].

وحدث عيسى بن دأب الخليفة المهدى بنصيحة ملكية ، وفى يده لقمة قد رفعها إلى فيه ، فأمسكها وقال : ويحك أعد علىَّ ما قلت !

فقال يا أمير المؤمنين ، أسغ لقمتك !

فقال : حديثك أعجب إلىّ [2] .

ويقول ابن الماجشون إنى لأسمع بالكلمة المليحة ومالى إلا القميص واحد فأدفعه لصاحبها وأستكسى الله — عز وجل — [3].

وحدث عروة بن عبد الله : أن عروة بن أذينة الليثى كان نازلا فى دار أبى العقيق ، فسمعته ينشد لنفسه .

إن التى زعمت فؤادك ملّها ... خُلقت هواك كما خلقت هوى لها
فإذا وجدت لها وساوس سلوة ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلّها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بلَباقة فأدقّها وأجلّها
لما عرضت مسلِّما لى حاجة ... أخشى صعوبتها وأرجو حلّها
منعت تحيتها فقلت لصاحبى ... ما كان أكثرها لنا وأقلّها
فدنا وقال لعلها معذورة ... فى بعض رِقبتها فقلت لعلها

---

(١) روض الأخيار لمحمد بن قاسم بن يعقوب ـ ٣٣٦ .
(٢) زهر الآداب ـ ٣ ـ ١٨٠ (٣) زهر الآداب ـ ١ ـ ٢٠

قال فأتانى أبو السائب المخزومى ، فقلت له — بعد الترحيب والبشر — ألك حاجة ؟

قال : نعم أبيات لعروة بلغنى أنك سمعته ينشدها .

فأنشدته الأبيات ، فلما بلغت إلى قوله :

فدنا وقال لعلها معذورة «البيت»

طرب وصاح! وقال : هذا والله الدائم الصبابة الصادق لا كالذى يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة عنى فأهلى بى أضن وأرغب

لقد عدا هذا الأعرابى طوره ! وإنى لأرجو أن يغفرالله لصاحب هذه الأبيات لحسن ظنه بها وطلب العذر لها !

قال فعرضت عليه الطعام ، فقال : لا والله ما كنت لأخلط بهذه الأبيات طعاما حتى الليل !

ثم انصرف [١] .

ونقل عن ابن الأنبارى : أنه كان يأخذ الرطب ويشمه ويقول : أما إنك لطيب ، ولكن أطيب منك ما وهبه الله — عز وجل — لى من العلم [٢] .

وأثر عن الشافعى قوله :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى من وصل غانية وطيب عناق

وألذ من نقر الفتـــاة بدفها نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

والناحية الأخرى : ناحية الصدق المؤثر فى الأداء والشعور معاً . وهى ناحية لا تنكر قوتها وروعتها ، لأنها تصور لنا مبلغ أهمية هذه الأشياء وسلطانها على نفوسنا حين يلذع الجوع أحشاءنا !

وحتى إذا لم نكن قد أصبنا بجوع قط ، ولم نشرد فى العراء أبداً كما يقول

(١) ديوان الصبابة — ١٣١ (٢) نزهة الألباء — ٣٣٥

« جاريت ». فإن للطعام والمأوى أهمية بشرية عامة ، ولو أن شاردن Chardin بدلا من رسمه الرغيف رسم مخروطاً غير منتظم . أو زجاجة شمبانيا ، ولو أن « رامبراندت » بدل رسمه لطاحونة الهواء ، رسم أسطوانة منتظمة أو رذاذا ، مع ما فى رسم هذه الأشياء من صعوبة لا تقل عما عداها ، لكان جمال رسوم هؤلاء الفنانين مختلفاً — على الأقل — عن رسومهم التى أنتجوها فعلا [١] .

- ومما لا خلاف فيه أن هـذه التشبيهات القائمة على الشهوات والرغبات من نحو قول الشريف العلوى :

أشهى إلى النفس من الخبز .

لها صلة وثيقة بالنفس

فمن الثابت ؟

١ — أن الإنسان إذا أحب شيئاً كلف برؤيته ولهج بذكره كما يقول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثّل لى ليـــلى بكل سبيل [٢]

وقول إبراهيم بن المهدى :

لم يُنسِينك سرور لا ولا حزن ... وكيف لا كيف يُنسى وجهك الحسن !
ما زلت مذ كلِفت نفسى بحبكم ... كلى بكلك مشغول ومرتهَن
نور تجسم من شمس ومن قمر ... حتى تكامل منه الروح والبدن

ومما رواه القالى [٣]:

ولما أبى إلا جماحا فؤاده ... ولم يسلُ عن ليلى بمال ولا أهل
تسلّى بأخرى غيرها فإذا التى ... تسلّى بها تُغرى بليلى ولا تسلى

(١) فلسفة الجمال ــ ٣٣ (٢) كنى بليلى عن عزة وكثيراً ما يفعلون ذلك .
(٣) الأمالى والنوادر ــ ١ ــ ٢١٦ ــ ونسبهما صاحب تزيين الأسواق إلى مجنون ليلى ــ ٣٣

ولابن عبد ربه كلمة نفيسة فى ذلك ، قال : وقد تكلم الناس فى النعمة والسرور على تباين أحوالهم ، واختلاف هممهم ، وتفاوت عقولهم ، وما يجانس كل رجل منهم فى طبعه ، ويؤالفه فى نفسه ويميل إليه فى وهمه ، وإنما اختلف الناس فى هذا المذهب لاختلاف أنفسهم ، فنهم من نفسه عصبية ، فإنما همه منافسة الأكفاء ، ومغالبة الأقران ، ومكابرة العشيرة . ومنهم من نفسه ملكية ، فإنما همه اليقين فى العلوم ، وإدراك الحقائق ، والنظر فى العواقب ، ومنهم من نفسه بهيمية ، فإنما همه طلب الراحة ، واهتبال النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح .[1]

وقد قيل لامرىء القيس : ما السرور ؟

قال : بيضاء رُعبوبة ، بالحسن مكبوبة ، بالشحم مكروبة ، بالطيب مشبوبة .

وكان مفتوناً بالنساء .

وقيل لأعشى قيس : ما السرور ؟

قال : صهباء صافية ، تمزُجها ساقية ، من صوب غادية .

وكان مغرما بالشراب .

وقيل لطرفة : ماالسرور ؟

قال : مطعم هنى ، ومشرب روى ، وملبس دفى ، ومركب وطى .

وكان يؤثر الخفض والدعة .

وقيل ليزيد بن مزيد : ما السرور ؟ قال : قبلة على غفلة .

وكان صاحب وصائف[2].

وقال طفيلى :

---

(١) العقد الفريد ــ ٤ ــ ٢٤٦ (٢) المصدر نفسه ــ ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ــ زهر الآداب ــ ٢ ــ ٢٠٣ ــ عيون الأخبار ــ ١ ــ ٢٥٩

ألا ليت لى خبزاً تَسربل رائباً وخيلاً من البَرنىّ فرسانها الزبد [١]
فأطلب فيما بينهن شهادة بموت كريم لا يشق له لحد

وقيل لبعض الطفيليين : أى سورة تعجبك فى القرآن ؟ قال المائدة .

قيل : فأى آية ؟

قال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا » .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : « ادخلوها بسلام آمنين » .

قيل : ثم ماذا ؟

قال : « وما هم منها بمخرَجين » [٢].

وهكذا كل امرىء أمنيته على ما يطابق غريزته ، ويوافق [٣] نحيزته . وسبحان من أودع فى كل قلب ما شغله .

٢٠ — إذا قوى إحساس الإنسان بشىء حل منه فى بؤرة الشعور ، وانتقل غيره إلى الحاشية ، فأصبح جلياً واضحاً مستنيراً [٤] يشغل ذهن صاحبه ، ويجرى على فلتات لسانه من غير قصد .

وقد قيل لأشعب ما أحسن الغناء ؟

قال : نشيش المقلى [٥] .

وساوم رجلا فى قوس عربية ، فطلب الرجل ديناراً .

فقال أشعب : والله لو أرمى بها طائراً فى جو السماء ، فيقع مشوياً بين رغيفين ما أعطيتك بها ديناراً ! [٦] .

وقيل لطفيلى : كم اثنان فى اثنين ؟

---

(١) البرنى : ضرب من التمر أصفر مدور وهو أجود التمر .

(٢) المستطرف للأبشيهى — ١ — ٢٤٧ (٣) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٣

(٤) علم النفس للأستاذين المرحوم الجارم بك ، ومصطفى بك أمين .

(٥) العقد الفريد — ٤ — ٢٤٢ (٦) المصدر نفسه — ٢٣٦

قال : أربعة أرغفة ! [١] .

وقيل لبنّان الطفيلي : كم كان عدد صحابة رسول الله يوم بدر ؟

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر رغيفا !

وفى رواية : درهما [٢] .

وقيل لوراق ما تشتهى ؟

قال : قلما مشّاقا ، وحبرا براقا ، وجلودا رقاقا [٣] .

وكان محمد بن راشد البجلي يتغدى ، وبين يديه شبوطة وخياط يقطع ثيابا له ، ورآه يلحظ الشبوطة .

فقال له زعمت أن هذا الثوب يحتاج إلى خرقة فكم مقدارها ؟

فقال ذراع فى عرض الشبوطة [٤] .

ودخل آخر على رجل يأكل أترجة بعسل ، فأراد أن يقول السلام عليكم ، فقال: عَسَلَكْم [٥] .

ويقول الجاحظ فى ذلك : ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلة بينها وبين تلك المعانى فى الصناعة .

وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والجار ، أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه إذا حدث أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو فى صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل [٦] .

---

(١) العقد الفريد — ٢٣٧ (٢) مطالع البدور — ٢ — ٥١ — البيان والتبيين — ٢ — ١٤٢ « السندوبى » (٣) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٣

(٤) الشبوطة بضم الشين وفتحها مع التشديد وقد تخفف: سمكة دقيقة الذنب عريضة الوسط لينة المس صغيرة الرأس . (٥) البيان والتبيين — ٢ — ١٤٤

(٦) الحيوان — ٣ — ١١٤

(٣) كل واصف ، فإنما يشبه الموصوف من جنس صناعته وبما تكثر رؤيته له[١] .

وإنك لتجد مصداق الأول فيما ذكروا : من أنه قدم إلى أبي على الفارسى النحوى شىء غير نضيج ، فقال هذا لم تعمل فيه العوامل[٢] .

وقال ملاح : وقع علينا اللصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان طول هذه المدرى ، وكانت فخذه أغلظ من هذا السكان ، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير[٣] .

وقال أبو هفان : سألت وراقا عن حاله ، فقال عيشى أضيق من محبرة وجسمى أدق من مسطرة ، وجاهى أرق من الزجاج ، ووجهى عند الناس أشد سوادآ من الحبر بالزاج ، وحظى أخفى من شق القلم ، ويداى أضعف من قصبة ، وطعامى أمر من العفص ، وشرابى أحر من الحبر ، وسوء الحال ألزم لى من الصمغ !

فقلت له : عبرت عن بلاء ببلاء[٤] .

وكان بعض الأطباء فى خدمة بعض الملوك أثناء غزوة ، ولم يكن معه وقت الانتصار كاتبه ، فتقدم إلى الطبيب أن يكتب إلى الوزير يعلمه بذلك ؟

فكتب : أما بعد فإنا كنا مع العدو فى حلقة كدائرة البيمارستان ، حتى لو رميت مبضعاً لم يقع إلا على قيفال ، فلم يكن إلا كنبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بحران عظيم ، فهلك الجميع بسعادتك يامعتدل المزاج[٥] .

ومشى البيدق البريدى مع امرأة جميلة ، فقال له شمس الدين المنجم الشاعر : أراك يا بيدق تفرزن حول هذه النفس !

فقال له : وإذا كان ذلك ؟

(١) يتيمة الدهر للثعالبى — ١ — ٤٥ (٢) مطالع البدور — ٢ — ٥٦

(٣) البيان والتبين — ٢ — ١٤٢ «ط — السندوبى» . (٤) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٠

(٥) مطالع البدور — ٢ — ١٠٨ والقيفال بالكسر : العرق في اليد يفصد .

فقال المنجم : أخشى عليك من ذلك الرخ يقطعك من الحاشية ، ويرميك عن الفرس ، ويقطع عليك الرقعة ولو كان فى كفيك الفيل !

يشير بقوله « الرخ » إلى أحد الأعيان وكان يحب المرأة .[١]

وقد جمعت هذه القطعة كثيراً من مصطلحات الشطرنج .

وقد وصفت البلاغة على ألسنة قوم من أهل الصناعات[٢] .

كما وصفت الحرب كذلك[٣] .

فاستعملوا فى أوصافهم مصطلحات فنونهم ، وأسماء آلاتهم فجاؤا فى هذا بكل طريف وغريب !

ولا شك عندنا أن بعض ذلك موضوع ؛ لارتفاع مستوى هذا الكلام عن طبقتهم ، ولكن لا خلاف أن الذين وضعوا هذه الأقوال ونحلوها أصحاب هذه الصناعات والمهن ، تخيلوا أن هؤلاء الأقوام لو أتيحت لهم القدرة على صوغ هذا الكلام ما نطقوا بغيره .

ونجد مصداق هذا فى الشعر الملوكى وما ماثله من شعر المترفين ، وفى شعر الفروسية والبطولة والحماسة ، حيث تلمس فى الأول لين الحاشية وبلهنية العيش ، ونضرة النعيم ، وزهرة الدنيا ، وترى فى الثانى أدوات القتال وآلات الحرب ، وتعانق السيوف واشتجار الرماح ، وجيشان الدماء ، وطرد الفرسان .

فمن الأول قول الأمير تميم الفاطمى[٤] :

نقّبتْ وجهها بخز وجاءت ... بمدام منقّب بزجاج
فتأملت فى النقابين منها ... قمراً طالعاً وضوء سراج

وقول سيف الدولة :

كأنما النار والرماد معا ... وضوءها فى ظلامه يحجب

(١) مطالع البدور — ١ — ١٧٧
(٢) زهر الآداب — ١ — ١٥٤
(٣) طراز المجالس — ٦٨
(٤) زهر الآداب — ٢ — ١٧٧

وجنة عذراء مسها خجل   فاستترت تحت عنبر أشهب

ومن الثانى قول أبى فراس :

والماء يفصل بين زهرالرو   ض فى الشّطين فصــلا
كبساط وشى جرّدت   أيدى القيون عليه نصلا

وقوله يصف بستانه المسمى « البديع »(١) :

انظر إلى زهر الربيع   والماء فى برك « البديع »
وإذا الرياح جرت عليه   فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا   ئح بيننا حــلق الدروع

فانظر إلى هذا الفارس الشاعر ، كيف لم يفارقه خيال البطولة ! فأحال هذا البستان « البديع » الوديع ميدانا لمعركة طاحنة تتطاير فيها أنسجة الدروع على شفار السيوف !

ولإبراهيم بن موسى بن جميل :

غزتنى بجيش من محاسن وجهها   فعبّا لها طرفى ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجمعان أقبل طرفها   يريد اغتصاب القلب قسراً على الحب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا   جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا   على كبدى يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر   قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وقد لا يكون هذا الشاعر من رجال الحرب ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون فيه طبيعة الفرسان .

ومثله ما نسب إلى حمدونة الأندلسية ، وقيل لمهجة بنت عبد الرازق الغرناطية(٢) :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا   وما لهم عندى وعندك من ثار

---

(١) يتيمة الدهر — ١ — ٤٥   (٢) معجم الأدباء لياقوت — ١ — ٢٧٥

وشنّوا على أسماعنا كل غارة ... وقلّ حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيك وأدمعى ... ومن نفَسى بالسيف والسيل والنار

ويقال فيه ما قيل فى سابقه ، فبعض النساء فيهن طبيعة الرجال ؛ وهن اللاتى يسمين بالمذكّرات :

ومن أروع ما قرأت فى ذلك : ما رواه النويرى[1] ولم ينسبه إلى قائله ولكن جاء فى غضون الأبيات ما يدل على أنه كان من الفرسان المحاربين . ويروقك فيما قاله : أنه وازن بين أدوات الحرب وأدوات الغرام موازنة من مارس المعركتين معا وقاسى حرهما ، فعرفنا منها أيهما أشد هولا وأصعب مراسا :

هزوا القدود وجرّدوا الأجفانا ... فاطلب لنفسك إن قدرت أمانا
والقِ السلاح إذا انثنوا وإذا رنوا ... وكن الجبان وإن ملكت جنانا
واحذر ضراباً بالعيون وسل به ... مثلى ، وجانب بالقدود طعانا
فلقد رأيت الأسد وهى كواسر ... تخشى بمعترك الهوى الغزلانا
لا تعبأنّ بذابل وبباتر ... وخف المهفهف واحذر الوسنانا
لولا تشابه مقلة أو قامة ... ماخفت يوما صعدة وسنانا
وأنا الذى حضر الوقائع فى الهوى ... وأقام فى أسر الغرام زمانا
ولكم رأيت به الشدائد مرة ... ولكم رأيت به الممات عِيانا
وثبتّ بين معاطف ولواحظ ... فى موقف يذر الشجاع جبانا
مستسلماً للعشق لا مستصرخا ... صبراً ولا مستنجداً سلوانا
أرجو الشهادة إن قُتلت به وما ... ولّيت فيه ولا ثنيت عِنانا
يا ويحَ قلب ما خلا من شغله ... بصبابة ومحبة مذ كانا

(١) نهاية الأرب ــ ٢ ــ ٢٢٠

لو فتشوه لما لقُوا لسوى الهوى   فيه ولا غير الغرام مكانا

ومن قول شاعرنا « حافظ » فى ذلك يصف مجلس أنس :

وفتيان راح أقسموا أن يبددوا   جيوش الدجى ما بين أنس وأفراح

فهبوا إلى خمّارة قيل إنها   قَعيدة خمر تمزُج الروح بالراح

وقالوا لها إنا أتينا على ظما   نحاول وِرد الراح رغماً عن اللاحى

فقامت فى أجفانها كسل الكرى   وفى ردفها واستعرضت جيش أقداح

وقد علق شارح ديوانه الأستاذ « محمد هلال » على هذه المقطوعة فقال : يلوح لنا أن صاحبنا لم يقل هذه الآبيات إلا فى ليلة قضى نهارها فى تمرينات عسكرية ، ما لبث عقبها أن لحق بخلّانه فى مجلس لهوهم هذا ، مفعماً صدره بألفاظ الجندية من تجييش الجيوش ، وتبديد العدو ، واستعراض الجند إلى غير ذلك ، مما يقره فى قراره ، ويرده إلى معدنه[1] .

(١) ديوان حافظ ـ ١ ـ ١٣٧ « الطبعة الأهلية » .

الفصل الثانى والعشرون

قيمة التشبيه المقلوب وتطوره وما يتصل بذلك

بعد هذا الاستطراد الذى أوردناه فى الفصل السابق والذى هو من صميم موضوعنا نقول : إن البيانيين لم يفتهم أن يُشيدوا بجمال التشبيه المقلوب ، فقال الوطواط : أجمل التشبيهات ، وأكثرها قبولا لدى الطباع : هى تلك التى إذا انعكست ، وشبه فيها المشبه به بالمشبه ، فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته وصواب التشبيه وصحته ، مثل تشبيه الطرة بالليل البهيم ، فإنهم إذا شبهوا الليل البهيم بالطرة كان التشبيه جميلا مقبولا ، ومثل تشبيه الهلال بنعل الجواد ، فإنهم إذا شبهوا نعل الجواد بالهلال كان التشبيه كذلك حسنا [1] .

وهذا كلام صحيح فى أصله ، ولا يعكر عليه إلا تشبيه الهلال بنعل الجواد وبالعكس فإنا لا نراه حسناً ؛ فإنه وإن تشابها هيئة فى الجملة إلا أن فيه زراية على هذه الصورة السماوية الوضيئة الجميلة ، ونزولا بها إلى مستوى شىء محتقر .

وحسبنا أن بعض المتورعين نهى عن تصغير القمر لأن الله كبره .

ويقول الحصرى : وقد ترى تكثير الشعراء من تشبيه أوراك النسوان بالرمل والكثبان ، قال الشاعر :

وبيض نضيرات الوجوه كأنما ... تأزّرن دون الأُزر رَملات عالج[2]

---

(١) حدائق السحر ـ ١٣٨ (٢) عالج : مكان به رمل .

خدال الشوى لا تحتشى غير خلقها إذا الرسح لم يصبرن دون المنافج[١]
يذرن مروط الخز ملأى كأنها قصار وإن طالت بأيدى النواسج

وهذا المعنى متداول متناقل فى الجاهلية والإسلام ، فأغرب ذو الرمة فى قلبه وأحسن فقال يصف رملا [٢] :

ورمل كأوراك العذارى « البيت المتقدم » .

ويقول داود الأنطاكى : وأرفع الكل — يريد أساليب التشبيه — جعل الممدوح مشبهاً به محذوف الأداة ، مرشحا بلطائف الأوصاف ، وقل سالكه كقوله :

شمس الضحا كجبينك الوضاح أف لمن جعلوه كالمصباح[٣]

ويلاحظ أن المثال الذى أورده غير محذوف الأداة .

على أنه ليس من الحتم ، أن يقع التشبيه المقلوب صريحا ، فيعد منه ما لم يعرج فيه على ذكر التشبيه بل يشعر باحتياج المشبه به إلى المشبه [٤] .

وكثيراً ما يقع كذلك كقول يزيد بن معاوية :

مليحة لو رأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوما على أحد

وقول الخالدى :

يا قضيبا يميس تحت هلال وهلال يرنو بعين غزال
منك يا شمسنا تعلمت الشمس م دنو السنا وبعـــد المنال

وقد سرقه من قول ابن الرومى [٥] :

يا شبيه البـــدر فى الحسن م وفى بعـــــد المنال

---

(١) خدال الشوى : ممتلئات الأطراف ، والرسح : جمع رسحاء ؛ قليلة لحم العجز والفخذين ، والمنافج : الحشيات توضع فوق الأرداف لتضخيمها .
(٢) زهر الآداب — ٢ — ٩٣ — ٩٤ (٣) تزيين الأسواق — ١٨٩
(٤) المصدر نفسه — ١٨٩ (٥) يتيمة الدهر — ٢ — ١٨٣

ولسيف الدين بن المشد :

يبهجتى من لو بدت ‌ للشمس من تحت النقاب
ســترت محاسن وجهها ‌ خجلا ولاذت بالسحاب

وقول كشاجم :

البــدر لا يغنيك عنها إذا ‌ غابت وتغنيك عن البــدر
فى فمها مسك ومشمولة ‌ صرف ، ومنظوم من الدر
فالمسك للنكهة والخمر للريقة ‌ م واللؤلؤ للثغــــر

وقول ابن النفيس القطرسى :

أتظن غصن البان يعجبنى ‌ م وقد عاينت قدك !
أم يخــدع التفاح ألحاظى ‌ م وقد شاهدت خدك !

وقول عبد الجليل بن وهبون :

وافت به غفلة الرقيب ‌ والنجم قد مال للغروب
نشوان قد هزت الحميا ‌ منه قضيبا على كثيب
يعثر فى ذيله فيحكى ‌ عثرة عينيه فى القلوب
والله لو نالت الثريا ‌ ما نال من بهجة وطيب
دنا إليها الهلال حتى ‌ قبل فى كفها الخضيب

وقول ابن عبد ربه :

أدعو عليك فلا دعاء يسمع ‌ يا من يضر بناظريه ويسمع
للورد حين ليس يطلع دونه ‌ والورد عندك كل حين يطلع

وقوله :

يقولون فى البستان للعين لذة ‌ وفى الخمر والماء الذى غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ‌ ففى وجه من تهوى جميع المحاسن

وقد فطن ذوو الذوق السليم بالفطرة إلى جمال التشبيه المقلوب وعلو منزلته فى البيان .

فقال الأصمعي[1] : سمعت أعرابيا يقول إنكم معاشر أهل الحضر، لتخطئون المعنى ، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه ! ثم قال والله لأنشدنك شعراً يكون لك إماما ، ثم أنشدني :

إذا سألت الورى عن كل مكرمة ... لم تُلف نسبتها إلا إلى ، الهول ،
فتى جواداً أعار النيل نائله ... فالنيل يشكر منه كثرة النَّيل
والموت يرهب أن يلقى منيته ... فى شدة عند لف الخيل بالخيل
لو عارض الشمس ألفى الشمس مظلمة ... أو زاحم الصمَّ ألجاها إلى الميل
أو بارز الليل غطته قوادمه ... دون الخوافى كمثل الليل بالليل
أمضى من النجم إن نابته نائبة ... وعند أعدائه أجرا من السيل

وهذا الأعرابي دقيق فى ملاحظته ، ولكنه لم يحسن الاختيار ، فالشعر غليظ ثقيل ، وأجود منه عند أبي هلال العسكري[2] .

قول الآخر :

علّم الغيث الندى حتى إذا ... ما حكاه علم البأس الأسد
فله الغيث مقر بالندى ... وله الليث مقر بالجلَد

تطور التشبيه المقلوب .

والحق أن أهل الحضر لم يقصروا فى هذا اللون من التشبيه ، ولم يخطئوا المعنى — كما زعم هذا الأعرابي — فحين استبحرت الحضارة فى العصر العباسي ، وعم الترف ولان العيش ، أخذ الشعراء بحظ من المتع والمباهج ، وعلت ثقافتهم بما حصلوا عليه من معارف جديدة منوعة ، فاتسعت أمامهم دائرة الابتداع ، وتزاحموا على أبواب الخلفاء والأمراء والوزراء بالمناكب ،

(١) نهاية الأرب — ٣ — ١٨٥ (٢) ديوان المعاني — ١ — ٢٥

اقتناصاً للجوائز والصلات ، فغالوا فى المدائح ، وافتنوا فى الغزل ، ووشّوا شعرهم بألوان من الصنعة اللطيفة تساوق الطبع ولا تطغى عليه ، كان منها هذا اللون من التشبيه الذى يعتمد المبالغة .

نعم إنه ليس بجديد عليهم ، فقد سُبقوا به .

يقول قيس بن الخطيم — وهو ممن عاش فى الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يسلم — :

فما روضة من رياض القطا كأن المصابيح حَوذانها[1]

بأحسن منها ولا مزنة دلوح تَكشّف إدجانها

قال أبو الفرج الأصبهانى :

أراد : كأن حوذانها المصابيح فقلب ، والعرب تفعل ذلك .

قال الأعشى :

كأن الجمر مثل ترابها .

أراد : كأن ترابها مثل[2] . . . . .

ويقول المرحوم تيمور باشا جاء البيت كما يأتى :

حتى إذا احتدمت وصار الجمر مثل ترابها

أى وصار ترابها مثل الجمر .

ثم يقول : وقد روى هذا البيت فى الأضداد لأبى الطيب اللغوى . وفى القرطين للكنانى . .

والذى فى الأضداد للسجستانى :

حتى يصير الجمر مثل ترابها

على أنه شطر بيت فإنى لم أجده فى نسخة ديوان الأعشى التى بيدى ، ولعله

---

(١) القطا : من أرض اليمامة والحوذان بالفتح : نبات حلو طيب الطعم . والدلوح : السكوب ، والإدجان : الظلام . (٢) الأغانى — ٢ — ٤٤٧ (ط . دار الكتب) .

لأعشى آخر ، إلا أن عادتهم إذا أطلقوا أرادوا الأعشى الأكبر [١].

وكذلك ورد فى القرآن الكريم مثلما حكاه — جل وعلا — عن مستحلى الربا من قولهم : « إنما البيع مثل الربا » فى مقام : إنما الربا مثل البيع ، لأن الكلام فى الربا لا فى البيع ، ذهابا منهم إلى جعل الربا فى باب الحل أقوى حالا ، وأعرف من البيع .

وقوله — تعالى — : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » لمزيد التوبيخ فيه دون أن يقول : أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه ، لكونه إلزاما للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله — تعالى — فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق .[٢]

وقد استشكل بعض العلماء هذا التشبيه ، وعد هذه الآية مشكلة ، لأن قاعدة التشبيه تقتضى أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، ولا يقال : إنهم كانوا يعظمون الأصنام أكثر ، لأنهم لم يقولوا ذلك ، وإنما قالوا « إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى » بخلاف قوله — تعالى — : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » وقوله — تعالى — « أم نجعل المتقين كالفجار » فإنهم لما كانوا يقولون : نحن نسود فى الآخرة كما سدنا فى الدنيا ، جاء الجواب على وفق معتقدهم : أنهم أعلى والمسلمون أدنى .

وأجاب بعضهم : بأن الخطاب لعباد الأوثان ، وهم بالغوا فى عبادتها حتى صارت عندهم أصلا فى العبادة ، فجاء الإنكار على وفق ذلك[٣] .

ويقول السكاكى : وعندى أن الذى تقتضيه البلاغة القرآنية : هو أن يكون المراد بمن لا يخلق : الحى القادر من الخلق لا الأصنام ، وأن يكون

---

(١) أوهام شعراء العرب — ٧٦ — ٧٧

(٢) مفتاح العلوم — ١٨٤

(٣) المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله — ١ — ١٢٨

الإنكار موجها إلى توهم تشبيه الحى العالم القادر من الخلق به — تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً — تعريضا به عن أبلغ الإنكار لتشبيه ما ليس بحى عالم قادر به — تعالى — .

ويكون قوله : « أفلا تذكرون » تنبيه توبيخ على مكان التعريض[1] .

وكذا قوله — تعالى — « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » من هذا النوع .

وقول رؤبة :

وسهمه مغبرة أرجاؤه   كأن لون ارضه سماؤه

فالأصل : كأن لون سمائه لون أرضه .

قالوا : والاعتبار اللطيف : هو المبالغة فى وصف السماء بالغبرة ، حتى كأنه صار بحيث يشبه به لون الأرض فى ذلك مع أن الأرض أصل فيه[2] .

ومن آثار العصر الأموى قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى « البيت المتقدم »

وقوله :

وليل كأثناء الزويزىّ جبته   بأربعة ، والشخص فى العين واحد

ويروى كجلباب العروس ادرعته .

والزويزى : هو الطيلسان ، وكل ذلك وصف له بالسواد ، لأن الطيلسان أسود ، وجلباب العروس أخضر ، والعرب تجمع بين الخضرة والسواد[3] .

وقول المجنون — وقد كثر القلب فى شعره — :

يا أخوى اللذين اليوم قد قنصا   شبها لليلى بحبـــل ثم غَلّاها

إنى أرى اليوم فى أعطاف شاتكما   مشابها أشبهت ليلى فَخُلّاها

(١) مفتاح العلوم ١٨٤

(٢) أوهام شعراء العرب — ٦٨

(٣) أمالى المرتضى — ٣ — ١٣

وقوله :

أيا شبه ليلى لا تُراعى فإننى ... لك اليوم من وحشيّة لصديق
أقول وقد أطلقتها من وَثاقها ... فأنت لليـــلى ما حييت عتيق

ونحو قول المجنون : ما أنشده على بن سليمان الأخفش ليعقوب بن الربيـع :

راحوا يصيدون الظباء وإننى ... لأرى تصيّدها على حراما
أشبهن منك سوالفا ولواحظا ... فأرى على لها بذاك ذِماما
أعزِز على بأن أرُوع شبيهها ... أو أن يذقن على يدىَّ حِماما

ولـكن ما ورد من ذلك فى العهد الجاهلى والإسلامى ، كان أشبه بالقطر يعقبه الوابل المنهمر ! بالنسبة لما حدث فى العصر العباسى الأول وكان فى جملته ساذَجا بدائياً خاليا من التأنق والتحلية ، وأين يقع قول ذى الرمة فى تشبيهه الرمل بأوراك العذارى من قول البحترى :

فى طلعة البدر شىء من ملاحتها ... وللقضيب نصيب من تثنيها

أين يقع الرمل والأوراك بما فيهما من غلظ وخشونة وجساوة وضخامة مفرطة مضحكة من ملاحة ، حاز البدر منها شيئا قليلا ، وتثنٍ نال منه الغصن حظا ضئيلا !

بل أين يقع هذا كله من قول خالد الكاتب :

رأت منه عينى منظرين كما رأت ... من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشيّةَ حيانى بورد كأنه ... خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
ونازعنى كأساً كأن حَبابها ... دموعىَ لما صدَّ عن مقلتى غُمضى
وراح وفعل الراح فى حركاته ... كفعل نسيم الريح بالغصن الغض

أرأيت إلى هذه الخدود التى أضيف بعضها إلى بعض ؟

إننى لا أدرى ما تأثير هذا فى نفسك ؟ ولكننى أدرى أن إبراهيم بن المهدى حينما سمعها من الشاعر ، استخفه الطرب ! فزحف فى مقعده حتى صار فى ثلثى فراشه ! ثم هتف : يا فتى ، شبّهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود !

ثم أجازه بصلة سنية[1] .

ومن الأمثلة الجميلة فى هذا العصر : قول ابن الرومى يصف الشقائق :

تصوغ لنا كف الربيع حدائقا كعقد عقيق بين سمط لآلى
وفيهن نُوار الشقائق قد حكى خدود غوان نُقِّطت بغوالى

وقول مسلم بن الوليد :

أجدّك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر

وقول الحسين الخليع :

وصَفَ البدر حسن وجهك حتى خلت أنى — وما أراك — أراكا
وإذا ما تنفس النرجس الغض م توهمتــــه نسيم شذاكا
خُدَع للمنى تعللنى فيك م بإشراق ذا وبهجة ذاكا

وقول أبى نواس يمدح الأمين — وهو ولى عهد — :

تتيه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنهما الأمير
فإن يك أشبها منه قليلا فقد أخطاهما شبه كثير
لأن الشمس تغرب حين تمسى وأن البدر ينقصه المسير
ونور محمد أبداً تمام على وضح الطريقة لا يجور

وقوله فى الوصف :

لدى نرجس غض القطاف كأنه إذا ما منحناه العيون عيون

وقوله فى الغزل :

يا نظرة ساقت إلى ناظرى أسباب ما يدعو إلى حتفه

---

(١) زهر الآداب — ٤ — ١٣٩ — ثمرات الأوراق للحموى — ٢ — ٢٧٥ « على هامش المستطرف » .

من حسن ظبي حسَن دَلّه يقصّر الواصف عن وصفه
في البدر من صفحته لمحة ولمحة في الظبي من طرفه
مَقاتل الأنفس في لحظه وفي ثناياه وفي كفه

وقول علي بن الجهم — وهو أحسن ما قيل في معناه — :

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يا من لست أذكره وصل وهجر وتقريب وإبعاد

ويذكرون : أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم (١) ، فقعد لهم محمد بن عبدالملك الزيات ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم من كان يحسن أن يقول مثل قول النمري في الرشيد فليقل :

خليفة الله إن الجود أودية أحلّك الله فيها حيث تجتمع
إن أَخلف القطر لم تُخلف شمائله أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فقال ابن وهيب : فينا من يقول مثله :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحا وأبو إسحق والقمر
تحكى أفاعيله في كل نائبة الغيث والليث والصمصامة الذكر

وقول البحتري :

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها(٢)

وقوله :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد

فإذا تعاقبت السنون وجاء العصر العباسي الثاني وما تلاه من العصور استحكمت هذه الصنعة وبلغت ذروتها ، ورأينا هذا اللون — أخيراً —

---

(١) ديوان المعاني للعسكري — ١ — ٢٨

(٢) زهتها : حركتها تحريكا شديداً ، والجواشن الدروع.

يجرى مع المحسنات البديعية فى مضمارها الواسع ، فظهرت عليه سمة التكلف ، وشابته المبالغة ، وامتزجت به فنون من الزخارف ألقت عليه ظلا ثقيلا ، ولكن بعض الشعراء كان قوى الطبع ، صنَعَ الفكر ، رهيف الذوق ، فجاء به آية فى الخفة والرشاقة ، كقول ابن المعتز : — وهو من المكثرين فى ذلك — :

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها   شبيهة خدها بغير رقيب
فأمسيت فى ليلين بالشعر والدجى   وشمسين من خمر وخد حبيب

وقوله :

والأقحوان كالثنايا الغــــر   قد صُقلت أنواره بالقطر

وقوله :

وتوقّد المريخ بين نجومها   كبَهارة فى روضة من نرجس[1]

وقوله :

والصبح فى طرة ليل مسفر   كأنه غرة مهر أشقر

وقوله يصف سحابة :

وساريه لا تمــــل البكا   جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها   ببرق كهندية تُنتضى

والتشبيهات فى كل ذلك مقلوبة .

وقول الأمير تميم الفاطمى — وقد جاء على صيغة المراجعة — :

ما هجرت المدام والورد والبد   ر بطوعى لكن برغم وكره
منعتنى من الثلاثة من لو   قتلتنى لم أحك بالله مَن هى
قالت : الورد والمدامة والبد   ر ضيائى ولون خدى ووجهى

---

(١) البهار : الأقحوان الأصفر عند بعضهم .

قلت بخلا بكل شيء ! فقالت   لا ، ولكن بخلت بي وبشبهى

وقول الخالدى :

أهلا بشمس مدام من يدى قمر   تكامل الحسن فيه فهو تياه

كأن خمرته إذ قام يمزجها   من خده اعتصرت أو من ثناياه

إذا سقتك من الممزوج راحته   كأسا سقتك كئوس الصرف عيناه

وقوله :

أما ترى الغيم يا من قلبه قاسى   كأنه أنا مقياسا بمقياس

قطر كدمعى ، وبرق مثل نار جوى   فى القلب منى ، وريح مثل أنفاسى

وقوله :

الوجه ريحانة منه تراح لها   منا قلوب وأبصار وتهواه[1]

النرجس الغض عيناه وطرته   بنفسج ، وجنى الورد خداه

وقول عبد الجليل بن وهبون :

زعموا الغزال حكاه قلت لهم نعم   فى صده عن عاشقيه وهجره

وكذا يقولون المدام كريقه   يا رب ما علموا مذاقة ثغره

وقول آخر :

ومقرطق يغنى النديم بوجهه   عن كأسه الملى وعن إبريقه[2]

فعل المدام ولونها ومذاقها   فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

وكان من عادة عوام الفرس فى النيروز ، رفع النار فى ليلته ، ورش الماء فى صبيحته ، فقال المعوج الشاعر يصف ذلك :

---

(١) راح له يراح : استشرف له وفرح .   (٢) المقرطق بالقاف : لابس القباء ، وبعض الناس يظنه لابس القرط ، والمقرطف بقاف وفاء : هو اللابس لثوب له خمل ، والمقرط : لابس القرط .

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى　　وكل ما فيه يحكينى ويحكيه
فناره كلهيب النار فى كبدى　　وماؤه كتوالى عـــبرتى فيه

ومما يلاحظ: أن المتأخرين أكثر ما أوقعوا التشبيه المقلوب فى الغزل وأكثر ما استمدوا صوره من نتاج الطبيعة كالأنهار والغصون والأزهار والثمار يشبهونها بأعضاء المحبوب.

كقول ابن سارة المغربى:

والنهر قد رقت غلائل صِبغه　　وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقرق الأمواج فيه كأنها　　عُكَن البطون تهزُّها الأعجاز [1]

وقول الحسن بن الغليظ المالقى من شعراء الذخيرة:

ولما تبدى الورد فوق غصونه　　وذكرنى بالورد فى صفحة الخد
ذكرت به من خده لى روضة　　تهيم بها من حسنها روضة الورد

وقول القاضى الجرجانى:

أفدى الذى قال وفى كفه　　مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنتى　　قلت: فمى باللثم يجنيه

وقول الصفدى:

عذارك والطرف يا قاتلى　　يحاكيهما الآس والنرجس
وقد صـار بينهما نسبة　　فهذا يدِبُّ وذا ينعس

وقول الخالدى فى هدية عنب:

هدية شرفتنا مر أخى ثقة　　نعم الهدية إذ وافتك من يده
نوعان من عنب جاءا على طبق　　كأن طيبهما من طيب محتده

(١) العكن جمع عكنة بضم فسكون: ماانطوى وتثنى من لحم البطن سمنا.

وقول آخر فى السفرجل :

سفرجلة صفراء تحكى بلونها محبًا شجاه للحبيب فراق
إذا شمها المشتاق شبه ريحها بريح حبيب لذَّ منه عِناق
وطيِّبة عند التناول طعمها كريق حبيب طاب منه مذاق

ولآخر فى الريحان :

قضيب من الريحان شاكل لونه إذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعِّدا عذاراً تبدَّى فى سوالف أغيد

ولآخر فى أشجار النارنج :

وأشجار نارنج كأن ثمارها حقاق عقيق قد مُلئن من الدر
يطالعها بين الغصون كأنها قدود عذارى فى ملاحفها الخضر

ويلاحظ أن التفاح أكثر الفواكه حظا من التشبيه عامة والمقلوب خاصة .

قال العسكرى :

وتفاحة حمراء صفراء غضة كخد محب فوق خد حبيب
أُحيأً بها طوراً وأشرب مثلها من الراح من كفْ أغن ربيب

وقال ابن رشيق :

وتفاحة من كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذى مثل قده
حكت لمس نهديه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحمرة خده

وقال ابن عباد :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا دعوت بكأسى وهى ملأى من الشفق
وقلت لساقيها أدرها فإنها خدود عذارى قد جُمعن على طبق

ولآخر :

أهدى لنا التفاح مِن كفه من لم يزل نجنيه من خده

وخط بالمسك على بعضها قد عطف المولى على عبده

ولآخر فى الرمان :

طعم الوصال يشوبه طعم النوى سبحان خالق ذا وذا من عود
فكأنها والخضر من أوراقها خضر الثياب على نهود الغيد

وقال فيه محمد بن عمر المقرىء الكاتب :

ورمان رقيق القشر يحكى ثُدىَّ الغيد فى أثواب لاذ(٢)
إذا قشرته طلعت علينا فصوص من عقيق أو بَجازى

وللصنوبرى — وهو من المبدعين فى وصف الرياض — قطعة رائعة يشبه فيها ماحواه الروض من محاسن بمحاسن الخرد الغيد ، حتى ليخيل إلينا أن الروض معرض من معارض الجمال قد تبرجت فيه عرائس سافرات يعرضن مفاتنهن على العيون ! ولم يكفه ذلك حتى علل حبنا للرياض تعليلا طريفاً ، وهو تشبهها بالحبائب بما تجلوه علينا من جمالها وزينتها .

قال :

تَشبُّه الروض بالحبائب قد زاد المحبين فى محبتها
كم من قدود هناك من قضب تميل من لينها ونَعمتها(١)
كم وجنة خالُها يلوح لنا سواده فى صفاء حمرتها
وكم ثنايا تَسبي بنكهتها وكم عيون تسبي بلحظتها
كل صفات الجمال مجملة بين تفاريقها وجملتها

(١) يريد بطعم الوصال : حبه ، وبطعم النوى : قشره .
(٢) اللاذ : ثياب حمر من الحرير كانت تنسج فى الصين ، والبجازى : حجر فيه خمرية وأجوده ما اشتدت حمرته وكثر بريقه .
(١) النعمة : بالفتح : التنعم .

وقد جاء التشبيه المقلوب فى غير هذه المعانى التى ذكرناها ، كقول أحمد بن أبى طاهر فى تشبيه النار بنار العشق :

ونار كنار الشوق فى قلب عاشق ... على أنه منها أحر وأوقد
ظللت بها عند المبرد قائظا ... فما زلت فى ألفاظه أتبرد

وقول أبى عبد الله الخليع لأحمد بن طولون يشبه النار بالسؤال:(١)

والعار فى مدحى لغيرك فاكفنى ... بالجود منك تعرضى للعار
والنار عندى كالسؤال فهل ترى ... ألا تكلفنى دخول النار

وقال آخر :

ذكرت سليمى وحر الوغى ... كقلبى ســــاعة فارقتها
فشبهت سمر القنا قدها ... وقد ملن نحوى فعانقتها

وقال آخر فى الشمعة :

حكتنى وقد أودى بى السقم شمعة ... وإن كنت صبا دونها متوجعا
ضنى وسهادا واصفرارا ورقة ... وصبراً وصمتا واحتراقا وأدمعا

وقال آخر فى فتك العيون :

إن العيون النجل أمضى موقعا ... من كل هندى وكل يمانى
فضل العيون على السيوف لأنها ... قتلت ولم تخرج من الأجفان

والأصل فيه قول القائل :

بين السيوف وعينيه مشاركة ... من أجلها قيل للأغماد أجفان

وقد يجتمع التشبيه المقلوب مع غيره فى نسق واحد كقول بعض الشعراء :

أهديت مشبه قدك المياس ... غصناً نضيراً ناعما من آس
فكأنما يحكيك فى حركاته ... وكأنما تحكيه فى الأنفاس

---

(١) نثر النظم وحل العقد للثعالبى — ٢٣

وقول العسكرى :

حال بينى وبين بابك حالا ن وحول وقرب عَهد عِهاد[1]
فكأن الوحول ليل محب وكأن السماء كف جواد

وقول أبى جعفر الشطرنجى :[2]

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه قاعده
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحده

وقول قطب الدين الحنفى من شعراء السلافة [3] :

لا وفرع كدجى الليل غسق وجبين ضوءه ضوء الفلق
ومحيا كَلِف البدر به وخدود من حواليْها شفق
ما أرى الغزلان إلا سرقَت منك جيداً والتفاتا وحَدق
ثم خافت فتولّت شرّدا كيف لا يشرُد خوفا من سرَق

ومن بديع ماورد منه فى النثر قول أحمد بن أبى صالح — يصف جارية كاتبة — : كأن خطها أشكال صورتها ؛ وكأن مدادها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قلمها بعض أناملها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها سيف لحظها ، وكأن مِقطها قلب عاشقها [4] .

وليس كل التشبيه المقلوب سواء فى الحسن ، بل يتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيراً بما يضاف إليه من أصباغ وألوان ، وبما يراعى فيه من دقة وعمق ، وبما يحمله من أمور طريفة مخترعة ، وبما يلحظ فيه من دقة المشاكلة فى الوصف الجامع .

---

(١) الحول : القوة ، والعهاد : أمطار الربيع الأولى جمع عهد .
(٢) نسبها القلقشندى إلى الزركشى فى دنانير البرمكية . نهاية الأرب — ٢ — ٣٦
(٣) سلافة العصر لصدر الدين المدنى — ٤٢٤ .
(٤) ديوان المعانى — ٢ — ٧٥

فقد جرى العرف مثلا على تشبيه الخد بالتفاح ، ولكن لا يكفى أن تقلب التشبيه ، فتقول : تفاح كالخد ، حتى تكون أتيت بشىء بديع يعتد به فى البلاغة ، غير أنك تستطيع أن تخلب القارئ وتثير إعجابه ، وتلهب شعوره ، وتقنعه أنك جلوت عليه صورة أنيقة فاتنة إذا جئته بمثل قول ابن دريد :

وتفاحة من سوسن صيغ نصفها ومن جُلَّنار نصفها وشقائق
كأن النوى قد ضمَّ من بعد فرقة بها خد معشوق إلى خد عاشق

ذلك لأنه أعطاك هنا صورة دقيقة محكمة كاملة للتشبيه : تفاحة نصفها من سوسن ، ونصفها الآخر من جلنار وشقائق ، وكذلك التفاحة تتألف غالبا من لونين : أصفر وأحمر .

ثم نرى فى الطرف الثانى المقابل خدين : أحدهما أحمر وهو خد المعشوق الذى يجول فيه ماء الشباب ، والآخر أصفر وهو خد العاشق الذى أذبلته اللوعة ووسمه الغرام بميسم الضنى ، فحدث هنا التلاؤم والانسجام والمشاكلة بين طرفى التشبيه .

ومن ذلك تدرك أن الجمع بين التفاح والخد مجردين ، لم ينظر فيه إلا إلى صفة واحدة وهى الحمرة فقط فى كليهما ، وشتان بين هذا التشبيه الناقص وبين ذلك التشبيه التام المستوعب .

هذا إلى ما حفلت به الصورة من أصباغ مونقة ساحرة فى السوسن والجلنار والشقائق، تملك عليك حاسة البصر بما تستحضره لك من هذه الألوان المحببة ، ثم إلى ما يهز عاطفتك ، ويحرك فيك نوازع الشجى والطرب والعطف جميعا من تصور اعتناق العاشق والمعشوق وتلاصق خديهما فى ظل الوصال بعد أن ضرب بينهما الفراق بضرباته !

وكم كان جميلا من الشاعر أن يصور لنا النوى — وهى مصدر البلاء والشقاء — فى صورة من رق للحبيبين وعطف عليهما فساعفتهما باللقاء ! فكيف بالله استحال البخيل كريما والقاسى رحيما ! .

وكقول غالب الحجام فى مليحة تلعب بتفاحة :

عاينتها وبكفها تفاحة قد أُلبست من وجنتيها بُردها
ترمى بها فى وجهها وتظنها من خدها سقطت فتبغى ردها

وكقول الآخر :

تفاحة جمعت لونين قد حكيا خدى حبيب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واش فراعهما فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا

وكذلك يسهل عليك أن تقول كما قال ابن المعتز فى الورد والخدود :

بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود

وكما قال ابن الرومى فى النرجس والعيون :

وأحسن ما فى الوجوه العيون وأشبه شىء بها النرجس

وكما قال آخر فى الرمان والثدى :

رمانة مثل نهد الكاعب الريم تُزهى بشكل ولون غير مذموم

وكما قال شاعر عصرى فى الشقائق والخدود :

وخدود تُزهى بهن الغوانى أين منها شقائق النعمان

ولكن ما قيمة هذه الصور الشاحبة الجامدة المجردة من وشى البلاغة وعطرها المسكر ! بجانب هذه الصور التى يشع منها السحر وتنبض بها الحياة فى قول العسكرى :

مر بنا يهتز فى خطوه كالغصن غب العارض السارى
فشمت فى وجنته وردة جاءت من المسك بأخبار
تلوح فى حمرتها صفرة كالخد منقوطا بدينار

وقول آخر :

كأنما الوردة لما بدت ... فى كف من أهوى ويهوانى
حمرة خديه ، وفى وسطها ... صفرة لونى حين يلقانى

وقول أبى هلال :

حكى الرمان أول ما تبدى ... حِقاق زبرجد يُحشين درا
فجاء الصيف يحشوه عقيقا ... ويكسوه مرورُ الصيف تبرا
ويحكى فى الغصون ثدىً حور ... شقَقن غلائلا عنهن خضرا

وقول الطغرائى :

وترى شقائقه خلال رياضها ... أوفت مَطاردها على أزهارها[1]
فكأنها والريح تصقُل خدها ... والسحب تملؤها بصوت قطارها
أقداح ياقوت لطاف أُترعت ... راحا فبات المسك سؤر قرارها
وكأنها وجنات غيد أَحدقت ... بخدودها حمراً خطوطُ عذارها

وقول كشاجم :

فانظر بعينيك أغصان الشقائق فى ... فروعها زهَر فى الحسن أمثال
من كل مشرقة الأوراق ناضرة ... لها على الغصن إيقاد وإشعال
حمراء من صبغة البارى ، بقدرته ... مصقولة لم ينلها قط صقّال
كأنها وجنات أربع جمعت ... فكل واحدة فى صحنها خال

وكذلك تجد ألوانا من هذا الفن الخصب الوثيق الصلة بالحياة ، والمجلو فى معارض زاهية من السحر والفتون فى مثل قول ابن المعتز فى النارنج :

كأنما النارنج لما بدت ... صفرته فى حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقا ... فاحمر ثم اصفر خوف الرقيب

---

(١) المطارد : أى رماحة واحدها مطرد كمنبر ، وهو الرمح القصير .

وقول التنوخى فى الأقحوان والنرجس والشقيق :

أقحوان معانق لشقيق كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ فى خدود الغيد

وقول ابن فرج صاحب كتاب الحدائق فى النرجس :

ونرجس تطرف أجفانه كمقلة قد دب فيها الوسن
كأنه من صفرة عاشق يلبس للبين ثياب الحزَن

فهذه الأمثلة وما شاكلها لا ترى فيها القلب وحده ، بل ترى إلى جانبه ألواناً من الجمال وفنوناً من الحسن ، وضروباً من الوشى ، وترشيحات لطافا خلابة ، ومعانى دقاقا عميقة ، تؤلف جميعا صورة متسقة مؤتلفة تلهيك عن مزية القلب نفسه ، فلا تكاد تحس به بل تصرفك إليها مباشرة لتستمتع بما حوته من سمات الجمال .

ومما يلفت النظر أن التشبيه المقلوب لا يكاد يقع فى غير التشبيهات الصريحة كما تدل عليه هذه الأمثلة المستفيضة التى أوردناها ، والذى وقع منه فى التمثيل وقع فى هذه الأمثلة التى نوهنا بما اتسمت به من دقة وحسن وطرافة وهى قليلة محدودة إذا قيست إلى غيرها .

وقد عقد الإمام عبد القاهر موازنة بينه وبين تشبيه التمثيل ، خرج منها بالحكم على أن طريقة العكس لا تجىء فى التمثيل على حدها فى التشبيه الصريح ، إلا على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجا ، ويبعد عنه بعداً شديداً .

وقد أدار الموازنة على البيت المشهور :

وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

وزبدة كلامه : أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلى ، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن ، إلا أن ذلك لا يجرى مجرى قولنا : كأن النجوم

مصابيح تارة ، وكأن المصابيح نجوم أخرى ، ولا كقولنا : كأن السيوف بروق تومض ، وكأن البروق سيوف تسل .

وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة ، وتجده العين فى الموضعين ، وليس هو فى هذا مشاهداً محسوساً ، وفى الآخر معقولا متصوراً بالقلب ، ممتنعاً فيه الإحساس ؛ فإنك تجد فى السيوف لمعانا ثم هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة ، تجده بعينه أو قريباً منه فى البروق فلو أن رجلا رأى من بعيد بريق سيوف تنتضى من الغمود لم يعد أن يغلط فيحسب أن بروقا أومضت .

ومحال أن يكون الأمر كذلك فى التمثيل ؛ لأن السنن ليست بشىء يتراءى فى العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وإنما يقصد بالتشبيه فى هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى ، فلما كانت الضلالة والبدعة وكل ما هو جهل يجعل صاحبها فى حكم من يمشى فى الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق لزم عن ذلك أن تشبه بالظلمة ، ولزم عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريعة وكل ما هو علم بالنور .

فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته » فى بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر ، إلا أن التأويل هناك : أنه جعل فى وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد ، والتأويل هنا : أنه خيَّل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك[1] .

وقد اختلف العلماء فى بيت أبى تمام الذى يصف به القلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات ، وهو :

لُعاب الأفاعى القاتلات لعابه ... وأَرْى الجنى اشتارته أيد عواسل[2]

(١) أسرار البلاغة — ١٨٢ (٢) هذا البيت أحد أبيات عشرة فى وصف القلم ، وهى أحسن وأفخم ما قيل فيه ، والأرى : الملصق من العسل فى جوف الخلية ، واشتارته : استخرجته ، والعواسل جمع عاسلة مستخرجة العسل .

والرأى الراجح : أن لعابه مبتدأ مؤخر ، ولعاب الأفاعى خبر مقدم . وأرْى معطوف على الخبر عطف مفرد على مفرد ويكون لعاب القلم قد شبه بشيئين وهما السم والعسل باعتبارين . فهو بالنسبة إلى الأعداء سم قاتل وبالنسبة إلى الأولياء شفاء عاجل ، وبهذا الإعراب لا يكون من التشبيه المقلوب .

ويجوز أن يكون « لعاب الأفاعى » مبتدأ ، ولعابه خبر ، وأرى الجنى مبتدأ خبره محذوف تقديره « لعابه » أيضاً ، فيكون من التشبيه المقلوب ويكون من عطف الجمل وفيه تكلف .[1]

وقد يقال : ولكن التقدير الأخير يذهب بشطر البلاغة فى البيت ، وهو القلب فى التشبيه ، فالمعروف أن التشبيه المقلوب أبلغ من غيره لما تضمنه من مزيد المبالغة .

وهذا الاعتراض سديد ووجيه فى الظاهر ، ولكننا نقول : إن البلاغة تبرأ من التعسف والتكلف ، وتجرى على سنن الفطرة ، فإذا أخذنا بهذا الرأى كنا كمن أخذ شيئا وأضاع أشياء ، والتجرد من الشين خير من الجمع بين الشين والزين ، وعدم التكلف أولى من التكلف . وإلا فلاتفى الزيادة فى شىء ، بالنقص فيه من ناحية أخرى ، فالسلامة من العيوب يجب أن تكون الغاية المنشودة أولا ! وليس القلب بشىء إذا لم يقع موقعه اللائق به حتى كأنه متعين فيه ، وكأن المقام ينادى عليه !

على أنه ليس كل تشبيه مقلوب يعد فى نظر البليغ الأريب أفضل من الصريح فهذا الحسن بن فارس يقول :

رب ليل كأنه فرع ليلى ما به كوكب يلوح لسارى

ولا خلاف فى أنه تشبيه جميل القلب ، وزاده هذا الجناس الرشيق بين ليله وليلاه حسنا ، وليس فى البيت شائبة تكلف ولا غلظ ولا غموض ،

(١) خزانة الأدب للبغدادى ـ ١ ـ ٤٠٤ ـ أمالى المرتضى ـ ٤ ـ ١٧٣

ولكن من الظلم أن نقيسه بقول ابن الرومى فى هذا المعنى وقد خلا من القلب :

وفاحم وارد يُقبّل مَمشا ه إذا اختال مُرسلا غُدَره [1]
أقبل كالليل من مفارقه منحدرا لا يذم منحدَره
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل موطىء عفَره
كأنه عاشق دنا شغفا حتى قضى من حبيبه وطره

ويقول شاعر يصف الثدى :

ورمانة شبهتها مذ رأيتها بنهد العذارى أو بقبة مرمر

ومع أن التشبيه جاء مقلوبا ، فإنه لا يساوى فتيلا إذا وزن بقول عبد الله بن أبى السِّمط بن مروان فى حسنه ودقته وطرافته وتصويره للواقع :

كأن الثدى إذا ما بدت وزان العقودُ بهن النحورا
حقاق من العاج مكنونة يسعن من المسك شيئا يسيرا [2]

وقول ابن المعتز :

قبيح بمثلك أن تُهجرى وأقبح من ذاك أن تهجَرى
أقاتلتى بفتور الجفون ورمانتين على مرمر
كحُقَّين من لُب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

وقول ابن الرومى :

مُلقِمات أطفالهنّ ثديّا ناهدات كأحسن الرمان
مُفعَمات كأنها حافلات وهى صِفر من دِرة الألبان [3]

---

(١) الوارد : الشعر الطويل المسترسل ، والغدر : خصل الشعر ، والعفر : التراب .
(٢) رواية القلقشندى : يسعن من الدر شيئا كثيراً . نهاية الأرب ـ ٢ ـ ٩٠ والأولى أدق عندى .
(٣) الدرة بالكسر : اللبن أو كثرته .

وقد عد الشهاب الخفاجي بيت المتنبي :

نحن ركب مِلْجن فى زِى ناس   فوق طيرلها شُخوص الجمال[1]

من خلاف مقتضى الظاهر ، وجعله نوعا من التنويع ، والتنويع فن بديعي وهو ادعاء أن مسمى اللفظ نوعان : متعارف وغير متعارف على طريق التخييل ، وهو يجرى فى مواطن شتى منها التشبيه كالبيت المتقدم.[2]

وعده ابن جنى من التشبيه المقلوب فقال : وآخر من جاء به « شاعرنا » يعنى أبا الطيب ، فجعل كونهم جنا : أصلا ، وجعل كونهم ناسا : فرعا ، وجعل كون مطاياه طيراً : أصلا ، وكونها جمالا : فرعا ، فشبه الحقيقة بالمجاز فى المعنى الذى أفاد المجازُ من الحقيقة ما أفاد[3] .

وقد رده ابن سنان الخفاجي ، فقال : وهذا عندى تعسف من أبى الفتح لا تقود إليه ضرورة .

ومراد أبى الطيب المبالغة على حسبما جرت به عادة الشعراء ، فيقول : نحن قوم من الجن لجوبنا الفلاة والمهامه والقفار التى لا تسلك ، وقلة فرقنا فيها ، إلا أننا فى زى الإنس وهم على الحقيقة كذلك ، ونحن فوقها طير من من سرعة إبلنا إلا أن شخوصها شخوص الجمال ولا شك فى إيضاح ذلك .[4]

ويظهر أن ابن جنى — على علمه وفضله — كان يدق عليه أحيانا شعر أبى الطيب ، فيسلك فى فهمه مسالك غريبة لا تمت بصلة إلى الذوق الأدبى .

فقد شرح فى كتابه الموسوم « بالمفسر » الذى ألفه فى شعر أبى الطيب قوله :

كلُّ جريح تُرجى سلامته   إلا فؤاداً رمته عيناها[5]

---

(١) وملجن : من الجن حذفت النون لالتقاء الساكنين حملا لها على حروف العلة لمناسبتها لها فى الغنة .   (٢) طراز المجالس — ٢٨   (٣) الخصائص — ١ — ٣٠٩

(٤) سر الفصاحة — ١٠٨

(٥) ويروى : إلا جريحا ، وروى الواحدى : دهته بدل « رمته » .

تبلُّ خدَّىَّ كلما ابتسمت   من مطر برقُه ثناياها

فقال : إنها كانت تبزق فى وجهه .

فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبتسم ، فيخرج الريق من فمها ويقع على وجهه فشبهه بالمطر .

قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره !

وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال فى غيره ! لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب(١).

وإنما قصد أبو الطيب ، أنها كلما ابتسمت لمعت ثناياها كالبرق فبكى من شغفه بها بدموع كالمطر تنحدر على خديه ، وقد جرت العادة أن المطر يعقب البرق .

وقد جاء بهذا المعنى الخبز أرزى صريحا واضحاً فى قوله :

ومن طاعتى إياه يُمطر ناظرى   له حين يُبدى من ثناياه لى برقا

كأن دموعى تُبصر الوصل هاربا   فمن أجل ذا تجرى لتدركه سبقا

وذكر الحصرى أن أبا الحسن أنشد البيتين السابقين ، ثم قال : إن المتنبي أخذ البيت الأول ، فقال : تبل خدىَّ(٢) .

وإذا كان ابن الأثير قد عجب من فهم ابن جنى لهذا البيت هذا الفهم الغريب ، فإن من حقنا أن نعجب من قوله فى التشبيه المقلوب : أن آخر من جاء به شاعرنا !

وكيف فاته أن معاصريه من الشعراء قد جاءوا به ، وكيف يسلم له حكمه أن عصراً من العصور يخلو من هذا اللون على قرب تناوله من الخواطر .

فهذا السرى الرفاء ، وقد كان معاصراً للمتنبي ومنافساً له فى بلاط سيف الدولة يقول من قصيدة له يمدح بها القاضى الرَّقى .

(١) المثل السائر — ١٥١   (٢) زهر الآداب — ٤ — ٨٣

وكم خرق الحجاب إلى مقام ... توارى الشمس فيه بالحجاب
كأن سيوفه بين العوالى ... جداول يطردن خلال غاب

وقوله من قصيدة يمدح بها الوزير المهلبى :

كأن سيوف الهند بين رماحه ... جداول فى غاب سما وتأشبا

وذلك أن الأصل : أن تشبه الجداول والأنهار بالسيوف ؛ يراد بياض الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هو شكل السيف ، كقول ذى الرمة :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت ... جداول أمثال السيوف القواضب

ومن الغريب أن ابن جنى نفسه قد أتى بالتشبيه المقلوب فى شعره وقد كان شاعراً وله ديوان — وهو قوله فى الغزل —[1] :

غزال غير وحشىّ ... حكى الوحشىُّ مقلته
رآه الورد يجنى الور ... د فاستكساه حلته
وشم بأنفه الريحا ... ن فاستهداه زهرته
وذاقت ريقَه الصهبا ... ء فاختلسته نكهته

ولا يخلو شعر العصريين من هذا اللون وإن وسم بالقلة ، لأن روح العصر تمج المبالغة والتهويل ، وتجنح إلى الاتزان .

فمن ذلك قول البارودى :

وأقول إن البرق يحكى بشره ... لو كان برق المزن غير خلوب

وقوله :

فنى الغصن منها إن تثنت مَشابه ... وفى البدر منها إن تجلت ملامح

وقول حافظ يصف الفلاة :

كأن أديمها أحشاءُ صبّ ... قد التهبت من الوجد الأليم

---

(١) يتيمة الدهر — ١ — ٨٩

فهرس الكتاب

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

عرضه . تقسيم قدامة . تقسيم العسكرى وإفراطه فى ذلك . فضله فى توسيع دائرته. تقسيم آخر لابن أبى الأصبع نقلا عنه كذلك. تقسيم السكاكى وتلاميذه. فائدة التقسيمات ووضع القوانين . تقسيم ابن الأثير وطرافته تقسيم الحلبى .

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادي والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

تم الجزء الأول والحمد لله